

التفسير المبين

أَلْفَهُ وَكَتَبَهُ

الْفَقِيرُ إِلَى عَفْوِ رَبِّهِ

الشَّيْخُ الدُّكْتُور / عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَسَنِ بْنِ نَفِيسَةَ

صَاحِبُ مُؤَسَّسَةِ الْبُحُوثِ وَالدرَّاسَاتِ الْفَقْهِيَّةِ وَعُلُومِ الْقُرْآنِ

الْكَرِيمِ (الْوَقْفِيَّةِ) وَمَجَلَّةِ الْبُحُوثِ الْفَقْهِيَّةِ الْمَعَاصِرَةِ

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَوَالِدَيْهِ وَذُرِّيَّتَهُ وَإِخْوَانَهُ وَالْمُسْلِمِينَ

المجلد الثامن

٢٩٤١ هـ مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، ٢٩٤١ هـ (ح)

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

النفيسة ، عبد الرحمن بن حسن

التفسير المبين : المجلد الثامن . / عبد الرحمن حسن النفيسة . -

الرياض ، ٢٩٤١ هـ

ص . : ٠٠ سم

ردمك : ٠٠-٩-٩٠٠٣٠-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - التفسير الحديث أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ / ٢٥٢٤ / ١٤٣٠

رقم الايداع : ٢٥٢٤ / ١٤٣٠

ردمك : ٠٠-٩-٩٠٠٣٠-٦٠٣-٩٧٨

المسوحة الجوالية بـ CamScanner

جميع الحقوق محفوظة

لـ « مؤسسة البحوث والدراسات الفقهية »

وعُلوم القرآن الكريم الوقفية «

المملكة العربية السعودية - الرياض

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة غافر

مكية، وآياتها خمس وثمانون آية

﴿حَمْدٌ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ
الدَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهِيهِ
الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ .

بيان الآيات:

﴿حَمْدٌ﴾ من الحروف المقطعة، والله أعلم بمراده منها.

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ هذا بيان من الله أنه
نزل القرآن على عبده ورسوله، ووصف ذاته العلية بأنه العزيز
بعظمته وقوته، فينصر أوليائه، وينتقم من أعدائه، وأنه العليم بخلقه
وأحوالهم، وما يبدونه في سرهم وعلاانيتهم.

﴿غَافِرِ الدَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ كما وصف -جلَّ
وعلا- ذاته العلية بأنه يغفر ذنوب عباده، ويتجاوز عنها، ويقبل
توبتهم ورجوعهم إليه، فلا يؤاخذهم بما كسبوا قبل توبتهم، ولكنه
شديد العقاب إذا كفروا به، واستمروا على كفرهم، وماتوا عليه.

﴿ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو ذو الفضل الكبير، والإنعام الواسع، والغنى العظيم، ليس في الوجود رب ولا إله إلا هو، المدبر للكون، والمتصرف فيه ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: إليه المرجع يوم القيامة.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن القرآن منزل من الله تنزيلاً على نبيه ورسوله محمد - ﷺ، فافتضى هذا دحض كذب المكذبين، وتشكيك الكافرين، كما قال - تعالى -: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

- عظمة الله وقدرته في غفران ذنوب عباده، وقبول توبتهم، والانتقام من العصاة منهم؛ لقوله - تعالى -: ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠].

- الحكم بتوحيد الألوهية المقتضي وجوب صرف العبادة لله وحده، والتبرؤ من عبادة غيره.

﴿مَا يُجَدِّلُ فِي عَايَتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥١﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ

عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾ .

بيان الآيات:

﴿ مَا يُجَدِّلُ فِي عَايَةِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ هذا بيان من الله لرسوله أنه لما ظهر الحق بنزول القرآن وما فيه من البراهين والبيّنات، فلا يجادل فيه إلا الكفرة الذين فسدت عقولهم وفطرتهم، فأعرضوا عن الله، فأعرض عنهم.

﴿ فَلَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴾ أي: لا يخدعك ما هم فيه من النعيم من الأموال والأولاد، فإن هذا لا يدل على الرضا عنهم، وإنما هو إهمال واستدراج لهم، وسيلاقون العذاب.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي: كذب قوم نوح نبيهم، وكذب آخرون أنبياءهم، كقوم هود وصالح ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ أي: همّت تلك الأمم بقتل رسلها.

﴿ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ أي: جادلوهم بالباطل، وأعرضوا عن الحق، كما يفعل قومك معك ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ أي: قضيت عليهم بالهلاك بسبب كفرهم، وعنادهم، وتكذيبهم لرسولهم، وإيذائهم ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أي: انظر كيف جرى

عقابهم وإهلاكهم.

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: كما حق العذاب على أولئك المكذبين من الأمم لرسلم حقت الكلمة على الكافرين جميعاً أنهم من أصحاب النار، ومنهم: الذين كذبوك، وخالفوك، وجادلوك بالباطل.

أحكام وفوائد الآيات:

- أنه يجب على العبد ألا ينخدع بما يكون فيه الكفار من النعيم؛ لأن ذلك إمهال واستدراج لهم؛ لقوله -تعالى-: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيِّدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣].

- أن من يجادل بالباطل، ويكذب بآيات الله سيكون مصيره إلى العذاب؛ لأن الله قضى بذلك، وقضاؤه الحق، فلا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾

رَبَّنَا وَادْخُلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ
وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ
وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ
﴿٩﴾ .

بيان الآيات:

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ هم أربعة من الملائكة، وهم أفضلهم
﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ أي: الذين يحفون بالعرش ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: يسبحون بحمده أعظم تسبيح، ويقدسونه
أعظم تقديس، ويؤمنون بأنه الإله الواحد الذي لا شريك له في ملكه.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: يستغفرون للمؤمنين من أهل
الأرض؛ لمحبتهم لهم؛ لإيمانهم بالله، واستقامتهم على دينهم الذي
ارتضاه الله لهم ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ ويقولون في
استغفارهم للمؤمنين: لقد وسعت رحمتك يا ربنا كل شيء في الوجود،
وأحاط علمك بأعمال خلقك المؤمنين

﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أي: تجاوز عن سيئات
الذين تابوا من ذنوبهم، واتبعوا ما أمرتهم به من المعروف، وانتهوا

عما نهيتهم عنه من المنكر ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: أنجهم من عذاب جهنم.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ أي: أدخلهم جناتك جنات الخلد التي أعددتها للمتقين، ووعدتهم بها إذا آمنوا وابتغوا.

﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾ أي: وأدخل معهم الذين صلحوا بالإيمان من أولادهم وأزواجهم وذرياتهم، واجمع بينهم وإن قصرُوا في نيل درجاتهم؛ فإن اجتماعهم بهم سيقر أعينهم بهم ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: العزيز بعظمتك وجلالك، الحكيم في تدبيرك لخلقك.

﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: احفظهم من السيئات، وتجاوز عما يحصل منهم من تقصير ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أي: من تقه جزاء خطئه فلم تؤاخذه عليه، فقد فاز يوم القيامة برحمتك ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

أحكام وفوائد الآيات:

- فضل تسبيح الله وتحميده، ففي الحديث: «من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مئة مرة حطَّت عنه خطاياه، وإن كانت مثل زبد

البحر»^(١).

- أنه في الآية (٧) إخبار مستقبلي عن استغفار الملائكة حملة العرش للمؤمنين في الماضي والحاضر والمستقبل.

- تقرير اجتماع المؤمنين وذرياتهم في الجنة؛ لقوله-تعالى:-
﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
وَمَا أَلْتَنَّهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَّقْتِكُمْ
أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا
أُنثَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا أُنثَيْنِ فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّنْ
سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ
بِهِ تُوْمِنُوا فَأَلْحَكُمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَّقْتِكُمْ
أَنفُسَكُمْ﴾ المراد بالكافرين: كل من كفر بالله، أيًا كان نوع الكفر
الذي كان عليه، فالكفار عندما يقاسون العذاب يمقتون أنفسهم،

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب: فضل التسبيح، (رقم ٦٤٠٥) ومسلم في كتاب الذكر
والدعاء والتوبة، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء، (رقم ٢٦٩١).

ويبغضونها؛ لأنها كانت السبب في عصيانهم في الدنيا، فتناديهم حينئذ الملائكة، وتقول لهم: إن مقت الله لكم في الدنيا أشد من مقتكم لأنفسكم؛ لأنكم كنتم .

﴿تُدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ أي: كنتم تدعون إلى توحيد الله، وطاعته، وعدم الشرك به، وكنتم تصرون على الكفر، وتستتهزون بمن يدعوكم إلى الله، فلهذا مقتكم وأبغضكم.

﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَفْنَتَيْنِ﴾ أي: يقولون: يا ربنا قد كنا عدماً، فأوجدتنا، ثم أمتنا بعد ما أوجدتنا ﴿وَأَحْيَيْتَنَا أَفْنَتَيْنِ﴾ أي: الحياة في الدنيا والحياة في الآخرة .

﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: اعترفنا بما ارتكبناه في الدنيا من الخطايا والذنوب، فهل لنا من مخرج من النار، ونعود إلى الحياة الدنيا لنتوب مما اقترفناه في حق أنفسنا، ونعمل صالحاً يبعدنا عن هذا العذاب الذي نقاسيه؟، وما كان قولهم هذا لينفعهم؛ لقوله-تعالى:- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُوَ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ أي: كنتم إذا دعيتم إلى الله وتوحيده استكبرتم، وأعرضتم. ﴿وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ أي: تؤمنوا بالأصنام والأوثان،

وتعبدونها من دون الله ﴿فَأَلْحِكُمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ أي: هو الذي حكم عليكم، وهو الحكم العدل الذي لا يظلم، ولا يجور، ولا يبخس أحداً حقّه.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن مقت الكفار لأنفسهم لا ينفعهم؛ لأن مقت الله لهم أكبر من مقتهم لأنفسهم؛ ذلك أنهم كانوا يُدْعَوْنَ إلى الإيمان بالله، فلم يستجيبوا لما دعوا إليه، بل أصروا على كفرهم، فمقتهم الله، وأبغضهم.

- عدم قبول الأعذار يوم القيامة؛ لقوله-تعالى:- ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨]، وقوله: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۖ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّل لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا

وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ .

بيان الآيات:

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ وَيُنْزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ ١٣

وبخ الله الكفار، وبَيَّن مقته لهم، خاطب-جلَّ وعلا-عموم الناس بأنه يريهم آياته الدالة على قدرته العظيمة، وأنه مدبر الكون ومصرفه، وأنه الذي ينزل المطر من السماء، فينبت لهم أرزاقهم وأقواتهم، ثم قال: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ أي: ما يعتبر بهذه الآيات إلا من أناب إلى الله بقلبه.

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أي: كما

رأيتم آياته الدالة على عظمته فعليكم أن توحدوه، وتخلصوا له العبادة وحده، وتبتروا من الشرك به، ولن يضركم كره الكافرين لكم، فأنتم

على حق، وهم على ضلال.

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ هذا وصف لذاته العلية، فهو ذو الدرجات العالية، وعرشه العظيم عال على جميع مخلوقاته، وهو كالسقف لها.

﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: يلقي الوحي الحامل لأمره على من يشاء من عباده، وهم الرسل الذين اختارهم لإبلاغ أوامره ونواهيهِ إلى عباده.

﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ أي: لكي ينذرونهم عاقبة يوم القيامة حين تجتمع الخلائق كلها للجزاء والحساب.

﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي: يوم يجتمعون بعد أن برزوا من قبورهم، لا تخفى على الله منهم خافية، وفي ذلك المشهد العظيم من مشاهد يوم القيامة ينادي الله -عز وجل-: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ فلا أحد يقدر أن يجيب، ليس بسبب رهبة ذلك اليوم وشدته فحسب، بل إن الكل يعرف أنه لا مالك إلا الله، ولا قادر إلا هو، ولا قاهر إلا هو، فينصتون، وعندئذ يجيب -عز وجل- نفسه: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: في هذا اليوم يوم الفصل والقضاء يجزى كل عامل بما عمل من خير أو شر ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ أي: ليس في ذلك اليوم ظلم لأحد، فلا ينقص من عمل عمله، ولا يزداد على سيئاته سيئة لم يعملها ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: أنه بلطفه بعباده يعجل حسابهم؛ ليلقى كل واحد منهم مكانه.

أحكام وفوائد الآيات:

- أنه في الآية (١٣) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الله-تعالى- هو الذي يُنَزِّلُ الرزق لعباده.
- تقرير لطف الله بخلقه، وذلك ببيان آياته لهم؛ ليدركوا أنهم لا يعبدونه عبثاً، وإنما يعبدونه بعد أن بيَّن لهم قدرته العظيمة في خلقهم ورزقهم، وأن ما أمرهم به فيه نفع لهم، وما نهاهم عنه فيه ضرر لهم.
- وجوب صرف الدعاء وكل أنواع العبادة لله وحده، والإخلاص في ذلك، وفي حديث ابن الزبير-رضي الله عنه-: «كان ابن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا

إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. وقال: كان رسول الله - ﷺ - يهمل بهنَّ دبر كل صلاة»^(١).

- أن الله يرسل الرسل بأمره؛ ليبلغوا رسالته إلى خلقه، وينذروهم، ويحذروهم من عذاب يوم القيامة، وهو اليوم الذي تجتمع فيه الخلائق للحساب والجزاء، فيفصل الله بينهم، وهو سريع الحساب، فيلقى كل واحد منهم عاقبة عمله.

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَفَةِ﴾ هذا أمر لرسول الله - ﷺ - أن ينذر الناس عن أهوال يوم القيامة، والأرزفة: اسم من أسماء يوم القيامة، كما قال - تعالى -: ﴿أَرْزَفَتِ الْأَرْزَفَةُ﴾ [النجم: ٥٧].

﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ﴾ أي: قلوب العباد عند

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة، وبيان صفته، (رقم ٥٩٤).

حناجرهم من الخوف، وهم كاظمون أنفاسهم من هول ذلك اليوم وشدته ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي: ليس لهم قريب يعينهم، ولا شفيع يشفع لهم؛ لأنهم ظالمون، ولا يقبل الله الشفاعة للظلمة، بل هم في ذلك اليوم وحيدون متقطعون، يلاقون مصيرهم الذي وضعوا أنفسهم فيه.

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ هذا من عظيم قدرته أنه يحيط علمه بجميع الأشياء والموجودات: كبيرها وصغيرها، فيعلم العين إذا زاغت نظرتها، ويعلم ما تخفيه صدور عباده من الظنون والوساوس وما يخطر فيها.

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أي: يقضي بالعدل ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ أي: إن الذين يدعوهم المشركون من دون الله لا يقضون بشيء؛ لأنهم جمادات لا يعقلون .

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي: السميع لعباده، البصير بأمورهم وأحوالهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير مشاهد يوم القيامة، وما فيها من الأحوال، كما قال-تعالى:-

﴿يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢].

- أن الظَّلَمَةَ لا يجدون يوم القيامة قريباً ينفعهم، ولا شافعاً يشفع لهم.

- أنه في الآية (١٩) إخبار مستقبليٍّ عن عِلْمِ الله المطلق، فهو يعلم ما تختلسه العيون من نظرات، وما يُضمره الإنسان في نفسه من خير أو شر.

- أن الله يقضي بالعدل بين عباده، فيقتص للمظلوم ممن ظلمه، ويقتص للضعيف ممن طغى عليه.

- قال ابن عاشور: «جملة ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ مقررة لجمل ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَقْضُونَ بَشَيْئًا﴾ [غافر: ١٩-٢٠]، فتوسيط ضمير الفصل مفيد للقصر، وهو تعريض بأنَّ آلهتهم لا تسمع، ولا تبصر، فكيف ينسبون إليها الإلهية؟»^(١).

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ

(١) التحرير والتنوير، (١٧٥/٢٤).

كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ
 اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ
 تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ
 الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ .

بيان الآيتين:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أولم يَسِرْ في الأرض هؤلاء المكذبون
 لك .

﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم
 التي كذبت رسلها، كقوم نوح، وقوم هود وغيرهم.

﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كانوا أعظم من
 قومك قوةً، وأعظم أثراً في الأرض، وذلك بما تهيأ لهم من الزروع
 والأشجار والنبات ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أهلكهم بسبب
 ذنوبهم وطغيانهم .

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ أي: ما كان لهم مانع يمنعهم
 من الهلاك.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: كانت تأتِيهم

بالبراهين والدلائل الواضحات ﴿فَكْفَرُوا﴾ بما جاءهم من العلم ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أهلكهم ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: قويٌّ في أخذه للظالمين، شديد العذاب عليهم.

أحكام وفوائد الآيتين:

- تقرير دعوة المكذبين لرسول الله أن يسيروا في الأرض، فينظروا ماذا حلَّ بالأمم قبلهم من الهلاك، بسبب تكذيبهم لرسولهم؟، مع أن هؤلاء كانوا أكثر قوة وحضارة وبأسًا من قريش، فلم تنفعهم قوتهم، بل أهلكهم الله، فأصبحوا أثرًا بعد عين، فمن عمل مثل عملهم لا بد أن يلاقي من العذاب مثل ما لاقوه.
- أن من عاقبه الله بسبب ذنوبه لن يجد واليًا يواليه، ولا شفيعًا يشفع له.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمَجَنَ وَقَرُونَ فَقَالُوا سَحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنَِّّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ

الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِّنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ .

بيان الآيات:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ لما بين الله في الآيات السابقة ما حلّ بالأُمم السابقة من العذاب بسبب تكذيبهم لرسولهم، وأن على كفار قريش أن يعتبروا بهم، بين لرسوله محمد- ﷺ - حال موسى مع فرعون وقومه؛ ليكون في ذلك عزاء له، أن الأنبياء قبله لاقوا من أقوامهم التكذيب، فصبروا، فكان النصر عاقبة لهم، والمراد: لقد أرسلنا موسى ابن عمران ومعه البراهين والدلائل الواضحة ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ﴾ فهؤلاء الثلاثة كانوا هم المتنفيذين في مصر، ففرعون ملكها، وهامان وزيره وأشد أعوانه، وقارون ليس من آل فرعون، ولكنه صاحب ثروة كبيرة.

﴿فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ أي: لما دعاهم موسى إلى توحيد الله

وعبادته اتهموه بالسحر والكذب.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ والمراد به: الآيات الدالة على

صدق نبوته ورسالته، زاد عداؤهم له، وهو الأمر بقتل أبناء الذين آمنوا

معه، واستحياء بناتهم، أي: تركهنَّ للخدمة لإذلالهنَّ، وهو ما أخبر الله عنه بقوله: ﴿قَالُوا أَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾.

﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: أن كيد الكافرين ومكرهم في أي زمان أو مكان لا يضر أولياء الله، وإنما يضر الكافرين أنفسهم.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ لما بدأ أمر موسى ينتشر، ويكثر معه المؤمنون، اشتد غضب فرعون عليه، فهمَّ بقتله بعد أن صارح قومه في اجتماع اجتمعوه في أمره، فادَّعى أن موسى سوف يبدل دينهم، وأنه سوف ينشر الفساد في أرضهم، فيغير حياتهم، ويسلبهم ما هم فيه، وهو ما أخبر الله عنه بقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾، فلما بلغ موسى ما قاله فرعون خاطب المؤمنين معه قائلاً: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي: استعذت بربي وربكم، وتحصنت به، وتوكلت عليه من كل معاند للحق متكبر كافر بيوم البعث والحساب.

أحكام وفوائد الآيات:

- الإخبار عما عاناه المرسلون من أقوامهم، واتهامهم لهم بالسحر والكذب؛ لقوله-تعالى:- ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِءَ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].
- أن الطغاة عندما يأتيهم الحق يخشون من انتشاره بين قومهم، فيعملون على تضليلهم وتخويفهم من دعائه.
- في الآية (٢٥) سُمِّيَ الرَّأْيُ كَيْدًا لَأَنَّهُمْ تَشَاوَرُوا فِيهِ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ أَنْ يَعْلَمَ بِذَلِكَ مُوسَى وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، وَأَنَّهُمْ أَضْمَرُوهُ، وَلَمْ يَعلنُوهُ.
- تقرير بطلان كيد الكافرين ومكرهم وحيلهم، وأن النصر يكون لأولياء الله.
- أن الله -عز وجل- هو الحصن الحصين، والملاذ الأمين للمظلومين من المؤمنين.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَنَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي

يَعِدُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَقُومُ لَكُمْ
الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ
جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ
الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾.

بيان الآيتين:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ لما اجتمع
فرعون مع قومه للتشاور في أمر موسى كان أحد آل فرعون يؤمن بما
جاء به موسى، ولكنه يخفي إيمانه، فأخذ ينصحهم بقوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ
رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ أي: كيف تقتلون رجلاً ليس له من ذنب
سوى أنه يقول: ربي الله؟

﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: أتاكم بالبينات الدالة
على صدقه ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ أي: إن يك كاذباً فيما
يقول فكذبه عليه، ولن يضركم منه شيء، وسيعاقبه الله على كذبه
﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُّكُمْ﴾ أي: إن يك
صادقاً فيما يقوله ويعد به من العذاب فسوف يصيبكم حينئذ بعض
ما يقول إذا آذيتموه، فاتركوه وشأنه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ

مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٧﴾ أي: لو كان هذا كاذبًا فيما يقول لما هداه الله؛ لأن الله لا يهدي المسرف والكذاب، وإنما يهدي المهتدين والمؤمنين به.

﴿يَقُومُ لَكُمْ أَلْمَلِكُ أَلْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ لما قال المؤمن من آل فرعون قوله ونصحه لقومه بدأ يحذرهم من عواقب أعمالهم ومعاداتهم لموسى، مبينًا لهم أن ملكهم وقوتهم ظاهرة في الأرض، وهم في نعم كثيرة، وأن تعرضهم له سوف يؤدي إلى غضب الله، وحينئذ لن يجدوا ناصرًا ينصرهم، أو معيّنًا يعينهم، وقد أخبر الله عن ذلك بقوله: **﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾**.

وإمعانًا في الطغيان والعناد **﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾** أي: ما قلت لكم إلا الصواب **﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾** أي: ما أدلكم إلا على طريق الهدى، ويعني ذلك أنه يصر على رأيه بمعادة موسى، والكيد له.

أحكام وفوائد الآيتين:

- تقرير فضل المؤمن الذي يؤمن بين قوم لا يؤمنون، مما يجعله عرضة لأذاهم، فإذا صبر على إيمانه كان ذلك أعظم في ثوابه.
- أنه قد يكون الرجل الذي آمن هو إخناتون ولد فرعون، وذلك حسب

دراسة فيها أدلة نقلية وعقلية^(١)، ويؤيد هذا أن الرجل من ذرية فرعون، وكذلك لم يستخدم فرعون الرد المباشر على المؤمن، ولم يهدده كفعله مع موسى -عليه السلام-.

- وجوب المجادلة بالحق، والتعريف به بالكلمة الحسنی، كما قال -تعالى- لنبيه: ﴿وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

- تحريم الإسراف في كل شيء، كالإسراف في القول والمبالغة فيه، والإسراف في الأكل واللبس، ونحو ذلك، كما قال -تعالى-: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ ٣١ ﴿مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ ٣٢ ﴿وَيَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ ٣٣ ﴿يَوْمَ تُولُونِ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ٣٤ ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ

(١) ينظر: فك أسرار ذي القرنين ويا جوج وما جوج، (ص ١٨٨-٢٠٥).

مُرْتَابٍ ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرٌ
مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ
مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٧﴾.

بيان الآيات:

﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ
الْأَحْزَابِ﴾ ما زال السياق في نصح مؤمن آل فرعون لقومه، وتحذيره
لهم من سوء عملهم، ومعاداتهم لموسى ورسالته، مبيناً لهم أنه يخشى
أن يحل بهم من العذاب ما حلَّ بالأحزاب من الأمم السابقة لهم، ثم ما
وصفهم بقوله: ﴿مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ
بَعْدِهِمْ﴾ من الأمم الهالكة بسبب تكذيبها لرسالتها ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ
ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ أي: إن الله إنما أهلكهم بسبب ذنوبهم، وليس بظلمه
لهم، فحاشاه ذلك.

ثم استمر في نصحه، ودعوة قومه، وتحذيره لهم بقوله: ﴿وَيَقُومُ إِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ المراد به: يوم القيامة.

﴿يَوْمَ تُؤْلَوْنَ مُدْبِرِينَ﴾ أي: يوم تحاولون الهرب من العذاب الذي
تشاهدونه بأعينكم يوم القيامة ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾

أي: لا عاصم ولا ناصر ولا معين ولا شفيع لكم يومئذ إلا أعمالكم وإيمانكم بالله ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي: من أضله الله فلن يهديه أحد.

ثم استمر المؤمن في نصحه لقومه، وتذكيره لهم بما جاءهم من البينات من قبل ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: جاءكم يوسف في مصر يدعوكم إلى الهدى، وإقامة العدل، ونفي الظلم.

﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ أي: شككتم فيما جاءكم به، فلم تؤمنوا ﴿حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ﴾ أي: مات .

﴿قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أي: لن يأتي بعده رسول، وهذا مجرد ظن وتخمين، وقد أخلف الله ظنكم، وبعث اليوم رسولاً، فاتبعوه، فإن استمررتم على تكذيبه أضلكم الله ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ أي: يضل من هو مسرف في كذبه على رسله، ومن هو مرتاب في دعوته.

وفي سياق نصحه لقومه قال لهم: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أي: إن الذين ينكرون الحق بغير دليل ولا حجة جاءتهم من عند الله فإن الله يمقتهم، أي: يبغضهم، ويبعدهم من

رحمته، كما يبغضهم المؤمنون، كما قال-تعالى:- ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ثم قال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ أي: يضل كل متكبر يتبع الباطل، ويحيد عن الحق، وهو متحيز ظالم.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير خوف المؤمن على قومه أو بلده من عواقب الذنوب والخطايا التي تسود فيهم.
- التقاء أحزاب الكفر على حرب الحق على اختلاف الزمان والمكان، ولكنهم خاسرون هالكون.
- تقرير سوء الإفراط في كل قول أو فعل لا فائدة فيه.
- سوء الارتياح في الحق، وعدم اليقين فيه.
- تحريم الجدل المبني على الهوى، واتباع الباطل، كما يفعل المشككون والمرتابون.
- أن الله يطبع على قلوب المتكبرين والجبابرة؛ بسبب إصرارهم على خطاياهم، وعدم استجابتهم للحق الذي يدعون إليه.
- أنه في الآية (٣٥) إخبار مستقبلي عن الذين يجادلون في آيات الله بغير حجة، فإن الله يغضب عليهم، ويطبّع على قلوبهم.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾
 أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا
 وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ
 فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرْحًا﴾ يبيِّن الله - تعالى - أن فرعون
 حين كذب موسى قال لوزير همام: ابن لي صرحاً أي: بناء شاهقاً،
 وهو البناء المكون من الطين المشوي؛ لتقويته، كما قال - تعالى -:
 ﴿فَأَوْقَدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ [القصص: ٣٨].

قوله: ﴿لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ أي: طرقها
 ومسالكها ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ أي: فيما
 يقوله لنا، ويدعيه من رسالته، وما قاله فرعون وادعاه ليس بصادق
 فيه؛ لأنه يعرف استحالة مطلبه، وعدم قدرته بلوغ غايته، فهو يعرف
 أنه أحقر من ذلك، ولكنه يبحث عن المخارج التي توهم قومه،
 وتصرفهم عن التفكير في أمر موسى.

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي:

زَيَّنَ فرعون لنفسه خِبثَ عمله، وصده ذلك عن اتباع الطريق الصحيح، وهو الإيمان بما جاء به موسى ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي: ليس له من كيده لموسى إلا التباب، وهو الخسارة والهلاك.

أحكام وفوائد الآيتين:

- بيان فساد بعض قادة الأمم في إيهاام أممهم بتصرفات تبعدهم عن التفكير في سلوكهم أثناء قيادتهم لها، وهذا محسوس ومشاهد في سلوك الطغاة في كل زمان ومكان، كما يفعله اليوم تجار الحروب من دعاوى تبيح لهم استغلال البلدان، واستغلال ثرواتها، بعد أن يوهموا شعوبهم أنهم يتعرضون للأخطار من هذه البلدان.
- أن بناء الفعل ﴿زَيَّنَ﴾ للمجهول لأنَّ المقصود معرفة مفعول التزيين، لا معرفة فاعله، أي: حصل له تزيين سوء عمله في نفسه، فَحَسِبَ الباطلَ حقًا، والضلالَ اهتداءً.
- أن المرء إذا ضلَّ عن طريق الحق أصبحت نفسه تزين له ارتكاب الأفعال المحرمة، فيرى الحُسْنَ سوءًا، والسوءَ حُسْنًا، فلا يبالي حينئذ بما يفعله، كما قال-تعالى:- ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُومُ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَقُومُ
 إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ
 عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ط وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ
 أَنْتِى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ
 حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُومُ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾ لما أخبر
 الله في الآيتين السابقتين عن إيهاام فرعون لقومه بالاطلاع على إله
 موسى، بئن-تعالى-نصائح مؤمن آل فرعون لقومه، ودعوته لهم إلى
 اتباعه؛ لكي يهديهم إلى طريق الحق، ويبعدهم عن فرعون وكفره.

﴿يَقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ
 الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ وهنا يخاطب مؤمن آل فرعون قومه قائلاً: إن هذه الحياة
 التي تعيشونها ما هي إلا مجرد متاع سوف يزول، أما الآخرة فهي دار
 البقاء والقرار الأبدي.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ط﴾ أي: أن من عدل الله
 ورحمته بخلقه أن من عمل سيئة فلا يجزى إلا بواحدة مثلها ﴿وَمَنْ

عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ أي: من عمل بما شرعه الله لعباده من الأعمال الصالحة فهذا لا يُقدَّر الله جزاءه بما عمل، بل يعطيه أجره أكثر مما بلغه عمله؛ لأن الله -عزَّ وجلَّ- يعطي بغير حساب.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الدنيا دار وجود مؤقت، سرعان ما ينتهي ببلوغ الأجل؛ مما يقتضي عدم الركون إليها، والاعتذار بزینتها، كما قال-تعالى:-
﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْ مِنْ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتْنَهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

- أنه في الآية (٤٠): ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وقفًا نبويًّا، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

- قوة مناظرة الرجل المؤمن لقومه.
- أن من رحمة الله ولطفه بعباده: أنه يجازي السيئة بواحدة مثلاً،

أما الحسنة فإما أن يضاعفها إلى عشر حسنات، أو يجزي صاحبها بأكثر من ذلك بلا عد أو إحصاء.

﴿وَيَقُومَ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّجَوُّةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ٤١﴾
 تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا
 أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ
 دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ
 أَصْحَابُ النَّارِ ٤٣﴾.

بيان الآيات:

﴿وَيَقُومَ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّجَوُّةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ ما زال
 السياق في ذكر نصائح مؤمن آل فرعون لقومه، حيث قال لهم: إني
 أدعوكم إلى النجاة، وهي الإيمان بالله، وعدم الشرك به حتى تدخلوا
 الجنة، بينما أنتم تدعونني إلى الكفر الذي عاقبته النار، ثم فصله
 بقوله: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ
 وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ أي: تدعونني للكفر والشرك، مع
 أنه ليس لكم دليل ولا حجة في دعوتكم لي، بينما أنا أدعوكم إلى عبادة
 العزيز الغفار، الذي له العزة والغلبة، وهو الذي يغفر الذنوب لعباده.

﴿لَا جَرَمَ أَنْتُمْ تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي
 الْآخِرَةِ﴾ لا جرم أي: حقاً أن ما تدعونني إليه من عبادة الأصنام
 والأوثان ليس له قوة حتى يدعى بها، فهي جماد مخلوق، لا ينفع ولا
 يضر ﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: أن رجوعنا كلنا إلى الله، وسوف
 يحاسبنا- لا محالة- على أعمالنا ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ
 النَّارِ﴾ أي: أن المشركين الذين أسرفوا بشركهم هم أهل النار المخلدون
 فيها.

أحكام وفوائد الآيات:

- وجوب التفرقة في المعاملة بين من يدعو إلى الخير ومن يدعو إلى
 الشر، فالذين يدعون إلى الخير هم الذين يدعون إلى عبادة الله
 وحده، وهم الأنبياء ومن في حكمهم من الأولياء والصالحين، وهؤلاء
 يكونون يوم القيامة على منابر من نور، والذين يدعون إلى الشر
 هم الطغاة وأهل الضلال الذين يدعون إلى الشرك والكفر، وهؤلاء
 يأتون يوم القيامة وعلى وجوههم غبرة من ظلام شركهم وكفرهم.

﴿فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أُمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
 بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ﴿٤٤﴾ فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ
 سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ

السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ .

بيان الآيات:

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ لما أبدى مؤمن آل فرعون نصيحته لقومه، ورأى عدم قبولهم لها، حذرهم عاقبة عملهم، وأنهم سيتذكرون-لا محالة-ما قاله لهم حين يحل بهم العذاب، ثم قال: ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: أبتعد عنكم، وأعتصم به، وألجأ إليه، وأتوكل عليه.

﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي: بصير بأحوالهم، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وكل ذلك بحكمته.

﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾ في هذا دليل على أن فرعون وقومه لم يقبلوا نصيحته فحسب، بل إنهم حاولوا قتله، فوقاه الله من مكرهم وغدرهم، ونجى موسى ومن معه من المؤمنين ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي: أحاط بفرعون وقومه وجنده الهلاك في البحر حين انطبق عليهم، فأصبحوا عبرة للمعتبرين.

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أي: تعرض أرواحهم على النار في الصباح والمساء في البرزخ إلى أن تقوم الساعة، وحينئذ

تعرض أرواحهم وأجسادهم على النار، وهو ما بينه -ﷻ- بقوله:
﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الداعي إلى الله إذا عجز عن إقناع قومه بدعوته يتركهم لأمر الله، فهو حسبهم، كما قال نوح لما عجز عن هداية قومه: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨].
- أن الله ينجي عباده المؤمنين، ويقيهم شر المكاييد إذا عرف إيمانهم وإخلاصهم.
- تقرير عذاب القبر، حيث تعرض أرواح المؤمنين على الجنة في الصباح والمساء، وتعرض أرواح المشركين والكفار على النار في صباح كل يوم ومساءه إلى أن تقوم الساعة.
- تَمَيُّزُ عذاب فرعون وأتباعه في القبر بعرضهم على النار في الصباح والمساء.

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ﴾ هذا بيان من الله عن تحاج أهل النار عمومًا، وتخاصمهم فيها ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: يقول الأتباع المستضعفون لكبرائهم الذين اتبعوهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: كنا نصدق ما تقولون، ونفعل ما تأمروننا به.

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ أي: هل تأخذون قسطًا من عذابنا؛ لتخففوا عنا ما نعانيه؟ ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ أي: يقول المتبوعون: نحن وأنتم سواء في عذاب النار، فلا نتحمل إلا ما نحن فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ أي: قضى لكل منا بنصيبه من العذاب.

أحكام وفوائد الآيتين:

- تقرير التخاصم حين العذاب بين التابعين الذين ضلوا بسبب اتباعهم وطاعتهم العمياء لرؤسائهم، ومخالفة الأنبياء الذين كانوا يدعونهم إلى اتباع أوامر الله، وبين المتبوعين الذين يتبرؤون منهم، وهذا يقتضي وجوب تفكر المرء فيما يعرض له، وقبول ما ينفعه، ونفي ما يضره، حتى لا يكون إمعنة يتبع كل مدع وقوال، وفيهما الحكم بأن كل واحد يلقي يوم القيامة مصيره بنفسه، فلا يجد من

يؤاليه أو يناصره، كما قال-تعالى:- ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ (٤٩) ﴿قَالُوا أَوْ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

بيان الآيتين:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ حينما يجد أهل النار أنفسهم يقاسون العذاب يسألون خزنة جهنم المكلفين بها أن يشفعوا لهم؛ ليخففوا عنهم العذاب ولو يومًا واحدًا، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ ، فتجيبهم الملائكة بما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿قَالُوا أَوْ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: ألم تبين لكم رسلكم بالبينات ما هو واجب عليكم في الدنيا، فكذبتموهم؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي: نعم! بينوا لنا كل شيء ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ أي: قال الملائكة: لن ندعو لكم، وليس بيننا وبينكم مودة ولا صلة، فادعوا ربكم أنتم، ولكن سواءً أدعوتكم أم لم تدعوا فلن يستجاب لكم، وهو معنى قوله-تعالى:- ﴿وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا

فِي ضَلَالٍ ❦.

أحكام وفوائد الآيتين:

- تقرير عدم قبول دعاء الكافر؛ لأنه لا يملك مقومات الإجابة، وهي التقوى، وقد بين الله ذلك في قوله-عزّ ذكره-: ❦ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ❦ [المائدة: ٢٧]، ومع ذلك فإن دعاء خلق الله، وقبولهم أو عدم قبولهم واقع تحت مشيئته-عزّك-، فهو أعلم بأحوالهم: مؤمنهم وكافرهم، يعلم سرهم ونجواهم، وما تخفي صدورهم، فله الحمد في الأولى والآخرة.

❦ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ
الدَّارِ ﴿٥٢﴾ ❦ .

بيان الآيتين:

- ❦ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ❦ هذا وعد من الله-ووعده الحق-أنه ينصر رسله، وينصر المؤمنين في الحياة الدنيا، وقد فعل ذلك، فقد نصر نوحًا وإبراهيم وهودًا وصالحًا ولوطًا وغيرهم على أممهم، حين كذبوهم وآذوهم، فعجل الله لأقوامهم العقاب في

الدنيا، كما فعل-عز وجل-مع نبيه ورسوله محمد-ﷺ-، فقد نصره نصراً مبيناً على قومه الذين استضعفوه، وأذوه، وهموا بقتله، فتمكن منهم يوم بدر، وتمكن منهم يوم فتح مكة، فكسر كبريائهم، وأزال طغيانهم وأصنامهم، وكما نصر الله رسوله فقد نصر الذين آمنوا به، ففتح لهم خزائن الأباطرة والأكاسرة، ونشروا دين الله في أرجاء الأرض، ووعد الله للمؤمنين بالنصر وعدّ ثابتاً ودائماً في كل زمان ومكان، فالهم تحقيق الإيمان الذي يترتب عليه تحقيق وعد الله.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي: ينصر الله رسله والمؤمنين يوم القيامة حين تشهد لهم الملائكة بأنهم بلغوا رسالات ربهم.

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ أي: لا يقبل منهم عذر ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي: الطرد من رحمة الله ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي: بئس المكان والقرار.

أحكام وفوائد الآيتين:

- أنه في الآية (٥١) إخبار مستقبلي بأن الله ينصر رسله والمؤمنين في الحياة الدنيا والآخرة.
- أنه قد يكون النصر مادياً بالتمكين في الأرض، وقد يكون معنوياً في الثبات على الحق.

- أن العذر لا يقبل من الكافرين يوم القيامة، وذلك لفوات وقته، وهو التوبة في الدنيا.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ٥٣ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ٥٤ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِثَّةِ وَالْإِبْكَرِ ٥٥﴾ .

بيان الآيات:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ أي: بعثناه ليدعو الناس إلى الهدى
 ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ أي: أنزلنا عليهم الكتاب، وهو التوراة
 ﴿هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: ليكون هذا الكتاب مرشداً لهم إلى عبادة الله وحده، وإخلاص العبادة له، وليكون كذلك ذكرى لأولي العقول منهم بأن الله سائلهم عما أمرهم به في هذا الكتاب، وما نهاهم عنه.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ لما بين الله لنبيه ورسوله محمد-

ﷺ- ما لاقاه موسى من المكائد، سواء من فرعون وقومه، أو من بني إسرائيل، أمره بالصبر على ما يناله من الأذى من قومه قريش، وليعلم أن وعد الله حق في نصره، وغلبته على أعدائه.

﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ أي:

اطلب من ربك مغفرة ذنوبك، وسبح بحمده بكرة وعشيًا؛ لما في ذلك من تقوية النفس على الصبر والتحمل؛ لأن استغفار الله، والتسبيح بحمده من أسباب التقوى، فإذا توافرت التقوى للعبد صار أكثر قوة، وأشد بأسًا، وأقدر على تحمل المتاعب.

أحكام وفوائد الآيات:

- بيان أن الله ينزل الكتب السماوية على أنبيائه ورسله؛ لتكون وسيلتهم في الدعوة إلى الله على بصيرة، فيأمرون من أرسلوا إليهم من الأمم أن يأتروا بما تأمرهم به هذه الكتب، وينتهوا عما تنهاهم عنه، وقد نزل القرآن على رسول الله محمد - ﷺ -، وفي هذا قال-تعالى-: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

- أمر الله لنبيه بالصبر في دعوته مع وعده له بالنصر على أعدائه.
- الدلالة على أن الاستغفار من الذنوب، والتسبيح بحمد الله وذكره وسيلة كبرى للصبر وتحمل المتاعب؛ لأن استشعار العبد لعظمة ربه يمنحه القوة والعون، كما قال-تعالى-: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِغِيهِ فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

بيان الآية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ﴾ أي: إن الذين يجادلون في آيات الله بالباطل- وهم كفار قريش- دون أن يكون لهم في ذلك حجة أو برهان ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِغِيهِ﴾ أي: في صدورهم كبر عليك يا نبينا محمداً بسبب ما أوتيت من النبوة، وهم يريدون أن تكون تابعاً لهم، ولن يبلغوا مبتغاهم هذا؛ لأن دينك دين الحق، ودينهم الباطل، وقد وعدك الله أنك سوف تنتصر عليهم.

﴿فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من شرورهم ومكايدهم ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقولون ﴿الْبَصِيرُ﴾ بأحوالهم ونواياهم.

أحكام وفوائد الآية:

- تحريم المجادلة بالباطل، والمجادلون بالباطل على قسمين: إما متبوع فاسد، ويجادل بالباطل؛ لكي يصرف أتباعه عن الحق، كما

فعل فرعون مع وزيره هامان حين أمره أن يبني له قصرًا عاليًا يطلع منه على الله، مع أنه يعرف أنه أصغر من التفكير في هذا الطلب، وإما متعال ومتكبر، يريد الرئاسة، فيجادل بالباطل؛ ليستهو به فئام الناس؛ لكي يتبعوه، ويحقق بهم غاياته.

- أن تنكير ﴿كِبْرٌ﴾ للتعظيم، أي: كِبْرٌ شديد بتعدد أنواعه، وتَمَكُّنه من نفوسهم.

- أن جملة ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ تعليل للأمر بالدوام على الاستعاذة.

- وجوب الاستعاذة من شرور الأعداء وتسلطهم، وقد أمر الله نبيه ورسوله محمدًا - ﷺ - أن يستعيز من الشيطان عند قراءة القرآن، كما قال - تعالى -: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، كما أمره أن يستعيز من شر الوسواس في قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَهِ النَّاسِ ۝٣ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ١ - ٤].

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ

ءَامِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءَ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ .

بيان الآيتين:

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ يبين الله-

تعالى-أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، وفي هذا رد على منكري البعث، الذين يقولون: كيف يحيي الله الموتى بعد أن بليت عظامهم؟.

قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يتفكرون، فيعرفوا أن الذي خلق الأمر العظيم-وهو السماوات والأرض-قادر على ما هو أقل منه، وهو إحياء الموتى.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ لما ذكر الله-عزَّ ذكره-أن أكثر الناس لا يتفكرون، بين أن الأعمى لا يتساوى مع البصير، فالأول لا يرى الأشياء، فلهذا لا يعقلها، بينما البصير يراها، فيعقلها.

﴿وَالَّذِينَ ءَامِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءَ﴾ كذلك لا يتساوى المؤمن مع المسيء، فالمؤمن قد أضاء الإيمان قلبه، فعبد الله حق عبادته، والمسيء أظلم قلبه بالذنوب، فلم يعد يفرق بين الحسن والسيئ من العمل، كذلك الذين ينكرون البعث مثل الأعمى والمسيء، لا

يقدرّون على تمييز الحسن من السيئ، والحق من الباطل.

قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما تذكرون ولا تتعظون إلا قليلاً.

أحكام وفوائد الآيتين:

- تقرير حقيقة كونية، هي أن خلق السماوات والأرض بما فيهما من الأسرار أكبر من خلق الناس؛ إذ إن خلقهم لا يساوي في علم المقارنة العقلية شيئاً بالنسبة لخلق السماوات والأرض.
- فشوّ الجهل في كثير من الناس وبسبب ذلك تغيب عنهم الحقائق، ولهذا أمر الله بسؤال أهل العلم في قوله: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].
- أن الأضداد لا تتساوى، فالإيمان لا يتساوى مع الكفر، والحق لا يتساوى مع الباطل، فمن أراد أن يجمع بين هذه المتضادات، ويرتب على ذلك أحكاماً، فعمله باطل.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ٥٩ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ .

بيان الآيتين:

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ لما ذكر الله -جلّ وعلا- عدم

اجتماع الأضداد، وأن الناس قليلاً ما يتذكرون آيات الله، فينسون أنفسهم، ويلهون في حياتهم، بل منهم من ينكر البعث، كما قالوا:

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الصافات: ٥٨-٥٩]، لما كانوا على هذه الحال ذكّرهم الله أن الساعة آتية لا محالة، وأن الشك فيها ليس إلا عبثاً وغروراً، زينه لهم الشيطان.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: قليل منهم الذي يؤمن بقيام الساعة، وهم عباد الله الأتقياء الأبرار.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ لما بيّن -عَلَيْهِ السَّلَام- قدرته العظيمة في خلق السماوات والأرض، وإحياء الموتى من قبورهم، وبيّن أن الساعة قائمة لا محالة، قال لعباده: ادعوني أستجب لكم، وهذا من رحمته ولطفه بهم، فما أعظم أن يقول الخالق للمخلوقين: ادعوني؛ لكي أعطيكم سؤلکم، وأستجيب لكم، فأقضي حوائجكم في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾ لما بيّن -عَلَيْهِ السَّلَام- أنه سوف يستجيب لعباده إذا سألوه اقتضى هذا أن يعاقب من يستكبر عن هذا السؤال؛ لأن الدعاء عبادة، ومن يستكبر عن العبادة

يرتكب إثمين: الأول: عصيانه لأمر خالقه، والثاني: خطؤه في حق نفسه حين أعرض عن عبادة تنفعه في دنياه وأخراه.

قوله: ﴿دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين مهانين.

أحكام وفوائد الآيتين:

- تأكيد قيام الساعة حين ينتهي الأجل الذي وضعه الله وأخفاه عن خلقه في قوله-تعالى-: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ

إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

- وجوب دعاء الله؛ لأن الدعاء عبادة؛ لما رواه النعمان بن بشير أن رسول الله -ﷺ- قال: «إن الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ قوله-تعالى-: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١).

- تحريم الكبر، ومجازاة من يستكبر عن دعاء الله بالعذاب الشديد، والأدلة النقلية والعقلية في قبح الكبر كثيرة.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ

اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾

(١) أخرجه أبو داود في كتاب أبواب الوتر، باب: الدعاء، (رقم ١٤٧٩)، والترمذي في كتاب التفسير، باب: ومن سورة المؤمن، (رقم ٣٢٤٧)، وابن ماجه في كتاب الدعاء، باب: فضل الدعاء، (رقم ٣٨٢٨)، وصححه الترمذي، وصححه الألباني كما في صحيح سنن أبي داود.

ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ .

بيان الآيات:

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾

هذا من لطف الله ورحمته بعباده أنه يذكّرهم بما يشهدونه في حياتهم؛ لكي يعبدوه، فيستحقوا ثوابه، ولا يعصوه، فيستحقوا عقابه، فقد جعل الليل سكناً وراحة لأجسامهم، وجعل النهار مبصراً لهم؛ لكي يعملوا فيه لمعاشهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: إنه قد تفضل على الناس،

وامتن عليهم بهذا العمل الإلهي ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يشكرونه على فضله ونعمه، وذلك بسبب صوارف

الشیطان لهم، وتزيينه لهم سوء أعمالهم ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾

أي: أن هذا الذي تفضل عليكم بهذه النعم هو ربكم.

﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: خالق كل ما في الوجود،

فلا رب غيره، ولا معبود بحق إلا هو ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف

تصرفون عن عبادته، وهو المنعم والمتفضل عليكم، وتلجؤون إلى عبادة

أوثان لا تملك لكم نفعًا ولا ضرًا؟.

﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: كما

ضل كفار قريش بعبادتهم للأوثان كذلك يؤفك-أي: يصرف عن الهدى-من كان قبلهم ممن جحدوا آيات الله.

أحكام وفوائد الآيات:

- توكيد فضل الله على خلقه، وما أنعم به عليهم من سائر النعم.
- تشديد الإنكار على المشركين الذين يصرفون عبادتهم إلى أوثان وأصنام لا تنفعهم، ويتركون عبادة الله الذي خلقهم، وما كان هذا الضلال إلا من الذين يجحدون آيات الله، وينكرونها، رغم أنهم يعيشونها في حياتهم، مثل: جعل الليل سكناً لهم، والنهار مبصراً لهم.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ .

بيان الآيتين:

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: جعلها لكم ثابتة، لا

تميل، ولا تضطرب، ولا تتحرك؛ إذ لو كانت كذلك لما استطعتم العيش فيها ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أي: وجعل لكم السماء سقفاً يظلكم، وأنتم تعيشون تحته آمنين من انشقاقه أو سقوطه عليكم.

﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ أي: صوركم أحسن تصوير، وقوّمكم أحسن تقويم، منذ أن كنتم في بطون أمهاتكم إلى حين اكتمال خلقكم، وخروجكم إلى الدنيا ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: خلق لكم كافة المعاش والملاذات من الطعام والشراب ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: خالق كل هذه النعم لكم هو ربكم الذي لا رب غيره، ولا إله إلا هو ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: تعالى في ملكوته، وتقدس في ذاته، وفي أسمائه وصفاته.

﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ أي: هو الحي الدائم، والأول والآخر، والظاهر والباطن ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا ند له، ولا نظير، ولا مثل ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: ادعوه وأنتم في غاية الإخلاص له، والإقرار واليقين بأنه لا إله إلا هو، ولا معبود بحق إلا هو، وقولوا دائماً: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

أحكام وفوائد الآيتين:

- توكيد مظاهر قدرة الله وعظمته في جعل الأرض قراراً لخلقه، لا

تميد بهم، فلننظر كيف إذا وقع الزلزال في مكان؟، كيف يتحول إلى خراب؟، وكيف يموت الناس بمئات الآلاف؟، وما هذا إلا تذكير للعباد بما هم فيه من نعمة الأمن والقرار على الأرض.

- أثبتت الدراسات العلمية الحديثة أن نسبة الحديد في الأرض ٣٥,٩% من مجموع كتلة الأرض، ويتركز هذا الحديد في قلب الأرض على هيئة كرة ضخمة (٩٠%) من كتلة قلب الأرض، أما باقي الحديد فيتوزع على كل من وشاح الأرض وغلافها الصخري بسمك يقدر بحوالي ثلاثة آلاف كيلو متر (٢٨٩٥ كيلو متراً)، في تناقص مستمر، يصل بنسبة الحديد في الغلاف الصخري للأرض إلى ٥.٦%، وتركيز هذه الكتلة الهائلة من الحديد وغيره من العناصر الثقيلة في قلب الأرض من وسائل جعله جرمًا مستقرًا في ذاته، حيث إن المقصود بأثقال الأرض هو الأحمال الثقيلة، وليست أجساد الموتى فقط^(١).

- قدرة الله في جعل السماء سقفاً لمخلوقاته، وتصويره لعباده في أحسن الصور؛ لقوله-تعالى:- ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ [التغابن:٣]، وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا

(١) آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم، للدكتور زغلول النجار، (ص ٣٩٥-٤١٤).

الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ [التين: ٤].

- توكيد قدرة الله في تيسير الرزق للإنسان بما هيأه له من الطيبات من المطاعم والمشارب.
- توكيد توحيد الله، ووجوب إخلاص العبادة له وحده.

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦٦﴾.

بيان الآية:

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ هذا أمر من الله لرسوله محمد - ﷺ - أن يقول للمشركين: إن ربي نهاني أن أعبد الأصنام والأوثان التي تعبدونها من دون الله؛ لأنها أوثان لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا، فكيف تملك لغيرها؟ وقد جاءني هذا النهي ﴿لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي﴾ وهي البراهين التي تدل على أن عبادة الله وحده هي العبادة الصحيحة، وأن عبادة غيره عبادة شركية باطلة.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: وكما أمرني ربي ألا أعبد أحداً إلا هو، فقد أمرني أن أستسلم له، وأخضع لأمره ونهيه، وأن أطيعه، وأتبرأ مما سواه.

أحكام وفوائد الآية:

- وجوب عبادة الله وحده وجوب عين؛ إذ لا معبود بحق إلا هو، فمن صرف شيئاً من العبادة لغيره فهو مشرك، حرمت عليه الجنة، والآيات في هذا كثيرة، منها قوله-تعالى:- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ١١٦]. وقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

- وجوب الإسلام لله رب العالمين، فلا دين إلا دين الإسلام، فمن ابتغى غيره فلن يقبل منه.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوَفِّي مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . ﴿٦٨﴾﴾

بيان الآيتين:

- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ ما زال الله -عز وجل- يعرّف عباده بقدرته العظيمة، وإنعامه عليهم، لعل ذلك يحفزهم للإيمان به، ابتغاء

نفعهم ونجاتهم من العذاب، فقد ذكرهم بأن خلقهم من تراب نسبة إلى الأصل، وهو آدم الذي خلقه الله من طين.

﴿ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ﴾ أي: من مني ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وهي الدم المترسب ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: يخرجكم من الأرحام أطفالاً لا تعون شيئاً ﴿ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ أي: تصيرون مكتملين ﴿ثُمَّ لِيَكُونُوا شُيُوخًا﴾ أي: بتجاوزكم مرحلة الخمسين من العمر ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ﴾ أي: يتوفاه الله في صغره قبل بلوغ هذه المراحل من العمر.

﴿وَلِيَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ أي: جعل لكم هذه المراحل من أعماركم إلى أن تستوفوا آجالكم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: تتفكرون أن الذي خلقكم وأنشأكم مرحلة مرحلة هو الأحق وحده بالعبادة، وأنه ما من إله إلا هو، فاعبدوه وحده مخلصين له الدين.

﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المتفرد وحده بإحياء الخلائق وإماتتها، والتصرف فيها بحكمته وقدرته ﴿فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: ومن أعظم مظاهر قدرته: أنه يقول للشيء: كن، فيكون، لا معقب في ذلك لحكمه، ولا راد لقضائه.

أحكام وفوائد الآيتين:

- تقرير حقيقة خلق الله للإنسان، وتدرجه في مراحل عمره من مرحلة إلى أخرى، كل ذلك يدل على عظيم قدرة الله؛ مما يقتضي وجوب تفكر الإنسان في هذا الخلق، كما قال-تعالى:- ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].
- تأكيد قدرة الله في إحياء الخلائق وإماتتهم.
- أن قضاء الله يتمثل في الأمر بكيونته، فيكون لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.
- أنه في الآية (٦٨) إخبار مستقبلي عن قضاء الله-تعالى-أنه نافذ في عبادته في الماضي والحاضر والمستقبل.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي عَايَةِ اللَّهِ أَلَيْسَ يَصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾
 الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أُرْسِلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾
 إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي
 النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَئِنَّ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ
 يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
 الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا

فَبَشِّرْ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ .

بيان الآيات:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ أَنِّي يُصْرَفُونَ﴾ أي:

ألم تعجب يا نبينا محمداً من هؤلاء المكذبين وهم يجادلون في القرآن، وما جاء به من البينات؟، كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل، وعن الهدى إلى الضلال؟.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ هذا تعريف

لهم بأنهم الذين كذبوا بالقرآن، وبما جاء به الرسل من وجوب توحيد الله، وطاعته، والإخلاص في عبادته.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد ووعد لهم بأنهم سوف يعلمون

عاقبة تكذيبهم، وهذه العاقبة وضع الأغلال في أعناقهم، ثم تسحبهم الزبانية في الحميم-وهو الماء الذي اشتدت حرارته-وهم مكبلون بالسلاسل، ثم يقذفون في النار؛ لتتوقد بهم، وهو معنى قوله-تعالى:-

﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِيَّ أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧٦﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي

النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٧﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَئِنَّ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ أي: يقال

لهم: أين أوثانكم وأصنامكم التي كنتم تعبدونها وتقدسونها؟.

﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: مع الله ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي: ذهبوا عنا، فلم نر لهم أثرًا.

﴿بَل لَّمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ أي: لم نكن ندعوهم، وهذا جحود منهم لعبادتها، كما قال-تعالى-عنهم: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام: ٢٣-٢٤]، أو يكون مرادهم: أننا لم نكن نعبد شيئًا حقيقيًا؛ لأنه باطل من حيث الأصل، فعبادتنا له باطلة.

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: يضل الله الكاذبين مثل إضلال هؤلاء؛ لأنهم متساوون في الضلال، فلا فرق بينهم.

﴿ذَٰلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي: تقول لهم ملائكة العذاب: هذا العذاب الذي تلاقونه اليوم هو جزاء فرحكم ولهوكم عند أصنامكم، وبعدمكم عن توحيد الله وطاعته، وهو-أيضًا-جزاء مرحكم وابتهاجكم بالفجور وتكذيب آيات الله.

﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾

أي: مقيمين فيها مخلدين، فبئس مقامكم ومقركم أيها المتكبرون!

أحكام وفوائد الآيات:

- تعجب الله من المجادلين في آيات الله، المكذبين بها، وذمهم على صرف عقولهم عن الحق إلى الباطل، كما قال-تعالى:- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦].

- وصف حالة العذاب التي يكون عليها المكذبون بالرسول يوم القيامة، كما قال-تعالى:- ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [٤٣] يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ ﴿٤٤﴾ [الرحمن: ٤٣-٤٤].

- سوء عاقبة الفرح المترتب على اللهو واللعب والإعراض عن آيات الله، وشاهده: قول الله-تعالى-إخباراً عما قاله قوم قارون له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، وقوله-عز ذكره:- ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمُ﴾ [الحديد: ٢٣].

- تقرير سوء عاقبة المتكبرين بسبب إعراضهم عن الحق، ومجادلتهم بالباطل.

- في قوله: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ المخصوص بالذم محذوف؛ لأنه يدل عليه ذكْرُ جهنم، أي: فبئس مَثْوَى المتكبرين

جهنم.

- أنه عدل عن الضمير (هم) إلى الاسم الظاهر، وهو ﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ للإشارة إلى أن من أسباب وقوعهم في النار تكبرهم على الرسل.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ .

بيان الآية:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ هذا أمر من الله لرسوله أن يصبر على أذى من كذبه من قومه؛ لأن الله وعده بالنصر عليهم، وسينجز له ما وعده.

قوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أي: نريك عذابهم في الدنيا، وقد حدث هذا فعلاً في غزوة بدر حين قتل رؤساء الكفار من قريش ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي: نذيقهم العذاب في الآخرة.

أحكام وفوائد الآية:

- وجوب الصبر في الدعوة إلى الله؛ ذلك أن الداعي سوف يدعو إما قومًا جهلة بدين الله، أو قومًا يجادلون فيه بالباطل، وقبول هؤلاء للدعوة يتطلب الصبر والقدرة على تحمل الأذى، فقد صبر الرسل-

عليهم السلام- على ما عانوه من أقوامهم حين تربصوا بهم، وهموا بقتلهم، واتهموهم بالجنون والسحر والكذب، وقد صبر رسول هذه الأمة محمد- ﷺ- كما أمره ربه، فقد سفّه قومه، وكذبوه، وآذوه، وهموا بقتله، وأخرجوه من بلده، وعذبوا أتباعه، واستعبدوهم، حتى أظهر الله دينه، وتحقق ما وعد الله به أوليائه، حيث زالت الوثنية من بلاد العرب وغيرها، وحل محلها دين الله.

قلت: والصبر على الدعوة لا يجب على الأنبياء والمصلحين فحسب، بل يجب على كل من أُوذي في دينه، ومن هذا الأذى: ما يحدث في هذا القرن الذي نعيشه من جاهلية جهلاء، تنتهك فيها حرمان الله، فيباح اللواط والزنا والفواحش علانية، ويباح فيه الربا بكل صوره، ويستتهزأ فيه بدين الله، وبرسوله محمد- ﷺ- في وسائل الإعلام، وتعاني فيه الأقليات المسلمة في بعض البلاد من التمييز، والسخرية من دينها وأحكام شريعته، كل هذا يحتاج إلى الصبر، والتمسك أولاً بالإسلام، وبرسالة رسول الله محمد- ﷺ-، والاعتزاز بها، والدفاع عنها، وهذا هو أساس الصبر، ثم تحمل الأذى النفسي الذي يعانيه المسلمون الذين اضطرتهم وقائع حياتهم أن يكونوا بين أكثرية غير مسلمة، بسبب ظروف وأسباب تاريخية، أو يكونوا ممن اضطرتهم ظروفهم المعاشية إلى السفر

إلى تلك البلاد؛ للعمل فيها، وليعلم هؤلاء الذين يُسْتَهْزَأُ بدينهم أنهم هم الغالبون في النهاية؛ لأن الله -جلّ وعلا- وعد بذلك، ووعدده حق وصدق، فقال في محكم تنزيله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١]، وقال: ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]، وقال: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾



بيان الآية:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ لما أمر الله -ﷻ- نبيه ورسوله بالصبر بين له أنه قد أرسل من قبله رسلاً إلى أُمم كثيرة، منهم من قصّ عليه خبرهم، ومنهم من لم يقصه عليه، وهم كثير، وذلك حسب مراد الله في توجيهه لرسوله، وما يكون مفيداً له من هذه القصص، وهو يدعو قومه إلى الله.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: ما كان لأي

واحد من هؤلاء الرسل أن يأتي بآية معجزة إلا بإذن الله ومشيئته، فهو يبعث الرسل بالبينات؛ لتأييدهم في دعوتهم، ولكن بعض أقوامهم لا يكتفي بذلك، بل يطلب آيات أخرى الهدف منها التكذيب، كطلب بعض كفار قريش من رسول الله - ﷺ - أن يفجر لهم الأرض ينابيع، أو يسقط عليهم كسفًا من السماء.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: عذابه ﴿فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: يقضي الله حينئذ بقضائه العادل، فينجي أوليائه المؤمنين، ويهلك المفسدين.

أحكام وفوائد الآية:

- أن تنكير ﴿رُسُلًا﴾ مفيد للتعظيم والتكثير، أي: أرسلنا رُسُلًا عددهم كثير، وشأنهم عظيم.
- أن الله أرسل رُسُلًا إلى أقوامهم، فقَصَّ أخبارهم على رسول الله محمد - ﷺ -، وأرسل رُسُلًا آخرين، فلم يقص أخبارهم عليه؛ وذلك لما اقتضته حكمته في ذلك.
- أنه ليس لأحد من الرسل أن يأتي بآية إلا إذا كان الله قد أعطاه إياها، فالآيات كلها راجعة لأمره ومشيئته.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ بهذا يخاطب الله المكذبين لرسوله أنه جعل لهم الأنعام التي بين أيديهم، فيركبون منها الإبل في سفرهم، ويحملون عليها أمتعتهم وأثقالهم ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: تأكلون لحوم الإبل والبقر والغنم.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ ومنها: اللبن والصوف والجلود والشعر ﴿وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ منها: حرث البقر للأرض لإنبات الزرع، ومنها: ركوب الإبل للانتقال من مكان إلى آخر ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أي: على الإبل والسفن تحملون، حيث سخرها الله لكم، وما كنتم تقدرُونَ على ذلك لولا تسخير هذه المخلوقات لكم.

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ أي: أنه -ﷻ- يريكم أيها العباد آياته في تسخير الأنعام لكم، وفيما ترونه من آياته الكبرى في السماوات

والأرض والكون كله ﴿فَأَيُّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ أي: لا تستطيعون إنكار هذه الآيات؛ لأنكم ترونها في كل شيء وفي أنفسكم، فإن أنكرتموها فإنكم تعاندون وتكذبون، وليس حينئذ أحد أظلم منكم، كما قال-تعالى:- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٧].

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير نعم الله على خلقه، ومنها: تسخير الأنعام لهم، وهي الإبل والبقر والغنم، وهذا التسخير على نوعين: أولهما: تذليل هذه الأنعام لهم مع شدة وقوة بعضها، كما هو الحال في الإبل، وثانيهما: التسخير لمنفعة العباد، حيث توفر لهم هذه الأنعام طعامًا يحتاجون إليه في معاشهم.
- الحكم بأن آيات الله واضحة لخلقها، فمن ينكرها فهو جاحد للحق، ومجادل بالباطل.
- أنه في الآية (٨١) إخبار مستقبلي عن مشاهدة دلائل قدرة الله-تعالى- في الماضي والحاضر والمستقبل.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ

قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاتَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ
عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا
بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا
رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾
فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي
عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ .

بيان الآيات:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إن من رحمة الله بعباده ولطفه بهم دعوتهم إلى الهدى، وتحذيرهم من الضلال، حتى لا يصابوا بالعذاب، فهنا يوجه كفار قريش أن يسيروا في الأرض التي حولهم؛ ليروا آثار الأمم التي كانت قبلهم، كقوم هود وصالح ولوط، وما حلَّ بهم من الهلاك، بسبب تكذيبهم لرسولهم، مع أنهم أكثر في عددهم من قريش، وأكثر قوة واثارًا، أي: عمرانًا في أرضهم، وهو ما أخبر عنه -ﷺ- بقوله: ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاتَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ .

﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: لم تمنع عنهم

قوتهم ولا عددهم ولا آثارهم العذاب الذي أصابهم، حيث أصبحوا أثرًا بعد عين.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ المراد: أن المكذبين لرسلهم لما جاؤوهم بالبينات التي تبين لهم وجوب توحيد الله وطاعته، والإيمان بالبعث والحساب والجزاء، أعرضوا عنها، وفرحوا بما عندهم من العلم المتأتي لهم من أصحاب العقائد المادية المبنية على الفلسفة المجردة من الدين، والمشبعة بالإلحاد والظن، وإنكار الدين، والاستهزاء به وأهله، فكان عاقبتهم الهلاك، كما قال-تعالى:- ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بُاسَنَا﴾ أي: لما رأوا العذاب قد أحاط بهم ﴿قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ أي: قالوا: إننا نؤمن بالله، ونوحده، ونؤمن بما جاءت به رسلنا، ونكفر بكل ما يعبد من دون الله، فنفى الله عنهم الإيمان بقوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بُاسَنَا﴾ أي: لم تنفعهم التوبة ولا الإيمان عند معاينتهم العذاب؛ لأن هذه ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ أي:

حكمه وقضائه في خلقه ﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ أي: خسر الذين استهزؤوا بدين الله، ثم آمنوا لما رأوا العذاب.

أحكام وفوائد الآيات:

- وجوب التدبر والتفكير فيما حلّ بالأُمم المكذبة لرسالتها؛ لما في ذلك من العبر، وإدراك أن ما حلّ بهم سوف يحل بمن بعدهم إذا كانوا مثل ما هم عليه من التكذيب بآيات الله، والاستهزاء بها.
- أن القوة مهما كانت عظمتها لا ترد عذاب الله، فالخلق مهما بلغت قوتهم لا يستطيعون منع وقوع زلزال، ولا منع ثورة بركان، ولا هيجان بحر، ولا منع عاصفة، وهي كلها حوادث يسيرة في جانب قدرة الله وعظمته.
- أن التوبة لا تنفع عند حلول النقم؛ لأن سنة الله في خلقه أن تكون التوبة في حال الإمهال، وليس في حال العذاب، بدليل أن فرعون لم ينفعه إيمانه لما أدركه الغرق، فقال: ﴿عَآمَنْتُ بِهِءَ بَنُوآ إِسْرَآءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]. فقال الله -عز وجل-: ﴿عَآلَسْنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة فصلت

مكية، وآياتها أربع وخمسون آية

﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ
قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ
فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي
ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿٥﴾ .

بيان الآيات:

﴿حَمَّ﴾ من الحروف المقطعة، والله أعلم بمراده منها.

﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أي: هذا القرآن منزل من الله

الرحمن الرحيم المتعالي في ذاته وملكوته.

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ﴾ أي: هذا القرآن مفصل في آياته، واضح

في دلالاته، محكم في ألفاظه ومعانيه.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: نزل بلسان عربي مبين، لا يشكل لفظه، ولا

يصعب فهمه على ذي فهم ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لقوم يريدون أن

يهتدوا بما فيه من الأحكام، أما الذين لا يريدون أن يهتدوا بما فيه فلا

يحبون أن يعلموه.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: فيه البشارة للمؤمنين بأن لهم الحسنى في

الدارين إذا آمنوا بما فيه واتبعوا أحكامه، وفيه: النذارة بأن للمعرضين

عنه سوء العاقبة في الدارين.

﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: أعرض عنه أكثر

قريش، فهم لا يحبون أن يسمعه، أو يفهموا ما فيه.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ أي: مغطاة، فلا نحب

سماعه ﴿وَفِي عَادَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي: فيها صمم عن سماع ما جئت به يا

نبينا محمدًا.

﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أي: بيننا وبينك ساتر، فلا صلة

لنا بك، ولا صلة لك بنا ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ أي: اعمل أنت على

ما تقول من دينك، ونحن عاملون على ما نحن عليه من دين آبائنا

وأسلافنا.

أحكام وفوائد الآيات:

- تأكيد نزول القرآن من عند الله، كما قال-تعالى- في موضع آخر:

﴿وَأَنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى

قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٤﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤].

- أن آيات القرآن مفصلة، وأن لغته عربية، وهذا يقتضي أن يتعلم المسلم قراءة القرآن باللغة العربية حتى يكون أكثر إدراكًا لألفاظه ومعانيه؛ لأن ترجمته إلى اللغات الأخرى قد لا تحقق نفس الفهم الذي يفهمه القارئ له باللغة العربية.
- أن القرآن ذو بشارة ونذارة؛ فالبشارة للمؤمنين به المصدقين به العاملين بأحكامه، والنذارة للعصاة الذين يعرضون عنه.
- أن من طبع الله على قلبه بسبب كفره ومعاصيه لم يعد يسمع ما ينفعه من القول، بل يبقى على ضلاله.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿قُلْ﴾ أي: يا نبينا محمدًا للمكذبين بك من قومك: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي: لست بملك عليكم ولا زعيم أو رئيس

لكم، وإنما يوحى إلي لأبلغكم رسالة الله ﴿أَتَمَّا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾^(١)
أي: لا إله في الوجود غيره، فهو المستحق وحده للعبادة.

﴿فَأَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أي: أخلصوا له العبادة، واتركوا عبادة غيره
من الأصنام والأوثان ﴿وَأَسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي: اطلبوا منه المغفرة مما
سبق من خطيئاتكم ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: سوف يلاقون سوء
العذاب الشديد ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قيل: المراد أنهم الذين لا
يشهدون أن لا إله إلا الله، وقيل: هم الذين لا يزكون أنفسهم بالأخلاق،
ولا يطهرونها من الأرجاس والأنجاس.

وقيل: لا يؤدون زكاة أموالهم^(١)، ولعلَّ هذا هو الأظهر؛ لأن قوله-
تعالى:- ﴿لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: لا يعطونها لمستحقها، فصرف
المعنى إلى تزكية النفس قد يكون بعيداً، ويؤيد ذلك أن المراد بالزكاة
إخراج شيء من أموالهم، ولو كانوا مشركين؛ ذلك أن المتعارف عليه في
المجتمعات أيّاً كانت دياناتها أن الأغنياء يساعدون الضعفاء، وأن عدم
إيتاء المشركين المقصودين هنا للزكاة أو الصدقة يدل على شحهم، وهو
أمر مذموم عند سائر الناس.

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (٢٠/٣٧٩-٣٨٠).

قوله: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: لا يؤمنون بالبعث ولا

بالحساب والجزاء.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

المراد بهم: الذين آمنوا بالله، وصدقوا رسله، وعملوا الأعمال الصالحات من صلاة وزكاة وصيام وصدقة وبر واستقامة على الدين لهم أجر دائم لا ينقطع.

أحكام وفوائد الآيات:

- توكيد نبوة ورسالة رسول الله محمد - ﷺ - بما يوحيه الله إليه.
- تقرير توحيد الألوهية، وهو أنه لا إله إلا الله المعبود بحق، وأن عبادة غيره باطلة.
- وجوب الاستقامة على دين الله لمن يريد النجاة.
- وجوب استغفار العبد من سابق ذنوبه وخطيئاته، وفي الحديث أن رسول الله - ﷺ - قال: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مئة مرة»^(١).
- الإشارة إلى أن التحلف عن دفع الزكاة من صفات الكفار.

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأدب، باب: الاستغفار، (رقم ٣٨١٥)، وصححه الألباني كما في صحيح سنن ابن ماجه.

- تهديد المشركين الذين لا يؤدون صدقة من أموالهم، ولا يؤمنون بالبعث والحساب.
- أن الذين آمنوا بالله، وصدقوا رسله، وعملوا الأعمال الصالحة لهم أجر دائم.

﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ إِندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿قُلْ﴾ أي: قل يا نبينا محمداً للمكذبين من قومك: ﴿أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: إنكم تكفرون بالخالق العظيم الذي خلق الأرض بما فيها من الموجودات والعوالم العظيمة في يومين، فمن كانت هذه عظمته وقدرته هل يعبد غيره من

الأوثان والأصنام التي لا تملك نفعا ولا ضرا؟، وهو معنى قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: هذا الذي تجعلون له نظراء هو رب العالمين الذي خلقكم، وأوجدكم من العدم إلى الوجود.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا﴾ أي: جعل في الأرض جبلاَ راسيات، تمنعها من الحركة والاضطراب ﴿وَبَرَكَ فِيهَا﴾ أي: أودع البركة في موجوداتها من المياه والنبات وغيره ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أي: قدر أقوات الخلائق وحاجاتهم، وأخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال: «خلق فيها جبالها وأنهارها وبحارها وشجرها وساكنها من الدواب كلها.

﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أي: كان هذا التقدير في أربعة أيام تامات، ومن سأل أو يسأل عنها، فهكذا الأمر. ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أي: عمد بعد ذلك إلى السماء وهي دخان، لم تكن بعد قد تكونت، بل كانت بما يشبه الدخان، وهي كذلك ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي: استجبيا لما أمركما به طائعتين أو مكرهتين.

﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أي: مطيعين لك بما تأمرنا به.

﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: أحكم خلقهنَّ في

يومين، فأصبح خلق السماوات والأرض في ستة أيام، أولها: يوم الأحد، وآخرها: يوم الجمعة .

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أي: رتب ونظم في كل سماء من

السماوات السبع ما تحتاجه من المخلوقات التي قدرها بحكمته، ولا يعلمها إلا هو.

﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ﴾ المراد بها: الكواكب السيارة

﴿وَحِفْظًا﴾ أي: وقاية من الشياطين أن تسترق السمع، فإذا حاولوا

قذفتهم الشهب من الكواكب، فيحترقون، وأخرج الطبري بسند حسن عن السدي .

﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ﴾ قال: «ثم زين السماء

بالكواكب، فجعلها زينة ﴿وَحِفْظًا﴾ من الشياطين» .

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي: كل هذا الذي حدث بفعل

وقدرة العزيز في ملكوته العالم بجميع مخلوقاته.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الكفر بالله خلل عظيم في حياة الإنسان؛ لأنه إنكار للخالق، وليس من ذنب أعظم من هذا الذنب.
- أن الله خلق الأرض والسموات وما فيهما في ستة أيام، أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، مع أنه قادر على خلقهما بمجرد أمره لهما بالكينونة، ولكن حكمته اقتضت أن يكون خلقهما مقدراً بهذه المدة، وليس ثمة تعارض بين قوله-تعالى:- ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ وقوله في سورة النازعات لما ذكر خلق السماوات: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠].

ذلك أن خلق الأرض سابق لخلق السماوات، ودحو الأرض وإخراج مائها ومرعاها تالٍ لخلق السماوات، كما ورد في سورة النازعات، فالذي حدث بعد ذلك هو دحو الأرض، وليس خلقها، هذا هو ما قاله سلف الأمة، وقد روى البخاري في تفسير هذه الآية ما ذكره سعيد بن جبير: «أن رجلاً قال لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف علي، منها قوله: ﴿عَآثُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمَ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا

وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ [النازعات: ٢٧ -

٣٠]، فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض، ثم قال-تعالى:-

﴿أَنِيبْكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، فذكر

في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء، فقال ابن عباس: إن الله

خلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء،

فسواهن في يومين آخرين، ثم دحا الأرض، ودحوها أن أخرج

منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجمال والآكام وما بينهما في

يومين آخرين، فذلك قوله: ﴿دَحَاهَا﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ

فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: فجعلت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام،

وخلقت السماوات في يومين»^(١).

- تقرير أن الكواكب زينة للسماء، وأنها حفظ لها من دخول

الشياطين إليها لاستراق السمع، فإذا حاول أحد منهم دخولها

أدركه أحد الشهب، فيحرقه، كما قال-تعالى:- ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا

السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا

لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].

(١) لم يروه البخاري، بل قال: «وقال المنهال: جاء رجل إلى ابن عباس»، وهذا تعليق لا رواية، وقد

رواه موصولاً عبد الرزاق في تفسيره، (رقم ٥٨٨)، وابن المنذر في تفسيره، (رقم ١٧٩١)

مختصراً.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ۚ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِءٌ كَافِرُونَ ۚ فَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۚ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيقَهُمْ ۚ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ۚ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۚ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۚ﴾

بيان الآيات:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ المراد بهم كفار قريش، أي: إن تولوا عما جاءهم من البينات ﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً﴾ أي: قل لهم: إني أنذركم من صاعقة تحيط بكم.

﴿مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ﴾ أي: تصيبكم كما أصابتهم، فتهلككم

كما أهلكتهم، والمراد بهم قوم هود وقوم صالح المكذبون لهما، فأرسل الله عليهم الصواعق التي مزقتهم شر ممزق، وقد بين الله سبب عذابهم بقوله: ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: أتتهم رسلم تدعوهم إلى توحيد الله، وطاعته، وعدم الشرك به، فلم يستجيبوا لهم، وقالوا لهم: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي: لو كان ربنا يريد إرسال رسل لنا بالذي تقولون لأنزل ملائكة من عنده لهذا ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: لن نقبل قولكم ولا دعوتكم.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: طغوا، وعتوا، وعصوا ما جاءهم به رسول الله من الهدى ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ وهذا غاية في الاستكبار والطغيان؛ إذ إنهم لما وجدوا أنفسهم في قوة من الدنيا ظنوا أنه ليس أحد أقوى منهم، وهذا من جهلهم وسفاهتهم، فقال -عليه السلام-: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: لم يكونوا يفكرون؛ لفرط جهلهم أن الذي خلقهم وأخرجهم من العدم إلى الوجود هو أقوى منهم، ولو كانوا يعقلون لعلموا أن قوة الخالق غير قوة المخلوق.

﴿وَكَاْنُوا بِآيَاتِنَا يُجْحَدُونَ﴾ أي: ما كان هذا القول ليصدر منهم

إلا لأنهم كانوا يجحدون آيات الله، وينكرونها.

ولما علم الله مقولتهم ومبارزتهم له العداوة، قال -ﷻ-: ﴿فَأَرْسَلْنَا

عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: ريحًا باردة قوية الصوت ﴿فِي أَيَّامٍ

نُحِسَاتٍ﴾ أي: مشؤومات، كما قال -تعالى-: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ

لَيَالٍ وَثَمَنِيَّةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ

نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: أذاقهم الله عذابًا

أخزاهم وأذلهم في الحياة الدنيا، حيث أصبحوا عبرة وموعظة للناس

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾ أي: أشد وأعظم من خزي الدنيا ﴿وَهُمْ

لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: لن يجدوا لهم نصيرًا ينصرهم من دون الله، بل

يلاقون العذاب جزاء استكبارهم واغترارهم بقوتهم بقولهم: ﴿مَنْ

أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي: أرسلنا لهم أخاهم صالحًا يبين لهم

الآيات، ويدعوهم إلى الهدى، كما أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة

قال: «بيّنا لهم سبيل الخير والشر» ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾

أي: أبوا، وأعرضوا، وعصوا أمر ربهم حين عقروا الناقة التي أعطاهم الله؛ لتكون لهم آية، وأخرج الطبري بسند حسن عن السدي قال: «اختاروا الضلالة والعمى على الهدى».

﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَِعْقَةٌ أَلْعَذَابِ الْهُونِ﴾ أي: بعث الله عليهم صيحة ورجفة أهلكتهم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: كان هذا جزاء عملهم، وتكذيبهم لرسولهم، وجحودهم لآيات الله .

﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أي: أنقذنا المؤمنين من بينهم، فلم يصبهم سوء، فنجوا هم ونبیهم صالح بسبب إيمانهم وتقواهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- سوء عاقبة المعرضين عن الدعوة إلى الحق؛ لما في ذلك من الكبر، ورد الحق، وقبول الباطل، وفي هذا قال-تعالى-: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧].

- وجوب الإقرار بكلمة التوحيد، وهي شهادة أن لا إله إلا الله.

- أن المعرضين عن الحق غالبًا ما يحاولون تعجيز من يدعوهم إلى التوحيد، فيطلبون إنزال الملائكة لهم، كما يطلبون العديد من

المعجزات، كما طلب كفار قريش من رسول الله ﷺ - أن يرقى إلى السماء، وينزل عليهم كتابًا يقرؤونه.

- أن الاستكبار والاعتداد بالقوة وظلم الآخرين يقود إلى الدمار والهلاك، كما حصل لقوم عاد.

- تحريم الاستكبار والاعتداد بالقوة والعجب بها، كما يحصل اليوم من تسلط الدول القوية على الدول الضعيفة، واستغلالها - كما سبق ذكره-، وقد وعد الله المستكبرين بأشد العذاب، كما قال - تعالى- في حق الكفرة يوم القيامة: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢].

- بيان أن العذاب الذي أصاب الله به المكذبين لرسله - كما حدث لقوم هود وصالح- لم يكن ليصيبهم إلا بسبب أعمالهم السيئة، وكفرهم بآيات الله.

- أن الإيمان هو الفاصل بين العذاب والنجاة منه؛ لأن الله عهد على نفسه أنه ينجي المتقين، كما قال - تعالى-: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: ٦١].

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا

جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِحُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ .

بيان الآيات:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ لَمَّا وَجَّهَ الله رسوله محمداً -ﷺ- أن ينذر كفار قريش إذا أعرضوا عما جاءهم من البينات، قال -ﷺ-: بَيْنَ لَهْم يَا نَبِينَا مُحَمَّدًا كَيْفَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟، حيث تجمعهم الملائكة فرقا فرقا بعد تجميعهم، ثم يسحبون إلى النار ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ أي: إذا وقفوا على النار.

﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: تنطق هذه الجوارح بما كانت تعمل، لا يخفى منه شيء، فيقولون حينئذٍ لجلودهم: ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ أي: كيف تشهدون علينا؟، يقولون هذا لهم على سبيل اللوم والاستغراب.

﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: أنطقنا الله الذي أنطق الأشياء ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: الذي أنشأكم النشأة الأولى ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: تعودون إليه بعد أن يحييكم من

موتكم.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير كيفية حشر المعادين لله إلى النار فرقًا فرقًا، كما قال-تعالى-
: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦].
- أن جوارح الإنسان تشهد عليه بما فعل، فلا يستطيع إنكار ما كسب في الدنيا، وفي حديث أنس بن مالك-رضي الله عنه- الذي سبق ذكره، قال: «كنا عند رسول الله-ﷺ، فضحك، فقال: «هل تدرون مم أضحك؟، قلنا: الله ورسوله أعلم، قال-ﷺ-: «من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب! ألم تجرني من الظلم؟، قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإنني لا أجزى على نفسي إلا شاهدًا مني، قال: فيقول الله-تبارك وتعالى-: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانها: انطقي، قال: فتنتطق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بعدًا لكن، وسحقًا، فعنكن كنت أناضل»^(١).

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد، (رقم ٢٩٦٩).

مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصِيرُوا فَالْتَارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾.

بيان الآيات:

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ ورد في سبب نزول هذه الآية: ما رواه عبد الله ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: «كنت مستتراً بأستار الكعبة، فجاء ثلاثة نفر كثيرٌ شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، قرشي وختناه ثقفيان، أو ثقفى وختناه قرشيان، فتكلموا بكلام لم أفهمه، فقال بعضهم: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا؟، فقال الآخر: إذا رفعنا أصواتنا سمع، وإذا لم نرفع أصواتنا لم يسمع، فقال الآخر: إن سمع منه شيئاً سمعه كله. قال عبد الله: فذكرت ذلك للنبي -ﷺ-، فأنزل الله -تعالى- هذه الآية»^(١).

والمراد: أن الأعضاء حينما تشهد على أصحابها، فيلومونها على

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: قوله: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ﴾، (رقم ٤٨١٧)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين، (رقم ٢٧٧٥)، وليس عندهما: «قال عبد الله: فذكرت ذلك للنبي -ﷺ-».

هذه الشهادة، تقول لهم: لم تكونوا تخفون عنا ما كنتم تفعلون من المعاصي، بل كنتم تجهرون بها؛ لأنكم كنتم تظنون أن الله لا يعلم ما تفعلون، وهو ما أخبر به -تعالى- في قوله: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْكُمُ﴾ أي: إن ظنكم أن الله لا يعلم أفعالكم هو الذي أهلككم، وأرداكم.

﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: أصابكم الخسران والهوان والعذاب يوم القيامة.

﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أي: إن يصبروا على ما هم فيه من العذاب فالنار مقرهم ومسكنهم ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أي: إن يعتذروا فلن يقبل منهم عذر؛ لأن التوبة في الدنيا هي العذر، أما في الآخرة فليس ثمة أعذار.

أحكام وفوائد الآيات:

- تحريم سوء الظن بالله، سواء أكان بالقنوط من رحمته، أم بالظن أنه لا يطلع على أفعال العبد، أم بالظن فيه -عجل- بما يتنافى مع قدرته وعظمته، كما قال -تعالى-: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ

الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴿١٥٤﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وهذا يقتضي أن يكون المسلم حسن الظن بالله-تعالى-، فيعلم أنه ربه، وأنه قد تكفل برزقهن وتكفل بقبول توبته إذا تاب من ذنوبه، وتكفل بأنه لن يظلمه، وتكفل بأنه سيرحمه؛ لأن رحمته وسعت كل شيء.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ ﴿٢٥﴾.

بيان الآية:

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ المراد: كفار قريش، والمعنى: أنهم لما عادوا الحق، وأصروا على الباطل، تداخلت معهم بالقول والفعل شياطين من الجن ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: زينوا وحسنوا لهم أعمالهم الفاسدة من الكفر والمعاصي، وأخرج

الطبري بسند حسن عن السدي قوله: ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ «من أمر الدنيا ﴿وَمَا خَلَقَهُمْ﴾ من أمر الآخرة».

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: حق عليهم حينئذ العذاب ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ أي: كانوا من جملة الأمم السابقة التي حق عليها العذاب ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أي: لم يكن لهم من المعاصي التي زينها لهم قرناؤهم من الشياطين إلا الخسران.

أحكام وفوائد الآية:

- أن المرء إذا استمر في المعاصي، وأعرض عن الحق، ونسي ذكر الله وخشيته، بعث الله له قريناً من الشياطين، يزين له سوء أفعاله؛ لقوله-تعالى:- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تُوْزُّهُمْ أَزْوَاجًا﴾ [مريم: ٨٣] أي: تسول لهم المعاصي، وقوله-تعالى:- ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الظُّلُمَاتِ فَإِنْ شَاءَ يَخْلُفْهُ رَبُّهُ ذَكْرًا وَالْغَايَةُ إِلَىٰ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضُ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧].

- أنه في الآية (٢٥) إخبار مستقبلي عن جعل الله-تعالى- للكفار

أصحاباً من شياطين الإنس والجن، يُزَيِّنُونَ لَهُمْ قُبَائِحَ أَعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾ ٦٦ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٦٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ ٦٩ .

بيان الآيات:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ هذا بيان من الله -تعالى- أن كفار قريش تواصلوا بينهم، واتفقوا على ألا يسمعوا القرآن إذا تلاه رسول الله -ﷺ- خشية أن تتأثر به أنفسهم، ويتأثر بهم كذلك من يراهم يسمعون، كما تواصلوا أن يكثرُوا من اللغو إذا كان محمد -ﷺ- يقرؤه، ومن ذلك: رفع الأصوات، والضجيج والصفير حتى يختلط لغوهم هذا مع صوت رسول الله -ﷺ-، فلا يستطيع أحد فهم ما يقول، وأخرج الطبري بسند صحيح

عن مجاهد قوله: ﴿وَالْغَوَا فِيهِ﴾ قال: «بالماء والتصفير والتخليط في المنطق على رسول الله - ﷺ - إذا قرأ القرآن، قريش تفعله».

﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي: إذا فعلتم هذا اللغو سوف تغلبون

محمداً وأصحابه، ولما سمع الله مقاتلتهم توعدهم بالعذاب الشديد، ومجازاتهم بأسوأ من أفعالهم فقال - عزَّ ذكره -: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقد وصفه الله بقوله: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: إن هذا العذاب هو جزاء أعداء الله عامة، ومنهم: كفار قريش، وسوف يخلدون فيه جزاء جحودهم لآيات الله، وتكذيبهم لرسوله، وإيذائه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ

وَالْإِنْسِ﴾ أي: يقول الكفرة وهم في النار: يا ربنا أَرْنَا الذين أضلَّانا

من الجن والإنس، أي: من شياطين الجن والإنس، قيل: المراد بالذي

أضلَّهم هو إبليس من الجن، وقابيل من الإنس؛ لكونه أول من سن

القتل^(١) ﴿نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ أي: في

(١) قاله قتادة، انظر: تفسير عبد الرزاق، (رقم ٢٧٠٤)، وعلي بن أبي طالب: انظر: تفسير الطبري،

(٤٢٠/٢٠)، وصححه الحاكم في المستدرک، (رقم ٣٢١٥)، ووافقه الذهبي.

الدرك الأسفل من النار حتى نشفي صدورنا منهم، بسبب إغوائهم لنا حتى صرنا إلى ما نحن فيه من العذاب.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير سلوك المشركين تجاه القرآن، ومعارضتهم له، والاستهزاء به، وتقرير عقابهم، وهو الخلود في العذاب.
- أن القرآن سلاح عظيم في أيدي المؤمنين في مواجهة الكفرة الملحدين.
- أن المجرمين حين يقاسون العذاب يطلبون ربهم أن يريهم من أضلوهم في الدنيا من شياطين الجن والإنس؛ لكي ينتقموا منهم، فيضعوهم في الدرك الأسفل من النار، كما قالوا فيما حكاه الله عنهم: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَهُمْ لِأُولِنَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتَيْنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي

أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ .

بيان الآيات:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ لما ذكر الله في الآيات السابقة حال الكافرين ومآلهم يوم القيامة ذكر حال المؤمنين، فوصفهم بأنهم الذين كانوا يقولون في الدنيا: إن الله ربهم، لا يعبدون إلا إياه، ولا يخشون إلا إياه، ولا يرجون إلا إياه، فلم يدعوا صنماً أو وثناً، ولم يتعلقوا إلا بربهم، وقد استقاموا على ذلك إلى أن قدموا عليه، فلم يبدلوا، ولم يغيروا، بل كانوا ثابتين على دينهم، مستقيمين عليه.

﴿تَنْزِيلٌ عَلَيْهِمُ الْمَلَكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي: تأتيهم عند موتهم، فتبشرهم برحمة ربهم، فلا يخافون من عذاب القبر، ولا هم يحزنون على ما تركوا في الدنيا من الأهل والمال، كما تبشرهم عند مبعثهم بألا يخافوا، ولا يحزنوا من أهوال يوم القيامة، وتقول لهم: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴿٣١﴾ أي: تقول لهم الملائكة عند موتهم: نحن الذين كنا معكم في الدنيا نكتب أعمالكم،

ونحفظكم بأمر الله، وسنكون معكم في الآخرة، نوْمِّنكم بأمر الله من وحشة القبر، وعند النفخة، وعند العرض، فلا تخافوا أو تحزنوا، فأنتم في حفظ الله، ونحن معكم حتى تدخلوا الجنة بسلام، وأخرج الطبري بسند حسن عن السدي: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: «نحن الحفظة الذين كنا معكم في الدنيا، ونحن أولياؤكم في الآخرة».

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ أي: لكم في الجنة ما تشتهي أنفسكم، وما ترغبونه من المطالب ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ أي: ما تتمنون ﴿نُزُلًا مِّنْ غُفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أي: هذا الذي تحظون به هو عطاء وإنعام وضيافة لكم من ربكم الذي غفر لكم ذنوبكم ورحمكم، فوصلتم إلى هذه الدرجات من الكرامة.

أحكام وفوائد الآيات:

- عظم الاستقامة، وفضل صاحبها، قال-تعالى:- ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣]، وفي حديث سفيان بن عبد الله الثقفي قلت: «يا رسول الله! حدّثني بأمر أعتصم به، فقال-عليه

الصلاة والسلام-: «قل: ربي الله، ثم استقم»، قلت: يا رسول الله! ما أخوف ما تخاف عليّ؟، فأخذ رسول الله -ﷺ- بلسان نفسه، ثم قال: «هذا»^(١).

- أنه في الآية (٣١) إخبار مستقبليّ عن تأييد الملائكة للمؤمنين بالنصر والتسديد في الدنيا.

- تقرير أن الإيمان والاستقامة عليه يحققان البشرى للمؤمن من حين موته إلى دخوله الجنة، وشاهده: قول الله-تعالى- على لسان الملائكة حين تحضر المؤمن الوفاة: ﴿يَأْتِيُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

بيان الآية:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: لا أحد أحسن قولاً

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد، باب: ما جاء في حفظ اللسان، (رقم ٢٤١٠)، وابن ماجه في كتاب الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة، (رقم ٣٩٧٢)، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: جامع أوصاف الإسلام، (رقم ٣٨)، الجملة المتعلقة بالاستقامة.

من الذين يدعون غيرهم إلى دين الله، والمدعون على قسمين:

القسم الأول: من لم يؤمن بالله أصلاً من الملحدين والكفرة، فدعوتهم وترغيبهم في الإسلام بذكر محاسنه، مع تبسيطه وشرحه لهم بالموعظة المبنية على الحكمة والمجادلة العلمية، وفي هداية هؤلاء أجر عظيم؛ لأنها دعوة الأنبياء، ناهيك أن فيها إنقاذ عدد أكبر من الناس من العذاب، كما قال رسول الله -ﷺ-: «فوالله لأن يهدي بك رجل واحد خير لك من حمر النعم»^(١)، فكيف بمن يهدي الله على يديه أقواماً أو أمماً؟.

القسم الثاني: من هو داخل أصلاً في دين الله، ولكنه مقصر فيه بارتكابه المعاصي والمحرمات، والانحراف عن منهج الدين، فدعوته هنا من باب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهذا الأمر يكاد يكون ركناً من أركان الإسلام؛ لأنه بدون هذا الأمر وهذا النهي يضعف الدين في النفوس إلا من وقاه الله؛ ذلك أن النفس البشرية ميالة إلى الهوى والملذات، فالدعوة عن طريق الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، أو عن طريق الوعظ والإرشاد، أو بأي صفة أخرى تنبه إلى ما قد يحدث في النفوس من الخلل والميل عن المنهج الإلهي، ولا شك أن الدعاة في كلا

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب: دعاء النبي -ﷺ- إلى الإسلام والنبوة، (رقم ٢٩٤٢)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل عليٍّ، (رقم ٢٤٠٦).

القسمين يلاقون كيد أهل الباطل، فيضعون أمام الدعاة الكثير من العقبات، ويصفونهم بأبشع الأوصاف، وهذا هو ما حصل للأنبياء منذ أن حمّلهم الله إبلاغ رسالته، ولكن هذه العقبات لا تقارن بما يحصل للدعاة من الثواب العظيم.

قوله: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: كان هذا الداعي قدوة في دعوته؛ إذ لا يمكن أن تبلغ الدعوة مبلغها، أو تحقق أثرها إلا إذا كان الداعي ممن آمن بالله، وعمل صالحًا في نفسه، ولهذا كان الأنبياء-سلام الله عليهم- القدوة الكبرى لأممهم في الصلاح والإيمان، فهذا رسول الله -ﷺ- وهو خاتمهم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه^(١).

قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: أكّد انتماءه وتعلقه بالإسلام مفاخرًا ومعتزًا به، ومحافظًا على شعائره.

أحكام وفوائد الآية:

- الحكم بأن المرتبة الأولى في حسن القول تتطلب الدعوة إلى الله قولًا وعملاً، سواء دعوة غير المسلم إلى الإسلام، أو دعوة المسلم

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: قوله-تعالى-: ﴿لَيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا

تَأَخَّرَ﴾، (رقم ٤٨٣٧)، ومسلم في كتاب صفة القيامة، باب: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، (رقم ٢٨٢٠).

إلى الحفاظ على منهج الإسلام، والالتزام به في السلوك، كما تتطلب هذه المرتبة تحقق العمل الصالح للداعي؛ إذ إن الدعوة ليست مجرد شعار، بل هي التزام وعمل، كما تتطلب هذه المرتبة الإقرار بالانتماء إلى الإسلام قولاً وعملاً.

﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ﴾ هذا توجيه من الله، وتربية لعباده؛ ليعلموا أنه لا تماثل بين الحسنة والسيئة، فالخير لا يتساوى مع الشر، والإيمان لا يتساوى مع الكفر، والعقوب لا يتساوى مع البر، والظلم لا يتساوى مع العدل، وهكذا.

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ﴾ أي: لما كانت الحسنة لا تساوي السيئة فعليك يا نبينا محمداً أن تدفع السيئة بضدها، وأخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم والعفو عند الإساءة، فإذا

فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم، كأنه ولي حميم.

﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: يتخلى

عدوك عن عداوته، ويصبح صديقاً حميماً لك، وقد فعل ذلك رسول الله -ﷺ-، فكان القدوة والمثال في حسن الخلق والحلم عن الجاهل، والصفح والعفو عن العدو، فقال لمن كانوا يعادونه، وأخرجوه من مكة، وهموا بقتله: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(١)، ولم يغضب-عليه الصلاة والسلام- على من جفا عليه بالقول، بل كان سيد الحلم إلا إذا انتهكت محارم الله.

﴿وَمَا يُلْقَىٰهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: ما يلقي فضيلة دفع

السيئة بالحسنة إلا الذين يصبرون على ما يسمعون بعد أن زكت نفوسهم، وحسنت أخلاقهم .

﴿وَمَا يُلْقَىٰهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ما تحصل هذه الفضيلة

إلا لمن منحه الله حظاً وافراً من الأخلاق وسمو النفس.

أحكام وفوائد الآيتين:

- الحكم بأن الحسنة لا تتساوى مع السيئة، فهما ضدان لا

(١) السيرة النبوية لابن إسحاق، (٢/٢٠٨).

يجتمعان بحال.

- وجوب دفع السيئة بالحسنة من القول أو العمل، وقد أرشد الله نبيه ورسوله محمداً - ﷺ -، وهو في الوقت نفسه إرشاد لأُمته، أن يكون متسامحاً رقيق القلب، وأن يعفو عن المسيء، ويستغفر له ويشاور فيما ينزل به من أمر، كما قال - تعالى -: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لنت لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۚ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

- تقرير قاعدة من قواعد السلوك لدى الإنسان، وهي أن الإحسان إلى المسيء يصرفه عن الاستمرار في إساءته، بل يعدل به من الإساءة إلى الحسنى، ومن البغضاء إلى المودة، ومن الكره إلى المحبة.

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٣٦﴾.

بيان الآية:

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ الشيطان عدو للإنسان، كما قال - تعالى -: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

وشياطين الإنس قد يندفعون بالإحسان إليهم أو بعقوبتهم إذا كان لا يردعهم إلا العقوبة، ولكن شياطين الجن أعظم خطراً؛ إذ إن رئيسهم إبليس قال للرب -ﷻ: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ

﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ [ص: ٨٢-٨٣]، فاقترض هذا أن

الشیطان يدخل على الإنسان من طرق عدة، فيشغله في صلاته، وفي منامه، وفي أخص خصائصه، فيأمره بالمعصية، ويزينها له، ولا يزال بالإنسان يناصبه العداوة، فلا يندفع إلا بالتعوذ منه لرد وساوسه ومكائده، وقد أمر الله نبيه ورسوله محمداً -ﷺ- أن يتعوذ منه بقوله: ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وقوله: ﴿ قُلْ

أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ [الناس: ١ - ٦]، وكان رسول الله -ﷺ- إذا قام إلى

الصلاة بالليل قال: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه»^(١).

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب: من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك، (رقم ٧٧٥)، والترمذي في كتاب أبواب الصلاة، باب: ما يقول عند افتتاح الصلاة، (رقم ٢٤٢)، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة، باب: افتتاح الصلاة، (رقم ٨٠٤)، وصححه الألباني كما في صحيح سنن أبي داود.

أحكام وفوائد الآية:

- وجوب الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم إذا تعرض المسلم لوساوسه، فإنه لا يرد كيده إلا الالتجاء إلى الله بالتعوذ منه، فبهذا التعوذ يصغر، ويندحر، ويرتد كيده عليه.
- أن الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم شرط أساسي للانتفاع بتربية القرآن وتوجيهاته؛ لأنَّ القرآن الكريم كتاب تربية وهداية، يَقْصِدُ إلى تقوية المؤمن في جانب المعرفة، وتقويته في جانب الإرادة، وسعادة المؤمن متوقفة على استكمال هاتين القوتين، ودفع ما يضعفهما من الشبهات والشهوات، والاستعاذة حصن المؤمن وسياجه الذي يستعصي على نَفَثَاتِ إبليس وسهامه.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۝ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ .

بيان الآيات:

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ هذا بيان من

الله -ﷻ- أن من آياته العظيمة الدالة على قدرته المطلقة وجود الليل بسكونه، والنهار بضياءه، وكونهما يتعاقبان في نظام دقيق، لا يتبدل ولا يتغير، كما أن من آياته الشمس والقمر، وجريانهما في نظام دقيق يعجز العقل عن إدراك أسرارِهِ.

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ هذا نهي تحريم عن

السجود لهما؛ لأنهما مخلوقان، لا يملكان نفعا ولا ضرا، وإنما العبادة يجب أن تكون للذي خلقهما، وقدرهما، وسيرهما، كما قال-تعالى-: ﴿وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾.

قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: خصوه وحده بالعبادة، وأخلصوها ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا﴾ أي: أعرضوا عن عبادة الله وتوحيده ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي: الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ أي: لا يفترون ولا يملون.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أي: ومن آياته الدالة على عظمتِهِ وقدرته: أن الإنسان يرى الأرض خاشعة أي: ميتة لا نبات فيها ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: إذا نزل الله

عليها المطر أنبتت الزروع ومختلف النبات، كما أخرج الطبري بسند حسن عن السدي قال: «يقول-تعالى ذكره-: فإذا أنزلنا من السماء غيثاً على هذه الأرض الخاشعة اهتزت بالنبات، يقول: تحركت به».

﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى﴾ أي: أن القادر الذي يحيي الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: قادر على فعل ما يريد، فيقول للشيء كن، فيكون.

أحكام وفوائد الآيات:

- بيان قدرة الله وعظمته، كما دلّت عليه آياته، ومنها: الليل والنهار والشمس والقمر.
- تحريم السجود لغير الله، كما كانت تفعل بعض الأمم من عبادتها للشمس، وهذا يقتضي حكماً تحريم كل ما في معنى السجود لغير الله، كالجُثُو على الركب تعظيماً للمخلوق، ونحو ذلك مما يفعله بعض جهلة المسلمين تجاه رؤسائهم من أصحاب الزعامات ورؤساء الطوائف والطرق.
- تحريم الاستكبار عن ذكر الله وعبادته، كما قال-تعالى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾

- تقرير عظمة الله وقدرته في إحياء الموتى، وفي فعل كل ما يريد، حيث يقول للشيء: كن، فيكون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤٦﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾ .

بيان الآيات:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ الإلحاد هو الميل بالشيء عن موضعه، فالذين يلحدون في آيات الله وأسمائه وصفاته هم الذين يميلون بها عن حقيقتها، فيحرفونها، ويغيرونها لخدمة أغراضهم الباطلة.

قوله: ﴿لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا﴾ أي: نعرفهم، وسوف يحل بهم العقاب ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: هما لا يستويان، فمن يلحد في آيات الله سوف يلقي العذاب والهوان يوم القيامة، ومن يؤمن بهذه الآيات سوف يأتي آمناً يوم القيامة،

فالعاقل من يختار الإيمان على الكفر حتى يكون إيمانه مانعاً له من الإلقاء في النار.

﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هذا تهديد ووعيد للذين يلحدون في آيات الله، ويستهزئون بها، ويجادلون بالباطل فيها، فيقول الله لهم: اختاروا ما شئتم من الإيمان أو الكفر، فالله بصير وعالم بما تعملونه، وسوف يجازيكم على هذا العمل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ المراد به القرآن، وهذا تهديد ووعيد لمن كفر به، والخبر محذوف، وهو أن من كفر به سيلقى العذاب ﴿وَأَنَّهُ لَكَتَّابٌ عَزِيزٌ﴾ أي: منيع غالب، لا يقدر أحد على الإتيان بمثله.

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: لا يتطرق إليه الباطل بالتحريف أو الزيادة أو النقص؛ لأن الله حفظه بحفظه، فلا يأتيه الباطل من أي جهة من جهاته، وذلك لأنه ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي: منزل من الحكيم في تدبيره، المحمود في أوامره ونواهيه وسائر أفعاله، فتقدس في آياته وفي أسمائه وصفاته، وأخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال: «الباطل: إبليس لا

يستطيع أنه ينقص منه حقًا، ولا يزيد فيه باطلاً.

أحكام وفوائد الآيات:

- تحريم الإلحاد في آيات الله وأسمائه وصفاته، وذلك بصرفها عن الحق إلى الباطل، وهذا هو ما يفعله بعض من ضل عن سبيل الهداية، فجعل من الباطل منهجًا للضلال، كما يحدث اليوم من الخروج على أحكام الله بعلل وأوهام تحل ما حرم الله، ومن ذلك: المطالبة بترك الناس يفعلون ما يريدون تحت مسمى الحرية في القول والفعل، ودون أن يكون عليهم رقيب يأمرهم بالمعروف، أو ينهاهم عن المنكر.

- أنه في الآية (٤٠) إخبار مستقبليٌّ بأن الله بصير بالأعمال، لا يخفى عليه شيء منها، سواء كانت تلك الأعمال في الماضي، أم في الحاضر، أم في المستقبل.

- التهديد والوعيد لمن يلحد في آيات الله، كما قال-تعالى-: ﴿وَذُرُوا

الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[الأعراف: ١٨٠].

- الحكم بأن الله حفظ القرآن بحفظه، فلا يتعرض لنقص أو زيادة أو تبديل أو تغيير، وهذا هو ما حدث منذ أن نزل من رب العالمين،

فقد حفظه الله في صدور عباده المؤمنين حتى قيام الساعة، وكل الذين حاولوا فيما مضى، أو يحاولون اليوم في التعرض له حسب أهوائهم وضلالهم يبوؤون بالفشل والخسران.

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٤٣).

بيان الآية:

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ في هذا تسليية لرسول الله محمد - ﷺ -، وأمر له بالصبر على أذى قومه، والمراد: أن ما قيل لك من التكذيب والتسفيه والاستهزاء سبق أن قيل للرسل قبلك، فاصبر كما صبروا ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ أي: يعطي المكذب بآياته فرصة للتوبة، لعلّه يرجع عن ضلاله ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: يعاقب بشديد العقاب من يستمر على كفره وضلاله.

أحكام وفوائد الآية:

- أن الله - ﷻ - يذكر لرسوله أن الرسل الذين أرسلوا من قبله تعرضوا للتكذيب من أممهم، وقد صبروا على ذلك، فأمره أن يكون مثلهم في الصبر؛ لأن الله يمهّل المكذبين، لعلهم يتوبون إليه، وذلك لأنه رحيم

بخلقه، فلا يعذب إلا من عاند منهم، واستمر على كفره.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ۖ
 ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۚ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا
 يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ
 مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝﴾ .

بيان الآية:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ لما ذكر الله -ﷻ- القرآن وبيانه،
 وكفر المشركين به، ومعاندتهم له، رد على حججهم، مبيناً أن قصدهم
 هو المكابرة والمعاندة، فلو أنزله عليهم بلغة أعجمية كما رأوا ﴿لَقَالُوا
 لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ۖ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۚ﴾ أي: قالوا: لو فصلت آياته
 بلغة العرب لكان ذلك واضحاً لهم؛ لأنه إذا كان أعجمياً وهو منزل على
 العرب، فلن يفهموا لغته، ولما كان قصدهم هو اللجاج والجدال
 الباطل؛ لتبرير كفرهم بالقرآن، قال الله لرسوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ
 ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ أي: قل لهم يا نبينا محمداً: إن من آمن بهذا
 القرآن فإنه له هدى من الضلال، وشفاء من الريب والشك.

﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي: صمم يحول بينهم

عن سماعه، والإيمان به ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي: ظلام، فلا يدركون ما فيه من الحق ﴿أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: كأنهم يدعون من مكان بعيد، فلا يسمعون هذا النداء بسبب الصمم الذي وقر في آذانهم.

أحكام وفوائد الآية:

- بيان ما كان عليه المشركون من العناد والمكابرة والكفر بالقرآن، وأن الله -ﷻ- جعل القرآن هدى لقلوب المؤمنين، وشفاء لصدورهم، ورحمة لهم، فهم يؤمنون به، كما قال -ﷻ-: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، أما المشركون ومن في حكمهم فلا يؤمنون به، فهم في عمى وضلال وخسران، وسوف يجزي الله المؤمنين بالقرآن على إيمانهم، ويجزي الكافرين على كفرهم.

- اختلاف تأثير القرآن في الناس حَسَبَ نظرتهم له، فهو هدى وشفاء للمؤمنين، وصَمَمٌ وعمى على الكافرين.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ

مِّن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ ﴿٤٥﴾

بيان الآية:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي: كما آتيناك يا

نبينا محمدًا الكتاب فقد آتينا موسى من قبلك الكتاب، والمراد به التوراة، وقد اختلف بنو إسرائيل فيه، فمنهم من اهتدى بما فيه، ومنهم من شك فيه، ومنهم من آمن ببعضه، وكفر ببعضه الآخر، ومنهم من كذب به.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: لولا أن كلمة ربك يا نبينا

محمدًا قد مضت بتأجيل الحساب إلى ما بعد قيام الساعة ﴿لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ المراد بهم المشركون؛ لأن الذين كذبوا موسى قضى الله بينهم،

فأهلك من كفر منهم كفرعون وجنده وقومه، ونجى من آمن بموسى كمؤمن آل فرعون ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: إن المشركين كانوا في ريب من القرآن بسبب مرض قلوبهم.

أحكام وفوائد الآية:

- بيان حال الأمم السابقة لبعثة رسول الله - ﷺ -، وأنها قد اختلفت

على أنبيائها، ومن ذلك: اختلاف بني إسرائيل على موسى.

- أن حكمة الله اقتضت تأجيل الفصل بين المشركين والمؤمنين إلى

أجل مسمى خلافاً لقوم موسى الذين حكم الله فيهم، فنجى المؤمنين منهم، وأهلك الكافرين.

- أن المشركين كانوا في ريب من القرآن بسبب مرض قلوبهم.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

بيان الآية:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: أن من عمل عملاً صالحاً فإن نفع عمله يعود عليه وحده ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: يرجع سوء عمله إليه، وهذا كقوله-تعالى:- ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي: لا يعاقب أحداً إلا بذنب ارتكبه بعد أن تقوم الحجة عليه عن طريق الكتب والرسل.

أحكام وفوائد الآية:

- أن الإنسان يعمل لنفسه؛ فالمحسن يجزى على إحسانه، والمسيء يجزى على إساءته، وهذا غاية العدل، وفي الحديث القدسي: «يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد

خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»^(١).

- أنه في الآية (٤٦) قوله-تعالى-: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾

وقف نبوي، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة

الأنعام الآية (٦٥).

- نفي الظلم عن الله-عز وجل-، فقد حرم-جل ثناؤه-الظلم على نفسه،

وجعله محرماً بين عباده، وفي الحديث القدسي عن رسول الله-

ﷺ-فيما روى عن ربه-تبارك وتعالى-أنه قال: «يا عبادي! إني

حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا»^(٢).

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمامِهَا

وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ

شُرَكَائِي قَالُوا ءَاذَنْكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا

يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظُنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِصٍ ﴿٤٨﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: لا يعلمها إلا الله وحده ﴿وَمَا

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب: تحريم الظلم، (رقم ٢٥٧٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب: تحريم الظلم، (رقم ٢٥٧٧).

تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْثَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴿١١٧﴾ أي: ما تخرج ثمرات الأشجار من أوعيتها، وما تحمل أنثى من البشر أو الحيوان أو الطير، ولا تضع مولودها إلا بعلمه-جلّ وعلا-، فهو العليم بكل ما في الوجود، وهو المحيط بقدرته كل ما فيه.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ أي: أن الله ينادي المشركين يوم القيامة على رؤوس الأخلاق، ويقول: أين شركائي الذين عبدتموهم من دوني؟ ﴿قَالُوا عَاذَنَّكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أي: يتبرؤون منهم، ويقولون: يا ربنا! لقد أعلمناك، وأقرنا على أنفسنا أنه ما منا من شهيد يشهد أن لك شريكاً، بل أنت الواحد الأحد الذي لا رب لنا غيرك، ولا إله لنا سواك.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يُدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: ذهب عنهم الشركاء الذين كانوا يدعونهم في الدنيا ﴿وَوُضِعُوا لَهَا مِيزَانٌ﴾ أي: تيقنوا في ذلك اليوم أنه لا مهرب لهم من العذاب، كما أخرج الطبري بسند حسن عن السدي قال: «استيقنوا أنه ليس لهم ملجأ».

أحكام وفوائد الآيتين:

- أن الله وحده هو عالم الغيب، فلا يعلم قيام الساعة إلا هو؛ لقوله-

تبارك وتعالى:- ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقَّتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]،
وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ [النازعات: ٤٤].

- سعة علم الله، وإحاطته بكل ما في الوجود؛ لقوله-ﷻ:- ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقوله-ﷻ:- ذكره:- ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].

﴿لَا يَسْتُمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ ٥٩ وَلَيْنَ أَدَقُّنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَيْنَ رُجْعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ٥٠ وَإِذَا أُنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأِجِبَانِيهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ٥١﴾.

بيان الآيات:

﴿لَا يَسْعَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ هذا بيان من الله عن حال الإنسان حين يؤمن بالله في الضراء، ويكفر به في السراء، إلا من وفقه الله وهداه، فأمن به في الشدة والرخاء، والمراد: أن الإنسان لا يمل سؤال الله، يريد منه الصحة والمال والولد، فيعطيه الله مراده.

﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ أي: إذا مسه البلاء أو المرض أو الفقر يئس من رحمة الله، فلم يعد يتعلق به، أو يرجو رحمته ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أي: إذا أصابه رزق بعد فقر، وصحة بعد مرض، وولد بعد يأس، كفر بما أوتي من عند الله، وجد فضل، فقال: هذا لي، أي: كنت أستحقه من الله.

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي: مع ذلك ينكر قيام الساعة، أو يشك في قيامها، ثم يقول: ﴿وَلَيْنَ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: إن حدث أن قامت الساعة فسوف يحسن إلي ربي في الآخرة كما أحسن إلي في الدنيا.

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ في هذا تهديد ووعد لهذا

الصف من الإنسان، والمراد: سوف نخبرهم يوم القيامة بعملهم المدون في صحائف أعمالهم.

﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: عذاب شديد

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَجَّجَانِيهِ﴾ المراد به

الإنسان الذي ذكر في أول الآية، وهو الذي يؤمن بالله عند الضراء، ويكفر به عند السراء، والمعنى: أننا إذا أفضلنا عليه بنعمة الصحة والمال والولد تولى عن شكرنا وعبادتنا، ونأى بجانبه مستكبراً ومتعالياً

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي: إذا أصابه بلاء أو فقر ﴿فَذُو دُعَاءٍ

عَرِيضٍ﴾ أي: يرجع إلينا متضرعاً ومبتهلاً ومستمرّاً في الدعاء، يرجو كشف ضره وبلائه.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير صفات الإنسان، خاصة من فقد الإيمان في نفسه، فأصبح لا يفكر إلا في منفعه وذاتيته الدنيوية، فيشكر خالقه عند الضراء، ويكفر به عند السراء.

- أن الله إذا كشف ضر هذا الصف من الإنسان، وأنعم عليه، وأزال بأسه، جحد نعمته، وزعم أن ذلك بسبب قربيه منه.

- تحريم اليأس والقنوط من رحمة الله؛ لقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِئُسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

- تحريم الكفر بنعم الله؛ لأن ذلك مدعاة لزوالها؛ لقوله -تعالى-: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وقوله: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١].

- أنه في الآية (٥١) إخبار مستقبلي عن حال الإنسان ضعيف الإيمان مع ربه في الرخاء والشدة، فإنه إذا أنعم عليه الله بصحة أو رزق أو غيرهما أعرض، وترفع عن الانقياد إلى الحق، وإن أصابه ضر فهو ذو دعاء كثير بأن يكشف الله ضره، فهو يعرف ربه في الشدة، ولا يعرفه في الرخاء.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۖ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ أي: قل يا

نبينا محمدًا لهؤلاء الذين يكذبون بالقرآن: إن كان هذا القرآن منزلًا من عند الله بلا شك، ثم كفرتم به .

﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: لا أحد حينئذٍ أكثر

منكم كفرًا بالله وبرسوله؛ لأنكم عرفتم الحق من الباطل، ثم أعرضتم عنه، فأنتم بعملكم هذا أضل الناس وأشقاهم.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ المراد: أن هؤلاء المشركين إذا

استمروا على شركهم وجحودهم لآياتنا، ومنها: ما نزلناه من الكتاب على رسولنا، فسوف نريهم آياتنا في الآفاق، وفي هذا بشارة لرسول الله - ﷺ -، وإعلام له أن رسالته ستظهر في الآفاق في الوقت والأجل الذي حدده الله، وقد حدث هذا حين انتشر الإسلام في جزيرة العرب، ثم ما حولها، إلى أن دخل أكثر بلاد العالم، فما من بلد إلا وفيه عدد من المسلمين.

قوله: ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: رأى المشركون هذه الآيات عيانًا في

موقعة بدر، وما تجلّى فيها من النصر، فقتل فيها أكابر الكفار

وصناديدهم كأبي جهل، ومنهم من عايشها زمناً حين نجا من القتل كأبي سفيان وغيره، كما شاهد المشركون ظهور هذه الآيات في فتح مكة التي أخرجوا منها رسول الله ﷺ، ثم رأوه يحطم أصنامهم في الكعبة، فعرفوا آيات الله، وأن دينه هو الدين الحق، كما قال -ﷺ-: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

قوله: ﴿أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: كفى به شاهداً على صدق رسوله محمد -ﷺ-، وهذه أعظم شهادة؛ لأنها صدرت من خالق الخلق ومدبرهم ومصرفهم، فهل يطلب هؤلاء المشركون أكثر من هذه الشهادة؟.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ هذا بيان من الله أن هؤلاء المشركين يشكون في البعث، وقيام الساعة، والحساب والجزاء ﴿أَلَا إِنََّّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ أي: يحيط بعلمه وقدرته سائر المخلوقات، فيعلم علانيتهم وسرائرهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بأنه لا أحد أضل ممن يكذب بالقرآن.
- أن الله يظهر لخلقه آياته الدالة على عظمته وقدرته، وقد أظهر ذلك

للمشركين حين رأوا دين الله يظهر على الدين كله، ويدخل فيه الناس أفواجًا، كما أظهر لهم آياته الدالة على صدق نبوة ورسالة رسوله محمد -ﷺ- حين انتصر على قوى الشرك والوثنية في معركة بدر، وفي فتح مكة، وفي الفتوحات التي تتابعت في أنحاء المعمورة.

- الحذر من المخالفة، وهذه فائدة تربويّة تؤخذ من قوله: ﴿أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فإذا علمت أن الله شهيد على كل شيء، على نفسك وأفعالك وأقوالك، فإنك سوف تراقب الله -ﻋَظِيمٌ-.

- الحكم بأن الله كما أظهر آياته لنبيه والمؤمنين سيظهر آياته في الآفاق عاجلاً أو آجلاً، حتى يعلم البشر أن دين الإسلام هو الدين الحق، وما يحدث اليوم من محاصرة لدين الله، وتكالب القوى المعادية له دليل على أنه بداية لانتشاره بين الأمم، كما يبدو اليوم واضحاً في عدد الذين يدخلون فيه، خاصة في أشد المواقع عداوة له ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[يوسف: ٢١].



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الشورى

مكية، وآياتها ثلاث وخمسون آية

﴿حَمَّ ١﴾ عَسَقَ ٢ ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ
 اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ
 الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ٤ ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ
 يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنَّ اللَّهَ هُوَ
 الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِیْظٌ
 عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ٦﴾ .

بيان الآيات:

﴿حَمَّ ١﴾ عَسَقَ ٢ ﴿هذه من الحروف المقطعة، والله أعلم بمراده

منها.

﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: كما أوحى الله

إليك يا نبينا محمداً، فأنزل عليك القرآن، أوحى إلى الرسل من قبلك

بالكتب والدلائل التي بلغوها إلى أقوامهم ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ﴾ العزيز في

ملكوته ﴿الْحَكِيمُ﴾ في تدبيره وتصريفه لخلقه.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كل من في السماوات والأرض عبيده، وتحت تصرفه ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ أي: العلي في ملكوته، العظيم في ذاته، وفي أسمائه وصفاته ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ أي: يتشققن من فوقهن قطعاً قطعاً من عظمة الرب -جلّ وعلا-.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: يمجّدونه ويعظمونه ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يطلبون من ربهم المغفرة للمؤمنين، والتجاوز عن خطيئاتهم، كما ثبت عن السدي في رواية الطبري ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ هذا تأكيد لعظمته -عزّ وجلّ- بأنه يغفر الذنوب لمن تاب من عباده، ويرحمهم، ويكفر عنهم سيئاتهم.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: شركاء يعبدونهم من دون الله ﴿اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: شهيد على أعمالهم، فيحصيها، ثم ينبئهم بها يوم القيامة، ويجازيهم عليها ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: ما أنت يا نبينا محمداً إلا نذير تنذرهم، وتحذرهم من العذاب.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الأنبياء يتشابهون في الوحي الذي أوحى الله به إليهم، وأساسه دعوة أقوامهم إلى توحيد الله، وطاعته، والبراءة من الشرك به.

- تقرير عظمة الرب-جلّ وعلا-، وأن السماوات تكاد تنشق من هذه العظمة.

- أن الملائكة يسبحون بحمد ربهم، ويستغفرون للمؤمنين من هذه الأمة، كما قال-ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر:٧].

- نعمة الله علينا أن سخر لنا الملائكة يستغفرون لنا؛ لأنّ الملائكة لولا أنّ الله سخرهم لنا ما استغفروا لنا، لكنّ الله سخرهم.

- تأكيد أنّ الله-ﷻ-غفور رحيم، وأكّد ذلك بثلاثة مؤكّدات: ﴿أَلَا﴾، و﴿إِنَّ﴾، و﴿هُوَ﴾.

- تقرير شهادة الله على المشركين، وإحصائه أعمالهم؛ لمجازاتهم يوم القيامة.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ

حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي
السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ
يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمْ اتَّخَذُوا
مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَكِيلُ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٩﴾ .

بيان الآيات:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: كما أوحينا إلى الرسل
من قبلك، فأنزلنا عليهم كتبًا وصحفًا، أوحينا إليك هذا القرآن بلسان
قومك عربيًّا، لا لبس فيه .

﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ المراد بها مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من البلدان،
والمراد: أن تخوفهم من عواقب الشرك بالله، وتكذيب آياته ﴿وَتُنذِرَ
يَوْمَ الْجُمُعِ﴾ أي: تنذرهم كذلك أهوال يوم القيامة، وأن النجاة في ذلك
اليوم لا تكون إلا لمن اتقى الله، فعبدته، ووحده.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك في ذلك اليوم، ففيه ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ
وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ أي: هما فريقان، فريق اتقى الله في الدنيا، وعمل
لهذا اليوم، فأدخله الله الجنة، وفريق فرط في الدنيا، فأشرك بالله،

وعصاه، وأعرض عن ذكره، فأدخله الله النار، فكل منهما جوزي بعمله.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: لو شاء لجعل الناس على هدى واحد، ولكن حكمته العلية اقتضت أن يكون من خلقه من هو مهتد، ومنهم من هو ضال ﴿وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي: يُدْخِلُ المهتدين في رحمته، فيجازيهم بإحسانه ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: ليس للمشركين يوم القيامة من ولي يواليهم، أو نصير ينصرهم، بل يلاقون سوء أعمالهم.

﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: لفرط جهلهم عبدوا غير الله؛ ليكونوا شفعاء لهم يوم القيامة، وما علموا أن هؤلاء الذين عبدوهم لن ينفعوهم بشيء ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ أي: هو الولي الذي لا ولي غيره، وكل ما عداه فولايته باطلة ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أي: هو القادر على إحياء الموتى وبعثهم ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير الوحي لرسول الله - ﷺ -، وتقرير فضل مكة بابتداء النذارة الإلهية لها، وفي حديث عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه

سمع رسول الله -ﷺ- يقول وهو واقف بالحزورة في سوق مكة: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إليّ، والله لولا أني أخرجت منك ما خرجت»^(١).

- أهمية معرفة اللغة العربية وتعلّمها، وجّه ذلك: أنّه إذا كان القرآن عربياً، وكنا مخاطبين به، ومُلزَمين بالعمل به، فإنّه لا يمكن الوصول إلى ذلك إلا بتعلّم اللغة العربية.

- تأكيد رسالة رسول الله -ﷺ- إلى سائر البلاد والأمم، كما قال- تعالى:- ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

- أنه في الآية (٨) إخبار مستقبليّ عن عاقبة الظالمين أنفسهم بالشرك يوم القيامة، فإنّهم ليس لهم وليّ يتولّى أمورهم، ولا نصير ينصرهم من عقاب الله-تعالى-.

- أن في الآية (٨) في قوله-تعالى:- ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ وفقاً نبويّاً، ينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وتفسير سورة الأنعام الآية (٦٥)، وقال النحاس: «ينبغي أن يقطع على

(١) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب، باب: في فضل مكة، (رقم ٣٩٥٢)، وابن ماجه في كتاب المناسك، باب: فضل مكة، (رقم ٣١٠٨)، وصححه الترمذي، وصححه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي.

الآية التي فيها ذكر الجنة والثواب، ويفصل ممّا بعدها، إن كان بعدها ذكر النار والعقاب، نحو: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ [سورة الشورى: ٨]، لا ينبغي أن يقول: ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾؛ لأنّه منقطع مما قبله، منصوب بإضمار فعل، أي: ويعذب الظالمين، أو: وأوعد الظالمين»^(١)

- أن الناس ليسوا أمة واحدة، فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون منهم مهتد، ومنهم ضال، فيشمل الله برحمته المهتدين، أما الظالمون فلا يجدون لهم ولياً يواليهم يوم القيامة، بسبب سوء أعمالهم.

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ .

(١) القطع والانتناف، (ص ٨٩).

بيان الآيات:

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: ما

اختلفتم فيه من أمر دينكم أو دنياكم وجب عليكم الرجوع فيه إلى كتاب الله، وسنة رسوله محمد-ﷺ-، فهما الحاكمان بالعدل لكل خلاف ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي﴾ أي: قل يا نبينا محمدًا للمشركين: إن ربي هو الحاكم العدل الذي لا معقب لحكمه.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: فوضت أمري إليه، وأرجع إليه في كل أمر يهمني.

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: جعل لكم بقدرته وحكمته أزواجًا تسكنون إليهنَّ، وتتناسلون جيلاً بعد جيل .

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أي: جعل لكم أزواجًا من الأنعام، تتناسل لأجل منافعكم الدنيوية، مما تأكلون من لحومها، وتشربون من ألبانها.

﴿يَذَرُوكُم فِيهِ﴾ أي: جعل لكم من نظام الذكورة والأنوثة مجالاً كبيراً للتناسل والتكاثر للإنسان والحيوان وغيرهما من المخلوقات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي: ليس

لخالق هذا النظام الإلهي العظيم مثل أو نظير، بل هو المتفرد به وحده، وهو السميع لخلقه في علانيتهم وسرهم، وهو البصير بما يدبرهم.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له خزائن السماوات والأرض، كما ثبت عن السدي في رواية الطبري ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يوسع على من يشاء من عباده في الرزق امتحاناً له، وما إذا كان يشكر ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيق على من يشاء من عباده امتحاناً له كذلك، وما إذا كان يصبر ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: عالم ومحيط بكل ما في الوجود.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن كتاب الله وسنة رسوله محمد - ﷺ - هما الحاكمان لأي خلاف ديني أو دنيوي؛ لقوله - تعالى -: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، ولما كان الكتاب والسنة هما الحاكمين، فإن من مقاصدهما قبول ما تتفق عليه الأمة، وتجمع عليه؛ لقول رسول الله - ﷺ -: «فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن»^(١).

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، (٦/ ٨٤)، (رقم ٣٦٠٠)، وحسنه الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة، (رقم ٩٠).

- وجوب التوكل على الله في كل أمر؛ لقوله -عجل-: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

- تقرير فضل الله على خلقه، حيث أوجد لهم نظام التزاوج لمنافعهم منه.

- تقرير قاعدة عظيمة، هي أن الله ليس كمثله شيء، فهو وحده المتفرد بصفات الكمال والعظمة، له خزائن السماوات والأرض، كبيرها وصغيرها، وظاهرها وباطنها، فتقدست أسماؤه وصفاته.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ .

بيان الآيتين:

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ ﴿﴾ المخاطب رسول الله وأُمته، والمراد: أنه شرع لهم ما وصَّى به نوحًا؛ لأنه أول الرسل بعد آدم، وهو ما أوحى الله به إلى نبيه ورسوله محمد - ﷺ -.

﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ أي: هو-أيضًا-ما وصَّى به هؤلاء الرسل المعروفين بأولي العزم، فالدين المراد هنا هو دين الإسلام، وأصله عبادة الله وحده، لا شريك له في ربوبيته، ولا في ألوهيته ولا في أسمائه أو صفاته، وقد امتنَّ الله به على عباده؛ ليخرجهم به من الظلمات إلى النور، وينقذهم به من الضلالة؛ لتكون لهم الحسنى والسعادة في الدارين، والأنبياء وإن اختلفوا في أزمنتهم وأمكناتهم وشرائعهم فدين الإسلام يجمعهم؛ لأنهم كما قال رسول الله - ﷺ -: «الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد»^(١).

﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ هذا أمر من الله للأنبياء أن يقيموا شعائر هذا الدين، ويأمرُوا أقوامهم به، ويدعوهم إليه، وألا يتفرقوا فيه؛ لأنه دين يجمع الناس على طاعة الله، وينهاهم عن الشرك

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب: قوله-تعالى-: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾، (رقم ٣٤٤٣)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب: فضائل عيسى، (رقم ٢٣٦٥).

به رافة ورحمة بهم من عذابه.

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: صعب عليهم ما

تدعوهم إليه من عبادة الله وطاعته، وذلك بسبب قسوة قلوبهم.

﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ أي: يختار

من يشاء للإيمان به، ويهدي لهذا الإيمان من يرجع إليه يطلب هدايته وتوفيقه؛ لأن الهداية والتوفيق لا يكونان إلا لمن تعلق قلبه بالله، فيوفقه لهذه الهداية.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: ما

تفرق المشركون وزاغوا عن الحق إلا من بعد ما جاءتهم البينات والبراهين، وما حملهم على ذلك إلا البغي والطغيان .

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾

أي: لولا أن حكمة الله اقتضت أن يؤجل العذاب إلى أجله المسمى يوم القيامة لعجل لهم العقوبة في الدنيا .

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْرِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ﴾

قد يكون المراد اليهود الذين خلفوا سلفهم الأولين، فشكوا في التوراة والإنجيل وفي القرآن.

أحكام وفوائد الآيتين:

- أن دين الله واحد، وهو عبادة الله وحده، لا شريك له، كما قال -ﷻ-
: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

- تحريم الاختلاف في الدين؛ لما يؤدي إليه من الفساد والضياع، ولهذا أكد الله على وحدة هذه الأمة بقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، كما نهاها عن الفرقة بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

- عصمة الله-تبارك وتعالى-: ﴿مَنْ يُنِيبْ﴾ من البدع والمخالفات؛ لقوله: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾.

- أن سبب التفرق والاختلاف هو البغي والطغيان، والبعد عن الله، والإعراض عن ذكره، فهذا كله مما يؤدي إلى قسوة القلوب، وضعف النفوس، وسوء الخلق.

﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا

وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ^ط
 اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾.

بيان الآية:

﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ^ط﴾ أي: ادع إلى هذا الدين الذي وصينا به جميع
 المرسلين من قبلك، وأوحينا إليك به، وهو عبادة الله وحده، لا إله إلا
 هو، لا شريك له .

﴿وَأَسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ^ط﴾ أي: استقم أنت ومن آمن بك على ما أمرك
 الله به من عبادته وتوحيده.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ^ط﴾ أي: لا تتبع أهواء المشركين وغيرهم من أهل
 الكتاب، ولا تلتفت إلى ما يقولونه، فأنت على الحق المبين ﴿وَقُلْ
 ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ^ط﴾ أي: قل لهم: إني مؤمن ومصدق
 بما أنزل الله من الكتب على الأنبياء من قبلي ﴿وَأُمرْتُ لِأَعْدِلَ
 بَيْنَكُمْ^ط﴾ أي: سوف أحكم بينكم بالعدل فيما تحتكمون فيهن
 وأخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال: «أمر نبي الله ﷺ -أن
 يعدل، فعدل حتى مات- صلوات الله وسلامه عليه-، والعدل ميزان الله
 في الأرض، به يأخذ للمظلوم من الظالم».

﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: نؤمن بأنه ربنا وخالقنا، ونحن نعبده حق عبادته، ونطيعه حق طاعته، ولا نشرك معه أحدًا في عبادته، فإن آمنتم فنفع إيمانكم يعود عليكم، وإن توليتم فالله غني عنكم، أنتم الأخسرون يوم القيامة .

﴿لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ أي: لنا جزاء أعمالنا التي نعملها، ولكم جزاء أعمالكم التي تعملونها، وسوف يجزي الله كلًّا منا حسب عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: لن يكون بيننا وبينكم أيها المشركون وأهل الكتاب جدال أو خصومة، فالدين واضح، لا لبس فيه ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ أي: سوف يجمع الله بيننا وبينكم يوم القيامة، ويحكم بيننا بالعدل، فيحكم لأهل الحق بالسعادة، ويحكم لأهل الباطل بالشقاوة ﴿وَالِيهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: إليه المرجع والمآب.

أحكام وفوائد الآية:

في هذه الآية أمر الله رسوله بثمانية أوامر، هي:

- أولًا: الدعوة إلى دين الله، وقد قام-عليه الصلاة والسلام-بالدعوة خير قيام إلى أن لحق بالرفيق الأعلى، وقد أشهد الله، وأشهد من كان معه يوم النحر في حجة الوداع أنه قام بهذه الدعوة، وبلغها بقوله:

«اللهم هل بلغت؟، اللهم اشهد» قالها ثلاثاً^(١)، وبوفاته-عليه الصلاة والسلام-انتقل واجب الدعوة إلى أمته كلها، فإن قامت بما يجب عليها، وإلا أثمت.

- ثانياً: الاستقامة على الدين الذي أمر الله به، وقد فعل-عليه الصلاة والسلام-فعبد الله حق عبادته، وجاهد في الله حق جهاده.

- ثالثاً: عدم اتباع أهواء المشركين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى.

- رابعاً: الإيمان بالكتب المنزلة على الأنبياء والمرسلين، وهذا الإيمان

جزء من دين الإسلام الذي أرسل الله به رسوله، كما قال-تعالى:-

﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ
وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ
مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

- خامساً: العدل بين الناس، وكان رسول الله -ﷺ- أعدل الناس،

وأنصفهم من نفسه، ولما قال له رجل: يا محمد اعدل، قال: «ويلك!

ومن يعدل إذا لم أكن أعدل؟، لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل»،

فقال عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-: دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق،

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب: الخطبة أيام منى، (رقم ١٧٣٩).

فقال: «معاذ الله أن يتحدث الناس أنني أقتل أصحابي، إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية»^(١).

- سادساً: إبلاغ المشركين وأهل الكتاب بإقراره بربوبية الله اختياراً وطوعاً، وأنه لا إله إلا هو.

- سابعاً: التبرؤ من عمل المشركين بقوله: ﴿لَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾.

- ثامناً: انتفاء الخصومة والجدل مع المشركين وأهل الكتاب؛ وذلك لأن الدين واضح ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، وفي هذه الآية تقرير الاجتماع يوم القيامة للفصل؛ لقوله-تعالى-: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾.

- تثبيت الله-تبارك وتعالى-لنبيّه-ﷺ؛ لأنّ مثل هذه الأوامر والنواهي تؤيّد، وتثبتّه، وتقوّيه.

- تقرير أن المصير إلى الله.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا أُسْتُجِيبَ لَهُمْ حُجَّتُهُمْ

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، (رقم ٣٦١٠)، ومسلم في

كتاب الزكاة، باب: إعطاء المؤلفه قلوبهم على الإسلام، (رقم ١٠٥٩).

دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ .

بيان الآية:

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا أُسْتُجِبَ لَهُ﴾ المراد

بهم: المشركون وأهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين كانوا يجادلون المؤمنين الذين استجابوا لدعوة رسول الله، ويقولون لهم: ديننا أفضل من دينكم، وذلك ابتغاء صدهم عن دين الله، وقد وصف الله حجتهم بأنها باطلة بقوله: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، ثم توعدهم بقوله: ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: عليهم غضب من الله ونقمة، ولهم عذاب أليم بما كانوا يفعلون.

أحكام وفوائد الآية:

- وجوب ترك الخصام مع أهل الكتاب ومن على شاكلتهم إذا كان لا يؤدي إلى اقتناعهم بدين الإسلام، أما إذا كان الجدل المبني على الموعظة الحسنة يؤدي إلى إقناعهم فيكون من باب الدعوة إلى الله؛ لقوله-تعالى:- ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ

السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۚ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ .

بيان الآيتين:

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ أي: أنزل القرآن على نبيه ورسوله؛ ليكون رحمة لأُمته، فيسود العدل بينهم، ويحق الحق بينهم، ويبطل الباطل الذي يتربص بهم، فيكون المرجع في حكمهم كتاب الله وسنة رسوله ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أي: ما يدريك يا نبينا محمداً أن الساعة تقترب من موعدها؟.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أي: لا يصدقون بها، ويتساءلون في استهزاء وتكذيب عن موعد قيامها ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أي: خائفون من قيامها؛ لأنهم يعلمون ما في ذلك اليوم من الأهوال والحساب والجزاء، فهم رغم إيمانهم وتعلقهم بمحبة الله يخشون من عدم قبول أعمالهم، فهم مع رجائهم في ربهم يخشون عقابه.

﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي: إن

الذين يجادلون في قيامها، ويشكون فيه لفي ضلال وسفاهة؛ لأنهم لو كانوا يعقلون لعلموا أن الذي خلق الخلق وأماتهم قادر على إحيائهم وعودتهم إليه؛ ليحاسبهم على أعمالهم.

أحكام وفوائد الآيتين:

- أن الله أنزل القرآن حتى يسود العدل بين الناس، ويحق الحق بينهم، وينتفي الباطل عنهم، كما قال-تعالى:- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

- أن النبي ﷺ لا يعلم متى تقوم الساعة؛ لقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي: وما يُعلمك؟، وهذا حق ثابت، فإن جبريل -عليه السلام- سأل النبي ﷺ -قال: أخبرني عن الساعة؟، فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»^(١).

- تقرير قرب الساعة في الأجل الذي حدده الله، ولا يعلمه إلا هو.

- قال الشيخ ابن عثيمين: «إثبات القياس؛ لقوله:

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ -عن الإيمان، (رقم ٥٠)، وصحيح مسلم، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، (رقم ٩).

﴿وَالْمِيزَانُ﴾ لَأَنَّ المِيزَانَ مَا تُوزَنُ بِهِ الْأَشْيَاءُ، وَيُقَارَنُ بَيْنَهَا،

ففيه إثبات القياس في الشرائع السماوية...، واعلم أَنَّ كُلَّ مَثَلٍ ضَرَبَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ مُثَبِّتٌ لِلْقِيَاسِ؛ لَأَنَّ الْمَقْصُودَ بِهِ قِيَاسُ هَذِهِ الْحَالِ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، قَالَ-تعالى-: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾

[يونس: ٢٤]، عندنا هنا مشبّه ومشبّه به، والتشبيه يقتضي الموازنة،

وإلحاق المشبّه بالمشبّه به، وهذا تماماً هو القياس»^(١).

- أن المؤمنين يخشون قيامها؛ لأنهم لا يدرون عن مآلهم رغم قوة رجائهم في الله، وتعلقهم بمحبته، ووعده لهم بالمغفرة، أما الذين لا يؤمنون بها لجهلهم وضلالهم، فسيحل بهم غضب الله ونقمته.

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٦﴾ مَنْ

كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ

الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿١٧﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ هذا بيان من الله أنه لطيف رحيم

(١) تفسير القرآن الكريم، (٩/٤٧٧).

بعباده، يتساوى في ذلك برهم وفاجرهم؛ ذلك أنه -وَعَلَى- لا يؤاخذهم في الحال بما كسبت أيديهم، بل ينتظرهم، لعلهم يتوبون ويرجعون إليه، فيتوب عليهم، أو يجازيهم يوم القيامة بعد قيام الحجة عليهم.

﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يوسع الرزق لمن يشاء من عباده، ويضيق على من يشاء منهم، وهذا لا يدل على الرضا عن هذا، أو السخط على ذاك، وإنما هي حكمة الله، وهو أعلم بعباده ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ أي: أنه في حكمته وإرادته وتصرفه قوي بعظمته، عزيز في ملكوته.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ أي: من كان همه الآخرة، والعمل لها، والشوق إلى لقاء الله يعينه الله، ويوفقه لزيادة حسناته، ويضاعف الله له هذه الحسنات، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف.

﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ أي: من كانت الدنيا همه وغايته، ولا هم ولا غاية له في الآخرة، يعطيه الله من الدنيا ما كتب له، وليس له في الآخرة من حظ بسبب عدم عمله لها، وهذه الآية هاهنا مقيدة بالآية التي في (سبحان)، وهي قوله -تعالى-: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ

فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ [الإسراء: ١٨]، وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: «تلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ^ط وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَّصِيبٍ﴾»، ثم قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «يقول الله -عز وجل-: ابْنِ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمَلًا صَدْرَكَ غَنَى، وَأَسَدُّ فَقْرَكَ، وَإِلَّا تَفَعَّلْ مَلَأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا، وَلَمْ أَسَدِّ فَقْرَكَ»^(١).

أحكام وفوائد الآيتين:

- أن الله لطيف بعباده، يرزق برهم وفاجرهم، وهذا من عظمتة ورحمته بخلقه، رغم أن منهم من يكفر به، ويكذب رسالته، لكن حكمته اقتضت أن يمهل العاصي من عباده، لعله يتوب ويرجع إليه.

- أن الجزاء من جنس العمل، فمن يعمل للآخرة يزيد الله في عمله، فيضاعف له الحسنات، ومن كان يريد الدنيا يؤته الله ما قدره له منها، ويخسر حظه في الآخرة.

(١) أخرجه الترمذي في السنن، (رقم ٢٤٦٦)، وقال: «حسن غريب»، وابن حبان في صحيحه، (١١٩/٢)، وأخرجه الحاكم من رواية معقل بن يسار بنحوه، وصححه، ووافقه الذهبي، المستدرک، (٣٢٦/٤)، ووافقهما الألباني في (السلسلة الصحيحة، رقم ٩٥٠).

- أن الآية (٢٠) مقيدة بالآية: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨]؛ لأنَّ مَنْ أَرَادَ حَرْثَ الدُّنْيَا فَإِنَّهُ لَا يُعْطَى كُلَّ مَا أَرَادَ.

- أنه في الآية (٢٠) إخبار مستقبلي عن جزاء مَنْ أَرَادَ بِعَمَلِهِ الْآخِرَةَ أَوْ الدُّنْيَا، فَمَنْ أَرَادَ بِعَمَلِهِ ثَوَابَ الْآخِرَةِ، فَأَدَّى حَقَّقَ اللَّهَ، وَأَنْفَقَ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الدِّينِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَزِيدُ لَهُ فِي عَمَلِهِ الْحَسَنَ، فَيُضَاعَفُ لَهُ ثَوَابُ الْحَسَنَةِ إِلَى عَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ الزِّيَادَةِ، وَمَنْ أَرَادَ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا وَحْدَهَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْهَا مَا قَسَمَهُ لَهُ، وَلَيْسَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ شَيْءٌ مِنَ الثَّوَابِ.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢١)
تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ

فِي الْقُرْبَىٰ ۖ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ .

بيان الآيات:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾

هذا استفهام إنكاري، وتوبيخ وتقريع لكفار قريش؛ لأنهم اتبعوا ما شرعته لهم الشياطين من أحكام لم يأذن بها الله، فحرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام .

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لولا أن حكمة الله قد

اقتضت تأجيل العقوبة لهم إلى يوم القيامة لحل بهم العذاب والهلاك

﴿وَأَنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: لهم عذاب شديد يوم

القيامة.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي: ترى المشركين

وسائر الظلمة خائفين يوم القيامة من العذاب، بسبب سوء أعمالهم في الدنيا ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي: هذا العذاب واقع بهم لا محالة.

لما بين الله سوء عاقبة الظلمة وحالهم يوم القيامة قال: ﴿وَالَّذِينَ

ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ

عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴿١٥٠﴾ المراد بهم: الذين آمنوا بالله حقًا وصدقًا، واستقاموا على إيمانهم، فكانت الآخرة غاية مطلبهم، فعملوا الأعمال الصالحة، فهؤلاء لهم كامل المتع في الجنة، لهم فيها ما يشاؤون.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي: هذا هو الفوز الذي أنعم الله به عليهم رحمة منه، وجزاء على أعمالهم الصالحة.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: هذا الذي ذكر الله للمؤمنين من النعيم في الجنة هو الذي يبشر به عباده الصالحين، حيث تبشرهم الملائكة عند قبض أرواحهم، ويوم بعثهم، ويوم عرضهم.

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي: قل يا نبينا محمدًا للمشركين: إني لا أسألكم أجرًا على إبلاغي لكم رسالة الله، وإنما هو النصيح لكم بحكم القرابة بيني وبينكم، فلا تؤذوني، ولا تؤذوا أصحابي، واتركوني وشأني في إبلاغ ما أمرني الله بإبلاغه للناس، وأخرج البخاري بسنده عن ابن عباس-رضي الله عنهما- أنه سئل عن قوله: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ فقال سعيد بن جبیر: «قربى آل محمد-ﷺ-، فقال ابن عباس: عجلت، إن النبي-ﷺ- لم يكن بطنٌ من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: «إلا أن تصلوا ما

بيني وبينكم من القرابة»^(١).

﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: من يكسب حسنة نزد له حسنا، أي: نضاعفه له ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: يغفر الكثير من الخطايا والذنوب، ويشكر الصالحين من عباده.

أحكام وفوائد الآيات:

- تحريم كل حكم أو شرع لم يشرعه الله، وهذا يقتضي أن كل القواعد والقوانين التي تخالف شرع الله تعد محرمة وباطلة، ولا حجة لمن يقول: إن الناس قد رضوا بهذه القواعد والقوانين؛ ذلك أن الناس لا يشرعون لأنفسهم، وإنما الذي شرع لهم هو الله، وهذا التشريع واضح في كتابه وفي سنة رسوله محمد - ﷺ -، فمن منع حجاب المرأة مثلاً فقد خالف شرع الله، ومن أبطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد خالف شرع الله، وفي مخالفة شرعه محاربة له.

- تقرير خوف الظلمة يوم القيامة من عاقبة أعمالهم في الدنيا؛ لما يرونه من العذاب الذي يحيط بهم.

- تقرير حق القرابة؛ إذ إن قرابة المرء أحق ببره في غير معصية الله،

(١) صحيح البخاري، (٤٢٦/٨)، كتاب التفسير، سورة الشورى، باب الآية، (رقم ٤٨١٨).

وفي هذا قال الله-تعالى:- ﴿وَعَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾
[الإسراء:٢٦].

- أن في الآية (٢٢) عند قوله-تعالى:- ﴿وَهُوَ وَاَقِمْ بِهِمْ﴾ وقفًا
نبويًا، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام
الآية (٦٥).

- أنه في الآية (٢٣) إخبار مستقبلي، وبشارة لعباد الله المؤمنين
بالنعيم والكرامة في الآخرة، وفيها إخبار مستقبلي آخر عن جزاء
مَنْ يكتسب حسنة، فَإِنَّ الله يضاعفها له بعشر فصاعداً.

- تقرير مضاعفة الحسنات، كما قال-تعالى:- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا
عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠].

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشِئِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ
وَيَمُحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ﴾ (٢٤).

بيان الآية:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: يقول المشركون: إن

محمدًا افترى على الله الكذب، فادعى أن القرآن من عنده، بينما هو من اختلاقه .

﴿فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يُخَيِّمَ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ بهذا يخاطب الله رسوله محمدًا-

ﷺ- قائلًا: إن قومك اتهموك بالكذب، فلا تلتفت إلى قولهم، فنحن نعرف كذبهم وأباطيلهم، ولو كنت كما قالوا لطبعنا على قلبك، فما استطعت أن تنسب إلينا كلاماً لم نقله.

﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ هذا كلام مبتدأ، والمراد: أن الله في كل

الأحوال يزيل الباطل، ويدحضه، وقد أبطل عمل المشركين وعبادتهم للأصنام، كما بيّنه بقوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] ﴿وَيُحِقُّ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ﴾

وكما أبطل الله عمل المشركين فإنه يحق الحق بكلماته التي أنزلها في القرآن، وقد تحقق كل ذلك لرسول الله -ﷺ-، فكسر الأصنام، فكان كلما كسر صنماً قال: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾^(١)، ولما زهق الباطل انتشر الحق في جزيرة العرب وما جاورها، ثم امتد إلى سائر بلاد العالم، فقررت عين رسول الله -ﷺ- في

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾، (رقم ٤٧٢٠)، ومسلم في كتاب الجهاد، باب: إزالة الأصنام من حول الكعبة، (رقم ١٧٨١).

حياته ومماته.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: يعلم بواطن وخفايا خلقه،

وما ينفعهم وما يضرهم، وفي كتابه الكريم بين لهم الباطل، وأوجب عليهم اجتنابه، وبين لهم الحق، وأمرهم باتباعه.

أحكام وفوائد الآية:

- أن الله قد برأ رسوله من الكذب، وأن القرآن الذي بلغه هو كلام الله المنزل من اللوح المحفوظ، فلم يتقوله، بل نقله وبلغه، كما أنزل عليه كما قال-تعالى:- ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٦﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

- أن الله بنزول القرآن أبطل الباطل في كل صورته، من عبادة الأوثان، أو الظلم والطغيان، وأحقَّ الحق أي: بين للعباد ما يجب عليهم من عبادة الله وحده.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٤٩﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ؕ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٥٠﴾﴾ .

بيان الآيتين:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ أي: يتقبل توبتهم، ويفرح بها إذا تابوا وأنابوا إليه، وهذا من فضله وامتنانه عليهم ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: يتجاوز عنها ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: يعلم جميع سلوك عباده من قول أو فعل.

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: يستجيب دعاءهم وابتهالهم إليه ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ أي: وزيادة على قبول دعائهم يزيدهم من كرمه وفضله ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: ليس للكافرين إلا الندامة والخسران والعذاب الأليم.

أحكام وفوائد الآيتين:

- وجوب توبة العباد من ذنوبهم وخطيئاتهم وجوب عين على كل من ارتكب إثماً، أو عمل سوءاً، وفي حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- أن رسول الله -ﷺ- قال: «الله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم، كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من الفرحة: اللهم أنت عبي، وأنا ربك، أخطأ

من شدة الفرح»^(١).

- أنه في الآية (٢٥) إخبار مستقبلي عن تقبل الله توبة عباده إذا رجعوا إلى توحيدهم وطاعته، ويعفو عن سيئاتهم، وفيها إخبار مستقبلي آخر، وهو أن الله -عز وجل- يعلم ما يصنع عباده من خيرٍ وشرٍّ، في الماضي أو في الحاضر أو في المستقبل، لا يخفى عليه شيء من ذلك، وهو مجازيهم بها.
- أن كلَّ ما ينال الإنسان من خير فبفضل الله، وعلى هذا يجب على الإنسان أن يقطع عن نفسه الإعجاب والغرور.
- أن وعد الله - ووعده الحق - أنه يستجيب لعباده دعاءهم، ويزيدهم عليه.

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾.

بيان الآيتين:

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لو وسع عليهم في رزقهم أكثر مما يحتاجون إليه لطعامهم وشرابهم

(١) أخرجه مسلم في كتاب التوبة، باب: في الحظ على التوبة، والفرح بها، (رقم ٢٧٤٧).

وحاجاتهم لأدى ذلك بهم إلى الطغيان، ولعلا بعضهم على بعض في الأرض.

﴿وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أي: يعطيهم من الرزق ما ينفعهم، ولا يؤدي إلى بغيهم، وذلك لحكمته، فهو الخبير بخلقه، البصير بتصرفاتهم ونواياهم.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أي: ينزل المطر على عباده بعدما يصيبهم اليأس والضر، ويرى حاجتهم وأنعامهم إليه.

﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أي: وينزل المطر تنتشر رحمته على عباده، فيشربوا بعد ظمئهم، وتحيا أرضهم بعد موتها، فيرون حينئذ أنه لا ملجأ لهم ولا منقذ لهم ولا منعم عليهم إلا هو

﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: هو المتولي لأمر عباده، وقضاء حوائجهم، وهو المحمود على تدبيره وتصرفه فيهم.

أحكام وفوائد الآيتين:

- تقرير حكمة الله في تصريف الأرزاق بين عباده وتقديرها منعا لما يحصل منهم من البغي على بعضهم في حال بسط الرزق لهم، كما

قال- تعالى:- ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا فَاكِرٌ ﴿٦﴾ أَنْ رَّءَاهُ اسْتَغْنَى ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦-٧].

- أنه في الآية (٢٧) إخبار مستقبلي عن حال العباد فيما إذا بسط الله الرزق، ووسَّعه عليهم، فإنَّهم ييغون في الأرض أشراً وبطراً، ويطغى بعضهم على بعض، ولكن الله يُنزل أرزاقهم بقدر ما يشاء لكفائتهم.

- تقرير حقيقة كونية، هي أن الناس بدون المطر لا يقدرّون على العيش في حياتهم؛ ذلك أن الماء مصدر قوتهم، بل مصدر استمرارهم على الأرض، فأينما وجد الماء وجدت الحياة، وأينما فقد الماء فقدت الحياة، كما قال- تعالى:- ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فإذا امتنع نزوله عليهم قنطوا، وسئموا من حياتهم، وحينئذ يرحمهم الله، فينزل عليهم المطر، فتنتشر رحمته عليهم بنزوله.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٦٩﴾﴾.

بيان الآية:

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ﴾ أي: من آياته الدالة على عظمته وقدرته: ﴿خَلْقُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١﴾ أي: إبداعهما وتكوينهما بما لا يقدر عليه إلا هو ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ ﴿٢﴾ أي: ومن آياته العظيمة: ما وضعه فيهما من المخلوقات، من الملائكة والإنس والجن والحيوانات والطيور، وكل المخلوقات المتباينة في أشكالها ولغاتهما وأجناسها.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ ﴿٣﴾ أي: قادر إذا شاء على أن يجمع كل هذه المخلوقات يوم القيامة في صعيد واحد، لا يعزب عنه شيء من أحوالهم، فلا تشتبه عليه لغاتهم، ولا تلتبس عليه أقوالهم، بل هو القادر على كل ما يريد.

أحكام وفوائد الآية:

- أن من آيات الله الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه: خلق السماء والأرض، ونشر الدواب فيهما، من الملائكة والإنس والجن وغيرهم من العوالم الظاهرة والباطنة، وكل هذا بحكمته وإرادته، فما خلق الحشرة الصغيرة إلا لحكمة، وما خلق الكواسر من الحيوان والطيور إلا لحكمة، وما خلق النملة إلا لحكمة، فله الثناء على عظيم صنعه وحسن تدبيره في خلقه.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿٣١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ

وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣٦﴾

بيان الآيتين:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: ما يصيبكم من قحط أو بلاء في أنفسكم أو أموالكم أو أولادكم إلا بسبب ذنوبكم وخطيئاتكم، فالله لا يصيب عباده إلا بخير، ولكنهم هم الذين يتسببون بمعاصيهم فيما يصيبهم ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي: يعفو عن كثير من السيئات، فلا يعاقب عليها.

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لستم أيها الناس بمستعصين على قدرة الله، فلو شاء أخذكم أخذ عزيز مقتدر ﴿وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: ليس لكم من ملجأ أو ملاذ إلا إليه، فهو الذي يظلمكم برحمته، وهو الذي يتولاكم بولايته، وينصركم بنصره.

أحكام وفوائد الآيتين:

- الحكم بأنه ما يصيب الإنسان في نفسه أو ماله أو ولده إلا بسبب ذنوبه؛ لقول الله - ﷻ -: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وهذه ليست حقيقة إلهية فحسب، بل هي

حقيقة عقلية؛ ذلك أن من غير المعقول أن يعمل المرء عملاً سيئاً، ثم ينتظر جزاء حسناً عليه، ولهذا قال أحد السلف: إني لأرى أثر المعصية في نفسي ودابتي^(١)، وهذا يقتضي محاربة الذنوب بالتوبة والاستغفار .

- أنه في الآية (٣٠) إخبار مستقبلي بأن اكتساب الذنوب والآثام يوقع المصائب في الدّين والدنيا، مع أن الله -ﷻ- يعفو عن كثير من السيئات، فلا يؤاخذ عباده بها.
- أنه لا ملاذ ولا ملجأ لأحد إلا إلى الله، فمن لاذ به، ولجأ إليه تولاها؛ لأنه يتولى عباده المؤمنين بولايته، وينصرهم بنصره.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِنَا مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾ .

بيان الآيات:

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ أي: ومن آيات الله

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن قيم الجوزية، (ص ٣٥) .

الدالة على عظمته وقدرته: تذليل البحر، وتسخيره بما فيه من الأهوال والشدائد؛ لتجري فيه السفن كالجبال ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ أي: إن يشأ يوقف الريح التي تسير السفن .

﴿فَيَظْلِلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ أي: تبقى راكدة على ظهر البحر دون حركة، فتتعطل بذلك منافع أهلها، وأخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال: «سفن هذا البحر تجري بالريح، فإذا أمسكت عنها الريح ركدت».

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: في قدرة الله وتسيير الريح للسفن دلالة للذي يصبر على الشدائد، ومنها: شدائد البحر وأهواله، وهو شكور لله في الرخاء، سواء في البحر حين تسير فيه السفن دون عائق، أو شكور لله في كل حال.

﴿أَوْ يُوبِقْهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: لو شاء الله لأغرق السفن بسبب الذنوب التي يرتكبها أهلها ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي: يعفو عن الكثير من ذنوب عباده؛ لأنه لو أخذهم بذنوبهم لأهلكهم، وأغرقهم في البحر، وهذا كقوله-تعالى-: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ﴾ أي: يعلم

بعلمه الواسع أولئك الذين يجادلون في آياته، ويكذبون بها، وهؤلاء ما لهم من مهرب من العذاب.

أحكام وفوائد الآيات:

- بيان قدرة الله في تسيير السفن في البحر رغم أهواله وأمواجه، سواء كانت هذه السفن تسير بدفع الهواء أم بغيره، كما هو الحال في السفن التي تسير بالدفع الآلي؛ إذ إن الله سخر البحر لتجري عليه السفن كبيرة كانت أم صغيرة، أم كانت تسير وفق أي نظام، فلولا قدرته ومشيئته لما استطاعت هذه السفن أن تجتاز البحار والمحيطات بسلام وأمان.

- توصل العلم الحديث إلى:

- أ- أن السفن تبقى ساكنة، ما لم تؤثر فيها قوة تحركها.
- ب- أن للسفن قسماً مغموراً في الماء لا نراه، يُؤمّن لها التوازن، ويحفظها من الغرق.
- ج- تسخير مياه البحار والأنهار، وجعلها ذات كثافات مناسبة؛ لتحمل على ظهرها السفن.

د- استخدام الخشب لصناعة السفن؛ لأنه أخفُّ من الماء، ومسامير لتثبيت الألواح الخشبية ذات السطح الكبير، ممّا

يزيد من القوة الضاغطة، ويمنع تَسْرُبَ الماء إلى داخلها^(١).

- الحث على الصبر في الشدائد والنوائب، والشكر لله -عز وجل- في كل الأحوال.

- تحريم الجدل في آيات الله بما يحرفها عن حقائقها ومقاصدها.

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَحْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ .

بيان الآيات:

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: أن ما تُؤْتونه

في هذه الحياة من مال وولد وجاه ما هو إلا متاع من متاع الحياة الدنيا، وهو متاع زائل لا محالة ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي:

ما تعملونه للحياة الأخرى من الأعمال الصالحة هو الذي فيه لكم خير وأبقى لكم يوم تعرضون على الله.

(١) (<http://quran-m.com/container2.php?fun=artview&id=556>).

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ما عند الله خير وأبقى للمؤمنين الذين عملوا الصالحات، فلم تلههم متع الحياة الدنيا عن الإيمان ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: هذا الخير هو-أيضاً-للذين يتوكلون على ربهم في السراء والضراء، فلا ينظرون إلا إليه، ولا يعتمدون إلا عليه.

﴿وَالَّذِينَ يَحْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾ أي: ومن هؤلاء المؤمنين الذين أعد لهم الله الخير في الآخرة: الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، كالزنا والخمر وسائر المحرمات ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: يصفحون ويعفون عن سيئ إليهم ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: اتبعوا ما أمرهم به، وانتهوا عما نهاهم عنه.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أدّوها حسب أركانها وشروطها ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: أن من سجيبتهم التشاور بينهم في أمورهم، فلا ينفرد أحد منهم برأيه، أو يتصرف حسب إرادته، بل هم شركاء في المشورة وفي التعاون بالرأي.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: يؤدون زكاة أموالهم، ويبدلون الصدقات لأقاربهم وللفقراء من المسلمين ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أي: يتعاونون في رد الظلم والطغيان إذا تعرضوا له، فهم وإن كانوا يعفون ويصفحون عن سيئ إليهم، إلا

أنهم أقوياء في الحق، ورد الظلم، والانتقام ممن يتعرض لدينهم أو بلادهم أو أعراضهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الحياة الدنيا مجرد متع زائلة، وأن الحياة الأخرى هي الأصل؛ لأنها المقام الدائم.

- أنه في الآية (٣٦) إخبار مستقبليّ وبشارة للذين آمنوا بالله ورسله، وعلى ربّهم يتوكّلون بأنّ لهم عند الله-تعالى-نعيم الجنة المقيم.

- أهمية الشورى في علاج أنواع العنف، والقضاء على الفوضى السياسية والاجتماعية والاقتصادية؛ لأن الكل تحت قبة واحدة، ويجب أن يحافظ على هيبة الجماعة، ووحدة الكلمة، ونبذ الفرقة والشقاق.

- مسؤولية مجلس الشورى في الارتقاء بالمجتمع من خلال النتائج السديدة، والتوصيات الرشيدة ذات القرارات الحكيمة، والمخرجات الكريمة.

- تقرير الخير الذي أعده الله للمؤمنين، وتقرير الصفات التي يجب أن يتمتع بها المؤمنون، وهي الإيمان بالله-ﷻ، والتوكل عليه،

واجتناب الإثم والفواحش، والعفو والصفح عن الإساءة، والاستجابة لأوامر الله، والانتهاز عن نواهيه، وإقامة الصلاة، والتشاور في صلاح الأمة، وبذل الإحسان لأفرادها، ورد الظلم الذي تتعرض له في دينها أو مقدساتها أو أرضها أو أعراضها.

قلت: فهذه الصفات التي وصف الله بها عباده المؤمنين هي التي كان عليها سلف الأمة، وكان من نتائج اتصافهم وتمسكهم بها أن فتح الله لهم البلاد، وأورثهم الأرض، وجعل لهم السيادة فيها، وما كان الله ليصيب الأمة، وتتكالب عليها الأمم إلا إذا أعرضت عن أوامر الله، وانتهكت حرماته، وقعدت عن الدعوة إليه، واستكانت لأعدائها ومالاتهم فيما يدعون إليه.

- أنه يجب على مَنْ انتصر إذا أصابه البغي ألا يتجاوز الحد بالاستيفاء.

﴿وَجَزَّأُوا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَلَمَنِ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ ﴿٤٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۖ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٣﴾ وَلَمَنِ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ الْأُمُورِ ﴿٤٤﴾﴾

بيان الآيات:

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا^ط﴾ لما كانت الحسنة تجزى بمثلها وأكثر منها، فإن السيئة تجزى بالسيئة، فمن ظلم استحق جزاء ظلمه، ومن بغى استحق جزاء بغيه، وهكذا يقوم العدل بين الناس، وتنتظم أمورهم في حياتهم، هذا في حال الإساءة إلى الأمة، أما إذا أساء الفرد إلى آخر مثله فله الحق أن يقتص من المسيء إليه، أو يعفو عنه، وله في ذلك الأجر من الله، كما قال -ﷺ-: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: يبغض المعتدين، ويمقتهم.

﴿وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ﴾ أي: من انتصر لنفسه بعد ظلمه فلا جناح عليه؛ لأنه يقتص ممن ظلمه، وهذا هو ميزان العدل الذي وضعه الله.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: إنما الإثم على الذين يبدؤون بالعدوان على الناس، فيظلمونهم في أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم أو أولادهم دون وجه حق.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: هؤلاء لهم عذاب شديد ﴿وَلَمَنْ

صَبَرَ وَغَفَرَ ﴿١﴾ أي: صبر على ما يناله من أذى الناس، وغفر لهم أذاهم ﴿٢﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٣﴾ أي: من الأمور الحميدة التي حث الله عليها.

أحكام وفوائد الآيات:

- مشروعية القصاص من المعتدي؛ لقوله -ﷺ-: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦].

- أنه في الآية (٤٠) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ جزاء سيئة المسيء فيما إذا أساء فإنَّ عقوبته سيئة مثلها من غير زيادة، وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو جزاء مَنْ عفا عن المسيء، وترك عقابه، وأصلح الودَّ بينه وبين المعفو عنه ابتغاء وجه الله، فأجر ذلك العفو على الله.

- استحباب العفو عن الإساءة، ولكن هذا لا ينبغي أن يعطل المصالح العليا، ومن ذلك على سبيل المثال: التخلي عن القصاص الذي كتبه الله بقوله -عزَّ ذكره-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وقوله: ﴿وَلَكُمْ

فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

[البقرة: ١٧٩]، وما شرع الله هذا الشرع إلا وهو يعلم بحكمته أن ذلك يدرأ القتل، ويمنع المجرمين والقتلة من التعرض لحياة غيرهم، فالقاتل الذي تعمد قتل نفس بريئة إذا عرف أنه سيقتص منه بمثل فعله سوف يتوقف عن القتل، فإن عرف أنه سيدفع دية، أو يغفر له ولي المقتول فعلته، كان ذلك دافعاً له ولغيره لاستمراء القتل، ولا يعني هذا حجب حق الولي في أخذ الدية أو العفو عن القاتل، يبتغي بذلك الأجر من الله، بل المراد عدم التأثير على أولياء المقتول؛ لدفعهم للعفو، أو أخذ الدية ما لم يكن ذلك بإرادتهم الحرة، فيكون ذلك استثناء من الأصل، وهو القصاص، أما إذا تحول الأمر إلى العموم، فهذا مما ينافي حكم الله وحكمته في القصاص.

- أنه ليس على المظلوم إثم إذا اقتص ممن اعتدى عليه، وهذا وفق القواعد التي بينتها أحكام الشريعة، فمن تعرض للاعتداء، وليس له من حاكم يرد عنه الاعتداء، حُقَّ له رد الاعتداء، والقصاص من المعتدي، ومن كان له حاكم يردع الاعتداء عنه وجب ترك الأمر له، وهكذا مما هو مبين في الشريعة.

- وجوب رد الظلمة، ومعاقتهم حسب طبيعة جرائمهم.
- أن في الصبر على الإساءة أجراً عظيماً، ولكن - كما ذكر - لا يكون في ذلك تفريط للأحكام التي شرعها الله بحكمته وإرادته، وهي رد الظلم.

- أنه في الآية (٤٣) إخبار مستقبلي عن جزاء مَنْ صبر على الأذى وستر السيئة، فإن ذلك من عزائم الأمور المشكورة، والأفعال الحميدة التي أمر الله بها، ورَتَّبَ لها ثواباً جزيلاً، وثناء حميداً.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ ۖ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّنْ سَبِيلٍ ۖ وَتَرَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ۖ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ ۖ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ۖ﴾

بيان الآيات:

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ ۖ﴾ أي: إن من

يضله الله بسبب سوء عمله فلا يهديه أحد ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ أي: ترى الظالمين حينما يشاهدون هول العذاب يوم القيامة ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: يتمنون الرجوع إلى الدنيا؛ لكي يتوبوا، وهذا مستحيل عليهم؛ إذ إنه لا رجعة إلى الدنيا بعد الموت.

﴿وَتَرْتَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: يعرضون على النار ﴿خَشِيعَةً مِّنَ الدَّلِّ﴾ أي: اعتراهم الذل والصغار بسبب ندمهم وحسرتهم على تفريطهم في الدنيا ﴿يَنْظُرُونَ مِّن طَرَفٍ خَفِيٍّ﴾ أي: يسارقون النظر إلى النار، وهم في خوف وقشعريرة منها ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: يقول المؤمنون يوم القيامة: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: إن أعظم الخاسرين هم الذين أخذوا للعذاب، فخسروا أنفسهم بما يصيبهم منه، وخسروا أهليهم وأصحابهم ومعارفهم، حين افترقوا عنهم، فأصبحوا وحيدين في العذاب، ليس لهم من ولي يتولاهم، ولا من ناصر ينصرهم.

﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: إنهم في عذاب دائم، لا يزول، ولا يحول، ولا يتغير.

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: ليس

لهم شفعاء أو مناصرون ينقذونهم من العذاب ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: إن من أضله الله بسبب كفره فما له من منقذ ينقذه من العذاب.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن من يضلّه الله بسبب كفره لن يقدر أحد على توليه، كما قال-
﴿وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

- الإشارة إلى حسرة الظلمة وندامتهم يوم القيامة، وتساؤلهم عما إذا كان لهم عودة إلى الدنيا للتوبة، كما قال-﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ آلَتَارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨].

- أن أعظم الخاسرين يوم القيامة هو من خسر نفسه، فأخذ للعذاب، وفقد أهله وأصحابه ومعارفه يوم القيامة.

﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ

مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ
الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

بيان الآيتين:

﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ
اللَّهِ﴾ لما ذكر -ﷺ- الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة
بسبب ذنوبهم، وعدم توبتهم منها، أمر عباده أن يستجيبوا لنداء
ربهم، وذلك بطاعته، وتوحيده، وترك معاصيه من قبل أن يأتي يوم
القيامة، الذي لن يرده راد، ولن يمنعه مانع، وليس بعده رجوع إلى
الدنيا.

﴿مَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: ليس
لكم في هذا اليوم يوم القيامة ملجأ تلجؤون إليه، ولن يكون
بإمكانكم إنكار ذنوبكم فيه؛ لأنها محصاة عليكم في صحائف
أعمالكم، وأخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد، قوله: ﴿مَا
لَكُمْ مِّن مَّلْجَأٍ﴾ قال: «من محرز، وقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ مِّن
نَّكِيرٍ﴾ قال: ناصر ينصركم».

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أي: تولوا، فلم يستجيبوا لعبادة الله، وتوحيده،
والبراءة من الشرك به ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ أي: لم

ترسل إليهم لتكون وكيلاً عليهم ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ أي: عليك يا نبينا محمداً أن تبلغهم ما أرسلت به، وحسابهم على الله، ثم بين- عز وجل- سلوك الإنسان، وفرحه في السراء، وكفره في الضراء، مع أنه لا تصيبه مصيبة إلا بسبب ذنوبه، فقال: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرَحَ بِهَا﴾ أي: إذا حصل له نعمة سر بها وفرح.

﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: إن تصب الناس مصيبة بسبب ذنوبهم ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ أي: أن الواحد منهم يكفر، ويجحد ما سبق له من النعم، فلا يذكر إلا ما هو فيه، وهذا من أسوأ الطباع.

أحكام وفوائد الآيتين:

- وجوب الاستجابة لأمر الله، وذلك بطاعته، وتوحيده، والبراءة من عبادة غيره؛ لأن يوم القيامة إذا جاء لن يرد راد، ولن يمنعه مانع.
- أنه لا ملجأ للعباد يوم القيامة إلا إلى الله، ولن يستطيع أحد منهم أن ينكر ذنوبه؛ لأنها مدونة في صحائف عمله بعد أن كتبتها الملائكة الحفظة.
- تقرير رسالة رسول الله - ﷺ -، وهي إبلاغ الخلق ما أوحى الله به

إليه، كما قال -ﷺ-: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلْغُ﴾، وليس من رسالته أن يكون وكيلاً عليهم، كما قال -ﷺ-: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢].

- أن من سلوك الإنسان الذي لم ينشرح صدره بالإيمان: الفرخ بما يصيبه من حسنات، والكفر حين تصيبه سيئات حدثت له بسبب ذنوبه.

- أن ما يصيب الإنسان من سيئة هو بسبب عمله؛ لقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ ﴿٢٣﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢٤﴾.

بيان الآيتين:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا بيان من الله -ﷻ- أنه مالك السماوات والأرض، ومبدعهما، والمدبر والمتصرف فيهما، فكل من فيهما عبده، وتحت ملكه وتصرفه ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يخلق من الخلق ما يشاء من الإنس والجن وغيرهم من المخلوقات الأخرى ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً﴾ أي: يرزق من يشاء البنات فقط ﴿وَيَهَبُ

لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿١٧٧﴾ أَي: يرزق من يشاء البنين فقط ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً﴾ أَي: يعطي من يشاء من عباده البنين والبنات معًا.

﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ أَي: لا يولد له بنات ولا بنون، وكل

هذا بحكمته وإرادته، وعلمه بما ينفع هذا، أو يضر ذاك، فقد تكون البنات خيرًا لوالديهن من البنين، وقد يكون الأمر بالعكس، ولهذا قال -ﷺ-: ﴿لَا تَذُرُونَ أَئِهِمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١]، وقد يكون العقم خيرًا للإنسان، رغم أنه لا يرى فيه خيرًا له، ولكنها حكمة الله، فهو الحكيم العليم بأحوال خلقه، وهو الغالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أَي: عليم بمن يكون له البنات، ومن يكون له

البنون، ومن لا يولد له، وهو قدير على ما يريد.

أحكام وفوائد الآيتين:

- الحكم بأن الله هو المتصرف في عباده، المدبر لهم، والعالم بما ينفعهم وما يضرهم، والحكم بأن العقم قد يكون حالة دائمة، وقد يكون حالة طارئة، ومن المشروع علاج العقم، فقد يكون نوعًا من المرض الطارئ، ويتم تشخيصه بالطب، فإن كان دائمًا فما

على صاحبه إلا الصبر على ذلك، وإن كان طارئاً جاز علاجه؛ لأنه من باب التداوي المشروع.

- أنه في الآيتين (٤٩-٥٠) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الله -ﷻ- يخلق ما يشاء من الخلق في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، فيهبُ لمن يشاء من عباده إناثاً لا ذكورَ معهنَّ، ويهبُ لمن يشاء الذكور لا إناث معهم، ويعطي -ﷻ- لمن يشاء من الناس الذكر والأنثى، ويجعل مَنْ يشاء عقيماً لا يولد له.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ۝٥١ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلْكَتُبُ وَلَا أَلْيَمْنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ۝٥٣﴾.

بيان الآيات:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا﴾ هذه الآية ردٌّ على

ما سبق أن قاله المشركون لرسول الله - ﷺ -: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ [البقرة: ١١٨]، فَبَيَّنَ - ﷺ - أنه لا يكلم إلا الأنبياء والمرسلين الذين اصطفاهم لإبلاغ رسالاته إلى خلقه، وهذا الكلام إما عن طريق إلقاء الوحي في رُوع الرسول، وهذا ليس فيه شك أنه من عند الله، كما قال رسول الله - عليه الصلاة والسلام -: «إن روح القدس نفث في روعي: أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب»^(١).

﴿أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ أي: أن يكون الكلام من وراء حاجز،

كما فعل مع نبيه موسى - ﷺ -، فقد سأل رؤية الله، فمنع منها.

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يوحى بإذن الله

ما أَرَادَهُ، فيكون الرسول مبلغاً، وهذا ما كان يقوم به الملائكة، حيث

يرسلهم الله إلى رسله، ومنهم: جبريل الذي كان ينزل على رسول الله -

ﷺ -، فيأتيه أحياناً في صورة رجل.

﴿إِنَّهُوَ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ أي: عليٌّ في ملكوته، حكيم بما يدبره لخلقهِ.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک، (رقم ٢١٦٨)، وصححه الألباني في کتاب مشکلة الفقر، (رقم

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ المخاطب رسول الله-

ﷺ- والمراد: لقد أوحينا إليك القرآن روحًا من عندنا، وسمّاه
﴿رُوحًا﴾ لأن فيه حياة القلوب.

﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلْكَتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾ أي: قبل أن ينزل

عليك هذا القرآن ما كنت تدري عن الكتب السابقة، ولا كنت تدري ما
الإيمان على التفصيل؟.

﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي:

جعلنا القرآن نورًا وضياءً، نهدي به من نشاء من عبادنا ممن انشرفت
صدورهم بالإيمان.

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: إنك يا نبينا محمدًا

لتهدي إلى الصراط المستقيم الذي رسمه الله، وبينه لك في القرآن، وهو
في الإجمال دين الإسلام الذي لا دين غيره، ثم فسر-ﷺ-الصراط
المستقيم بقوله-عزّ ذكره-: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ﴾ أي: أحكامه وشرعه.

﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: له ما فيهما من

الملائكة والإنس والجن، وكل ما فيهما مما لا يعلمه إلا هو .

﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ أي: ترجع أمور الخلق إليه، فيحكم

فيها، فيوفي كلَّ حقه بالعدل والميزان.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير وسائل الوحي الإلهي إلى رسل الله، وهي: إلقاء وحي الله في قلب الموحى إليه، أو يكون هذا الوحي كلاماً من الله -ﷻ- للموحى إليه من وراء حجاب، كما كلم الله موسى، وكلم محمداً -ﷺ- حين عرج به إلى السماء، أو يكون الوحي عن طريق أحد الملائكة، فيرسله الله في صورة رجل، فيبلغ الموحى إليه كلام الله الذي أمره بإبلاغه إليه دون زيادة أو نقص.

- أنه في الآية (٥٢) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الله -ﷻ- جعل القرآن ضياءً للنَّاس، يهدي به الله مَنْ يشاء من عباده إلى صراط مستقيم، في الماضي، وفي الحاضر، وفي المستقبل.

- أن القرآن روح من أمر الله، تحيا به قلوب المؤمنين، وتستضيء به، كما قال -ﷻ-: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى شَفَاءٌ﴾

[فصلت: ٤٤].



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الزخرف

مكية، وآياتها تسع وثمانون آية

﴿حَمَّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ .

بيان الآيات:

﴿حَمَّ﴾ هذه الآية من الحروف المقطعة، والله أعلم بمراده منها
﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ المراد به القرآن، ومن صفاته: أنه مبين جلي في
الفاظه ومعانيه.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: أنزلناه بلغة العرب ولسانهم
﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لعلكم تفهمونه لفظا ومعنى؛ لأنه واضح
بلغتكم.

﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّ حَكِيمٌ﴾ أي: إنه مدون عندنا في
اللوح المحفوظ، وهو عَلِيٌّ في مكانه، ومحكم في آياته وأحكامه، لا يأتيه
الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأخرج أحمد بسند صحيح عن ابن

عباس قال: «إن أول ما خلق الله القلم، فأمره أن يكتب ما يريد أن يخلق، فالكتاب عنده، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّ حَكِيمٌ﴾»^(١).

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ أي: هل نترككم، فلا ننزل عليكم القرآن بسبب إسرافكم وإعراضكم؟، فهذا ليس من حكمتنا، وإنما ننزل عليكم القرآن لعلكم تهتدون به، فإن لم تهتدوا قامت عليكم الحجة، واستحققت العذاب، وأخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد، في قول الله- عز وجل-: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ قال: «تكذبون بالقرآن، ثم لا تعاقبون عليه؟».

أحكام وفوائد الآيات:

- فضل القرآن وشرفه، وعلو قدره، كما قال--ﷺ: ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٨٠].

- مِنَّةُ الله-ﷻ على العرب، فقد أنزل عليهم كتاباً واحداً بلغتهم،

(١) السنة، (٢/ ٤١٠)، (حديث ٨٩٨)، وأخرجه الطبري، التفسير، (٢٥/ ٤٨)، من طريق ابن عليّة عن الدستوائي، وإسناده صحيح، انظر: مرويات أحمد في التفسير، (٤/ ٨١)، (حديث ١٤٩).

هدايةً للخلق أجمعين إلى يوم القيامة.

- وجوب عدم اليأس من أهل المعاصي بسبب معاصيهم، بل يجب الاستمرار في دعوتهم إلى الله، لعلهم يتوبون إليه، فإن تابوا فهذا خير لهم، وإن أعرضوا، وماتوا على إعراضهم قامت الحجة عليهم، فلا يستطيعون أن يقولوا يوم القيامة: ما جاءنا من بشير ولا نذير.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ في هذا تسلية من الله لرسوله محمد-ﷺ- بأنه أرسل أنبياء كثيرين إلى الأمم السابقة، فكذبوهم، واستهزؤوا بهم، وآذوهم، كما قال-ﷺ-: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ثم قال: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أي: أهلكنا من تلك الأمم من هو أقوى وأشد بأساً من قومك الذين كذبوك يا نبينا محمداً ﴿وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: مضى في سنة الله هلاك المكذبين من تلك الأمم.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير أنه ما من نبي أرسل إلى قومه إلا استهزؤوا به.
- الحكم بأن من يكذب رسل الله لا بد أن يحقق به العذاب، وهذا يشمل كل من يكذب بآيات الله، سواء كانت الدعوة قد أتته من الرسل، أم من غيرهم من الدعاة إلى الله.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ٢﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُونَ ٣﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ٤﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ٥﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ٦﴾

بيان الآيات:

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ

الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿١﴾ لما ذكر الله حال الأمم السابقة، وتكذيبها لأنبيائها ذكر حال المشركين، وأنهم يعترفون بأن الله هو الذي خلق السماوات والأرض، وأنه العزيز بقوته والعليم بخلقه، ومع ذلك يعبدون معه غيره من الأصنام والأوثان، وذلك لجهلهم وسفاهتهم، ثم لما بين -وَعَلَى- اعترافهم بعظمته وقوته بين أنه الذي بسط الأرض لخلقه، وجعلها فراشاً لهم، يسيرون عليها في أمان وثبات بعد أن أرساها بالجبال، كما قال -تعالى-: **﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٢﴾﴾** أي: طرقاً تسيرون عليها؛ لكي تهتدوا إلى مقاصدكم، وانتقالكم من بلد إلى بلد، فلعلكم بذلك تعتبرون بما أنعم الله عليكم من هذه المنافع في دنياكم.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴿٣﴾﴾ أي: هو الذي ينزل المطر من السماء بالقدر الذي تحتاجون إليه، فلو زاد هذا القدر لأغرقكم **﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴿٤﴾﴾** أي: أحيينا به الأرض الميتة التي فقدت الماء، فتحولت إلى موات لا نفع فيها .

﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُونَ ﴿٥﴾﴾ أي: كما هو قادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على بعث الأموات من قبورهم.

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴿٦﴾﴾ أي: أنه الذي خلق أصناف النبات من

الزروع والأشجار وأصناف الحيوانات لمنافعكم، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ
الْفُلْكِ﴾ أي: السفن ﴿وَالْأَنْعَمَ مَا تَرَكُّبُونَ﴾ أي: سخر لكم ركوب
الأنعام كالإبل والخيول والبغال .

﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أي: لتركبوا على ظهور هذه الأنعام
المسخرة لكم، وأنتم مطمئنون غير خائفين من أخطارها ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا
نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ أي: لتذكروا نعمته، وتشكروه عليها حق شكره .

﴿إِذَا أَسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ
مُقْرِنِينَ﴾ أي: تذكروا الله، وتسبحوه وأنتم مستمتعون بهذا الركوب
على ما سخره لكم من شيء لم تكونوا مقرنين أي: مطيقين له لولا ما
سخره -عَلَيْكُمْ- لكم، كما أخرج الطبري بسنده الحسن عن ابن عباس:
﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ يقول: «مطيعين».

﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أي: كما نحن سائرون في الدنيا فإننا
سائرون إلى الآخرة بعد بلوغ آجالنا، فنعود إلى الله كما خلقنا أول مرة.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن المشركين يقرون بربوبية الله، كما يقرون بعظمته وعزته وعلمه
بأحوال خلقه، ولكنهم يعبدون معه غيره، فلا ينفعهم إقرارهم
بهذه الربوبية؛ لأن الإقرار بها يقتضي حكماً بالإقرار بالوهمية الله

المطلقة النافية لأي شراكة لغيره معه.

- أنه في الآية (١٠) إخبار مستقبليٍّ عن سبب جعلِ الله الأرض لعباده فراشاً وبساطاً، وسَهَّلَ لهم فيها طُرُقاً لمعاشهم ومتاجرهم؛ وذلك كي يهتدوا بتلك السُّبُلِ إلى مصالحهم الدنيئة والدنيوية.
- رحمة الله -ﷻ- بإنزال المطر من فوق؛ لأنَّه لو كان من أسفل لغرقت الأرض السفلى دون أن يصل الماء إلى قمم الجبال، ولكنَّ الله-تعالى- جعله ينزل من فوق حتى يروي العالي والنازل.
- نعم الله على خلقه من إنزال المطر بالقدر الذي ينفع الخلق، ولا يضرهم، وكذا نعمه عليهم بتذليل الأنعام، وتسخيرها لهم ركوباً وطعاماً، إلى جانب الفوائد الأخرى المتعددة.
- بيان الزوجية في الأشياء، حتى في أصغر الأشياء كينونة.
- وجوب تسمية الله، وذكره عند الركوب على الأنعام المخلوقة لركوبها، وعند الركوب في السفن والطائرات وكل وسائل النقل، وأن يقول عند انطلاق سيرها: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾، ذلك أنه ما من مركب أيا كان نوعه أو صفته يقدر على السير إلا بإرادة الله وقوته وتوفيقه، فلا مُسَيِّر ولا مُقَدِّر ولا حافظ في البر أو البحر أو الجو إلا هو، فتقدست أسماؤه وصفاته.

- أنه في الآية (١٣) إخبار مستقبلي عن الحكمة من جعل الله السفن في البحر، والبهائم في البر، مراكب لعباده؛ وذلك لكي يستووا على ظهورها، ثم يتذكروا نعمة ربهم إذا ركبوا عليها، ويقولوا: الحمد لله الذي سخر لنا هذا، وما كنا له مطيقين، وإننا إلى ربنا بعد مماتنا لصائرون، وإليه راجعون.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾

بيان الآيات:

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ ما زال كلام الله مستمرًا في دعوة المشركين إلى توحيده، وتعرية أفعالهم ومعتقداتهم، حين جعلوا من عباد الله جزءًا منه، فقالوا: إن الملائكة بنات الله، فعبدوهم، مع أن الله-

جل وعلا- لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، وليس له حاجة في ذلك؛ لأن الخلق كلهم عبيده، وتحت تصرفه، ومملوكون له .

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ أي: كفور بنعم الله وآياته، وكفره بَيِّن في ذلك حين يعبد مع الله غيره، أو ينسب إليه الولد، مع أنه-أي: الإنسان-يعرف أن الله هو الخالق وحده، وأنه قد نزه نفسه عن صاحبة والولد؛ لأن من يخلق كل الخلق لا يحتاج عقلًا إلى ولد؛ لأن الولد من صفات المخلوق، وليس من صفات الخالق.

﴿أَمْ أَتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾ أي: ومن عجب سفاهة المشركين وجهلهم و حماقتهم: أنهم نسبوا البنات له؛ لأنهم يكرهونهن، كما كانوا يقتلونهن وينسبون البنين الذين يحبونهم إليهم، فمع إنكار الله عليهم نسبة الولد إليه أصلًا أنكر عليهم كذلك سفاهتهم في جعلهم البنات له.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ وهذا بيان عن سلوك المشركين و حماقتهم، فإذا بشر أحدهم بولادة البنت اسودَّ وجهه، وعلته الكآبة، وامتلاَّت نفسه بالغيظ.

﴿أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ ما زال

الله ينكر على المشركين سوء أخلاقهم وحماقتهم، فيقول-عز ذكره- منكرا عليهم غاية الإنكار: كيف ينسبون إليه الأنثى التي تلبس الحلي؛ لتجميل ما نقص من جمالها، وهي في الخصام ضعيفة غير مبينة لحجتها، بسبب خلقتها وطبيعتها التي أرادها الله؟، وأخرج ابن أبي شبة بسند صحيح عن مجاهد قال: «رخص للنساء في الحرير والذهب»، ثم قرأ: ﴿أَوْ مَنْ يُنشِؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾^(١).

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ وهذا-أيضاً- إنكار من الله عليهم، حيث جعلوا الملائكة إناثاً مع أنهم عباد الله يسبحون بحمده ﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾ استفهام إنكاري، بمعنى: هل شهدوا خلقهم يوم خلقهم الله؟، ثم قال متوعداً إياهم لسوء أفعالهم: ﴿سَتُكْتَبُ شَهْدَتُهُمْ﴾ أي: بذلك ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ أي: سوف يسألون يوم القيامة عن افتراءهم الكذب، وعن سوء أخلاقهم، وسوء أدبهم مع الله.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أي: لو أراد الله ألا نعبدهم لحال بيننا وبين عبادتهم، وهذا-أيضاً- من سفاهتهم، وضعف

(١) المصنف، (٢٣/٦).

عقولهم، وخلوها من الإيمان بالله ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: ما لهم حجة أو برهان فيما قالوه.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يفترون الكذب، ويتقولون على الله.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الإنسان إذا لم يهتد بنور الإيمان الذي جاء به كتاب الله فهو مجرد كائن غير سوي، حيث يرى المنكر معروفاً، والمعروف منكراً، وكان هذا حال الإنسان الذي كذب بما أنزل إليه من الكتاب، وما أرسل إليه من الرسل، فضلّ عن سواء السبيل، حتى هلك بسبب ضلاله، وكان هذا الضلال حال مشركي مكة، حين نسبوا البنات إلى الله، وعبدوا الأصنام والأوثان.

- التنديد بالمشركين؛ لكرههم البنات، وما أدى إليه هذا الكره من وأدهم لهن، الأمر الذي حرمه الله، وتوعد مرتكبيه بقوله: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۖ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۖ﴾ [التكوير: ٨ - ٩].

﴿أَمْ عَاتَيْنَهُمُ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ۖ﴾ ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ۖ﴾ ﴿وكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ۖ﴾ ﴿قُلْ أُولَٰئِكَ

جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ .

بيان الآيات:

﴿أَمْ ءَاتَيْنَهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ وفي سياق الإنكار على المشركين في عبادتهم للأصنام ذكر الله -ﷻ- أنه لم يأتهم دليل ولا برهان قبل القرآن يحتجون به، ويتمسكون به، وإنما هو تقليد لأبائهم، حيث أخبر الله عنهم بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثِرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ ثم ذكر-تعالى- أن مقالتهم هذه سبق أن قالها المترفون ممن سبقهم من الأمم المكذبة لرسولها، كما قال-تعالى-: ﴿وكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثِرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ قُلْ أُولَٰئِكَ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: قال لهم رسولهم الذي أرسل إليهم: لو جئتمكم بآية أفضل مما أنتم عليه هل تتبعونني، وتتركون تقليد آبائكم؟ قالوا: إنا كافرون بما جئت به، أو تجيء به، فعلم بهذا

أنهم لا يريدون الهداية ولا اتباع الحق، ولهذا قال- تعالى:- ﴿فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: من هذه الأمم المكذبة.

﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ أي: فليحذر قومك يا نبينا محمداً من سوء عاقبة تكذيبك حتى لا يحل بهم ما حل بالأمم الهالكة.

أحكام وفوائد الآيات:

- أنه لم يكن للمشركين حجة أو برهان في عبادتهم الأصنام، وإنما قلدوا آباءهم وأجدادهم، وهذا يقتضي تحريم تقليد الآباء أو نحوهم من بعض أصحاب الطرق الذين يتقولون على الله، ويضلون أتباعهم تحت مسميات وتأويلات ما أنزل الله بها من برهان، كما يقتضي تحريم القول في شرع الله إلا بدليل من كتابه، أو سنة رسوله محمد- ﷺ، أو ما أجمعت عليه الأمة، أو ما كان من مصادر شريعة الله من قياس وغيره.

- اتفاق أهل الباطل على هدف واحد، ألا وهو تكذيب الرُّسل.

- الإشارة إلى أن المترفين من الأمم هم من أسباب فسادها وانحطاطها، كما قال- تعالى:- ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء:

١٦]. والمراد: أمرنا مترفيها باتباع الحق، ولكنهم عصوا وفسقوا،

فاستحقوا العقاب.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا
الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ
وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ
كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ
عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُم يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ
بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ هذا بيان من الله لرسوله؛
ليذكر به قومه عن دعوة نبيه إبراهيم الذي ينتسبون إليه، حين دعا
أباه وقومه إلى توحيد الله، وطاعته، والبراءة من الشرك به .

﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي: أتبرأ من عبادتكم للأصنام والأوثان
﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: لا أعبد إلا الله الذي خلقني، ورزقني
﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ أي: سوف يدلني على ما فيه نقص في ديني

ودنياي.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ أي: جعل العبادة لله وحده الذي لا إله إلا هو، ولا شريك له، ولا معبود بحق سواه، كلمة دائمة في ذريته، يتبعها من وعائها بقلبه، ويستهدي بها من وفقه الله لاتباع الحق .

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: يرجعون إلى هذه الدعوة الحنيفية، التي أمر الله بها عباده وهم في أصلابهم، وأخرج الطبري بسنده الحسن عن قتادة في قوله-تعالى-: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ قال: «شهادة أن لا إله إلا الله، والتوحيد لم يزل في ذريته من يقولها من بعده».

ومع وضوح دعوة نبي الله وخليله إبراهيم لم يؤمن بها كل من دعاهم، فقد أشرك بالله أقوام من ذريته، فعبدوا الأصنام والأوثان، ومنهم قريش، فقال الله-ﷻ -: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي: أبقاهم الله في الحياة، فلم يهلكهم حتى نزل عليهم الكتاب، يتلوه عليهم رسول الله، يبشر من آمن وصدق به بأن له السعادة في الدنيا والآخرة، وينذر من كذب به بسوء العاقبة، ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: لما

جاءهم القرآن كذبوه، ونسبوه إلى السحر، وكفروا به، وكذبوا رسول الله الذي بلغه إليهم ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي: لو أن هذا القرآن أنزل على رجل له مكانة وشرف من أهل مكة والطائف؛ لما كانوا يرون ذلك في بعض زعمائهم، كالوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة من مكة، أو عمير بن عبد ياليل الثقفي من الطائف، أو عروة بن مسعود الثقفي، وكان هذا من حماقتهم؛ لأنهم ما كانوا ينظرون إلى الحياة إلا من خلال المال والزعامة، وهما الركنان الأساسيان في حياة الجاهلية.

وقد رد الله عليهم موبخاً لهم بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أي: هل هم المدبرون لرحمة الله وعطائه، فيعطون النبوة من يشاؤون، ويمنعونها عن من يشاؤون، أي: ومن العجب العجيب: أن المشركين يريدون أن تكون النبوة لمن يعبدون الأصنام، وقد تلوثت أيديهم وأجسادهم بالآثام، وتنزع من محمد - ﷺ - الذي عرفوا أمانته وخلقه وطهارته منذ أن خلقه الله، فلم يعبد صنماً، ولم يسجد لوثن، ولم يرتكب في حياته ما يشينه، بل كانت صفاته صفات الكمال والطهر والعفة، وكمال الأخلاق التي لا تكون إلا لمن أحبه الله، ورضي عنه.

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ المراد: أن الله

هو الذي قسم بينهم معاشهم من الطعام والشراب واللباس، وغير ذلك من متع الحياة الدنيا، فهل يعترضون على من اختاره لرسالته، وهو محمد -ﷺ- ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي: في

أرزاقهم ومعاشهم، ففيهم الغني، وفيهم الفقير .

﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي: للعمل والخدمة، وهذا من

حكمة الله وتدبيره لخلقه؛ إذ لو تساوى الناس في الغنى لتعطلت مصالحهم، وركدت حياتهم، وتوقفت معاشهم.

﴿وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: أن ما عند الله يوم

القيامة من النعيم المقيم للمؤمنين أفضل وأعظم من حطام الدنيا الذي رأوا فيه عزتهم وشرفهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير أن إبراهيم-عليه السلام- جعل ملته باقية في عقبه، وهي عبادة الله وحده، لا إله إلا هو، لا شريك له، ولا معبود بحق إلا هو، وقد كفر بهذه الملة أقوام من ذريته، ومنهم كفار قريش.

- قوّة رجاء إبراهيم بالله -ﷻ-؛ لقوله: ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ ، والسين هذه تدلُّ على التّحقيق.

- التنديد بالمشركين العرب الذين اعترضوا على إرسال رسول الله إليهم، يريدون أن تكون النبوة والرسالة في أحد زعمائهم؛ لما يتمتع به من المال والرئاسة فيهم، وهذا زيادة في كفرهم وشركهم، وهذا يقتضي أن من يعترض على إرادة الله في خلقه يعد كافراً، كما قال- تعالى:- ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

- حكمة الله في خلقه وتدبيره لهم، حيث يبسط الرزق لمن يشاء من العباد، وَيَقْدِرُهُ على من يشاء منهم، حتى يخدم بعضهم بعضاً، وهذا التفاضل في الدنيا لا يدل على أن الغني أقرب إلى الله من الفقير، وإنما هي الحكمة الإلهية اقتضت هذا لعلم الله بأحوال خلقه، ومن يكون الغنى نافعا له، ومن يكون الفقر نافعا له، أما عند الله فالدين هو الأصل في التفاضل، كما قال-تعالى:- ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾ [الحجرات: ١٣].

- أنه في الآية (٣٢) إخبار مستقبلي عن الحكمة في رفع الله العباد بعضهم فوق بعض درجات، هذا غني، وهذا فقير، وهذا قوي، وهذا ضعيف؛ ليكون بعضهم سبباً لبعض في المعاش.

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ

بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾
 وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يَتَّكِفُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ
 لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ .

بيان الآيات:

لما ذكر-ﷻ- في الآيات السابقة أن المنزلة العليا هي في نعيم الآخرة،
 وليس في الدنيا ومتاعها، قال: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾
 أي: لولا أن يعتقد الجهلة والغفل من الناس أن الغنى ومتاع الحياة
 الدنيا دليل على محبة الله ورضاه عن أغناهم ومتّعهم ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ
 يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ﴾ أي: لجعل الله للكفرة
 سقفاً لبيوتهم من فضة ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي: سلالم من
 فضة يصعدون عليها في بيوتهم.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يَتَّكِفُونَ﴾ أي: ولجعل أبواب
 بيوتهم وسررهم كلها من فضة

﴿وَزُخْرَفًا﴾ أي: جعل بعض سقفهم ومعارجهم وأبوابهم من ذهب.
 ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: أن ذلك كله من متاع
 الدنيا التي لا تلبث إلا قليلاً، ثم تزول، وتكون هباء، ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ

رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٠١﴾ أي: إذا كانت الدنيا للكافرين وغيرهم، فإن الجنة في الآخرة للمتقين، لا يشاركون فيها إلا من هو مثلهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الإنسان قد جبل بطبعه على حب الدنيا، كما قال -عَلَيْهِ السَّلَام-: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، ومن حكمة الله: أنه يؤتي الدنيا للكافر والمؤمن، ولا يؤتاها الكافر لكفره، بل لحكمة؛ لأنه لو أوتيها بسبب كفره لكفر الناس أجمعون.
- أن الدنيا لا تساوي عند الله شيئاً، كما في الحديث: «الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر»^(١).
- أن هذه المتعة الدنيوية ما هي إلا متاع الحياة الدنيا، وهي زائلة، فلا يتعلق الإنسان بها.
- أن نعيم الآخرة هو الذي يجب التسابق إليه بالتقوى والأعمال الصالحة؛ لأن الله جعل هذا النعيم حصراً للمتقين.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ خَيْرًا يَجْعَلْهُ اللَّهُ شَيْئًا يُغْنِيهِ عَنْهُ﴾ [الزمر: ٣٦] وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد، (رقم ٢٩٥٦).

الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمُ فِي الْعَذَابِ
مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٠﴾ .

بيان الآيات:

﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ أي: أن من يتعام، ويعرض عن
القرآن ﴿نُقِصَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ أي: نهى له شيطاناً
يلزمه، فيصده عن سبيل الله، ويزين له ارتكاب المحرمات والمعاصي،
وكل أسباب الفسوق، ومع ذلك يحسب أنه على هدى من الله فيما
يعمله، كما قال-تعالى:- ﴿وَأَنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ
وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا ﴿٣٨﴾ أي: إذا جاء يوم
القيامة .

﴿قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي: لما يرى العذاب
يحيق به من كل جانب، يتمنى أن لو كان بينه وبين قرينه من البعد،
كما بين المشرق والمغرب، ثم يقول لقرينه: ﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ لأنك قد
أضللتني، وزينت لي سوء عملي، فالיום أتمنى أن يباعد الله بيني وبينك
﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾

أي: لن ينفعكم في هذا اليوم يوم القيامة أنكم أنتم وقرناءكم مشتركون في العذاب؛ لأنكم أنتم وإياهم قد ضللتهم وطغيتهم وكفرتهم، كما لن ينفعكم تمنى مفارقة بعضكم لبعض.

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

المخاطب هنا رسول الله - ﷺ - تسلياً له، والمراد: إنك لن تسمع الصم الذين لا يسمعون، ولن تهدي العمي الذين لا يبصرون، كما أنك لا تقدر أن تهدي من هو في ضلال مبين، فكما أن الصم لا يسمعون الصوت، والعمي لا يبصرون الطريق، والضالين لا يهتدون، فهؤلاء الذين تدعوهم قد أصبحوا بمثابة الصم والعمي والضالين، فلن يكون لهم إلا الحساب والجزاء.

أحكام وفوائد الآيات:

- أنه في الآية (٣٦) إخبار مستقبلي عن جزاء مَنْ يُعرض عن القرآن، فلم يخف عقابه، ولم يهتد بهدايته، فَإِنَّ الله سيجعل له شيطاناً في الدنيا يُغويه، فهو له ملازمٌ ومصاحب، يمنعه الحلال، ويبعته على الحرام.

- الحكم بأن من يعرض عن كتاب الله متعامياً يتسلط عليه الشيطان، فيلازمه في يقظته ونومه، ويصده عن سبيل الله، فيزين

له سوء عمله، فيكون الحق عنده باطلاً، والباطل حقاً، فيرتكب المحرمات والمعاصي، ويحسب أنه على هدى من الله، كما قال -ﷺ-:
﴿أَقْمَنَ زَيْنٌ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]، وقال:
﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

قلت: ومن المشاهد والمحسوس: أن الذين يميلون عن الطريق القويم، فيرتكبون المحرمات بتأويلات وعلل مختلفة، يتسلط عليهم الشيطان، فيزدادون انحرافاً على انحرافهم وضلالاً على ضلالهم، كما حدث في الماضي لأصحاب الملل المنحرفة، وكما يحدث اليوم من المبتدعة في الدين، والقول فيه بالهوى، كتحليل أنواع من الربا، ومجارة الأعداء فيما يقولون، وما ينسبونه إلى الدين من الأباطيل، واتهامه بالتخلف، وعدم مجارة واقع الزمان، ونحو ذلك من الضلالات التي تنشرها بعض وسائل الإعلام بين ظهراني المسلمين.

- أن قرناء السوء يتبرأ بعضهم من بعض، ويتمنى كل منهم مفارقة الآخر، كما قال -تعالى-: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحشر: ١٦ - ١٧].

- أن من ضل عن الطريق، وأعرض عن ذكر الله رغم ما جاءه من الحق يبقى على ضلاله، فلا تنفع معه المواعظ.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ ٤١ ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ ٤٢ ﴿فَأَسْتَمِسِكَ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ٤٣ ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ ٤٤ ﴿وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ ٤٥ .

بيان الآيات:

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ أي: سوف ننتقم من هؤلاء الذين كذبوك، حتى لو أخرجناك إلى مكان آخر، بعيداً عنهم، شأنهم في ذلك شأن الأمم الذين كذبوا رسلهم، فأهلكناهم ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ أو نجعلك ترى غلبتك ونصرنا عليهم ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ أي: قادرون على غلبتك عليهم، وقد رأى-عليه الصلاة والسلام- ما وعده به ربه من النصر عليهم، وذلك حين خر رؤساء المشركين يصرعون على وجوههم يوم بدر، لا يلوون على شيء، وما كان لهم من ولي ولا نصير.

﴿فَأَسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ أي: تمسك بالقرآن الذي أوحى

إليك، فإنه النور المبين الذي يستهدي به المؤمنون، ويستضيء به المتقون ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: إنك بالقرآن على الطريق القويم الذي يفضي بمن تمسك به إلى جنات النعيم.

﴿وَأَنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي: أنه شرف وعزة ورفع لك في

الدارين، كما أنه شرف لقومك، حيث نزل بلغتهم، وفي بلادهم، فهم أخرى أن يلتزموا به، ويؤمنوا به، ويحكموه فيما شجر بينهم، كما أخرج الطبري بسنده الحسن عن ابن عباس.

قوله ﴿وَأَنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ يقول: إن القرآن شرف لك

﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ أي: سوف تسألون عن عملكم به، وما إذا كنتم

أخذتم بأحكامه، وائتمرت بأوامره، وانتهيتم عن نواهيه.

﴿وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً

يُعْبَدُونَ﴾ سؤال الرسل متعذر من جهة عدم وجودهم حين نزول

القرآن على رسول الله - ﷺ -، والمراد: أن عليك يا نبينا محمداً معرفة

شرائع الرسل قبلك وأخبارهم؛ لكي يتبين لك أننا ما أمرنا قط أن

يكون هناك آلهة تعبد من دوننا.

أحكام وفوائد الآيات:

- التقرير أن من كذب رسل الله ينتقم الله منه، وليس المراد من كذبه في حياته فقط، بل كل من كذب رسالته، وإن أتى بعده بأجيال.
- بيان غلبة قدرة الله - ﷻ - على كل قدرة؛ لقوله: ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾.
- أن الله صدق وعده في نصر عبده ورسوله محمد - ﷺ -، فقد هزم أعداءه رغم قوتهم وتحالفاتهم ومكايدهم.
- وجوب التمسك بكتاب الله، فإن التمسك به لن يضل، كما قال - ﷻ -: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]، وقال: ﴿قِيمًا لِّنَّذِرٍ بَاسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّكَثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف: ٢-٣]. [الكهف: ٢ - ٣].
- أن إنزال القرآن بلغة العرب شرف لهم إذا تمسكوا به، فهو ذكر وعز لهم، كما قال - تعالى -: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].
- أن هذه الأمة سوف تسأل يوم القيامة عما إذا كانت قد التزمت بهذا الكتاب في أحكامه.

- أن كل الكتب السماوية جاءت بتوحيد الله، وتحريم عبادة غيره،
كما قال -ﷺ-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ
وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي
رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٤٦ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا
يَضْحَكُونَ﴾ ٤٧ ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا
وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ٤٨ ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُهُ السَّاحِرُ أَدْعُ
لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَذُونَ﴾ ٤٩ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ
الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ ٥٠ .

بيان الآيات:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي
رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ما زالت آيات القرآن تذكر قريشاً حال من
سبقها من الأمم، وما حل بهم من الهلاك بسبب تكذيبهم لرسولهم،
ومنهم: فرعون وقومه، فقد أرسل الله موسى إليه بالآيات البينات،
كالعصا التي تحولت إلى حية، وقد دعاهم إلى عبادة الله وحده، والبراءة
من عبادة غيره، وأن يتركوا شأن بني إسرائيل، ويرسلوهم معه حيث

يريد، فلم يستجب فرعون وقومه، بل كانوا يستهزئون بموسى، ويسخرون من دعوته، كما قال-تعالى:- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أي: ما جاءت فرعون وقومه من آية إلا هي أكثر بينة على صدق موسى في دعوته ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وهو ما ذكره الله-تعالى-بقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

قوله: ﴿وَقَالُوا يَتَأْتِيهِ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ كان فرعون وقومه يعتقدون أن موسى ليس إلا مجرد ساحر، وأن الآيات التي جاء بها ساحر، فطلبوا منه أن يطلب ربه أن يكشف عنهم العذاب الذي حل بهم، وهو الجراد والقمل، وفي كل مرة يعدون موسى بالإيمان، ثم ينكثون، وينقضون ما عاهدوه عليه، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ آلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير أن الناس قد لا يؤمنون بالآيات التي تأتيهم، كما فعل فرعون وقومه مع موسى، وفعل كفار قريش مع رسول الله ﷺ-فيما جاء

به من القرآن بآياته البينات، وقد أخبر الله عن ذلك بقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

- أن الله يُنْظِرُ العباد؛ لكي يتوبوا إليه إذا أذنبوا، كما قال-تعالى:-
﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦]، فإذا استمروا على ذنوبهم وعصيائهم رغم إمهالهم عاجلهم الله بالعقوبة في الدنيا، أو أنظرهم إلى الآخرة.

- تحريم النكث بالعهد، كما قال-تعالى:- ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَوْمُ الْإِسَ لِي مَلِكٌ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاغَوْهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا عَاسَفُونَا أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ﴾ لما نكث فرعون وقومه عهدهم مع موسى أراد فرعون أن يشدد قوته على قومه، ويمتحنهم في ولائهم له، فجمعهم، وخطب فيهم، وقال لهم: ﴿يَقَوْمُ الْيَسِّ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ أي: ألا ترون أنني ملك مصر المتصرف فيها، وهذه الأنهار كما ترون تجري في ملكي؟، وشاهده: -أيضاً- قوله: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣ - ٢٤].

قوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: ألا ترون ما أنا فيه من القوة. ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ أي: أنا أفضل وأعز من هذا الفقير الحقير المراد به موسى -عليه السلام- ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي: لا يقدر أن يتكلم كلاماً واضحاً، ويقصد بذلك اللثغة التي في لسان موسى.

﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ﴾ أي: إذا كان صادقاً فيما يقول لم لا ينزل عليه من السماء أسورة من ذهب؛ ليضعها في يده، كما يفعل الملوك؟ .

﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي: جاءت الملائكة يشهدون له بما يقول.

﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ ما تكلم فرعون، ونسب إلى نفسه القوة والعظمة، واستفز قومه بما قاله أطاعوه إلا بسبب خفة عقولهم، وعدم إدراكهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ أي: عاصين الله؛ مما جعلهم يستجيبون لفرعون فيما قال.

﴿فَلَمَّا عَاسَفُونَا أُنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: لما أغضبوا الله -عز وجل- بنكثهم العهود وكفرهم انتقم منهم ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: أغرق فرعون وقومه، ولم ينج منهم إلا الذين آمنوا بموسى.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ أي: جعلنا إغراق فرعون وقومه سلفاً أي: متقدمين على غيرهم، ولن يعمل مثل عملهم، وعبرة وموعظة لمن بعدهم؛ ليرى كيف يهلك الله المكذبين لرسلمهم؟.

أحكام وفوائد الآيات:

- تحريم الاستعلاء على عباد الله المؤمنين، كما قال -عز وجل-: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال -عز ذكره-: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ

الْجِبَالُ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا

﴿٣٨﴾ [الإسراء: ٣٧ - ٣٨].

- أثبت العلماء حديثاً أن الأماكن الأثرية حيث توجد الأهرامات في مصر، كانت ذات يوم مليئة بالأنهار والغابات، وهذه الحقيقة العلمية لم يُتأكَّد منها إلا في منتصف عام ٢٠١٢م في دراسة علمية استغرقت عدة سنوات^(١).
- أن من عادة الطواغيت خداع أتباعهم بطلب مزيد من البراهين غير المتوافرة في تلك الحالة.
- التنديد بالذين يصدقون كل داع لهم دون أن يفكروا فيما يدعوههم إليه، فلا يفعل هذا إلا خفاف العقول، الذين يسيطر عليهم الفسق والمعاصي، فلا يقدرّون على تمييز الحق من الباطل، وهذا هو ما يفعله اليوم قلة من المسلمين الذين لا يفكرون فيما يدعوههم إليه أعداؤهم من دعوات تبدو في ظاهرها سليمة، بينما هي في حقيقتها دعوات إلى التحلل من الدين والقيم، ونشر الفساد في الأرض.
- أن الأمم إذا استمرت على الفسق والكفر يشتد غضب الله عليها، فينتقم منها؛ لتكون عبرة لمن يأتي بعدها.

(١) <http://www.kaheel7.com/ar/index.php/2012-12-04-18-35-47/1265-2013-05-02-18-34-36>.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾
 وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ
 خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي
 إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ
 ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ
 مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ لما نزل
 قول الله - تعالى -: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ
 أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] جادل المشركون رسول الله - ﷺ -،
 وقالوا: ﴿ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أي: قالوا: آلهتنا التي نعبدها خير أم
 محمد فنعبده، ونترك آلهتنا؟، فقد أخرج الإمام أحمد بسند صحيح
 عن أبي يحيى مولى ابن عقيل الأنصاري، عن ابن عباس قال: «لقد
 علمتُ آية من القرآن ما سألني عنها رجل قط، فما أدري أَعَلِمَهَا
 الناس، فلم يسألوا عنها، أم لم يَفْطَنُوا لها، فيسألوا عنها؟، ثم طفق
 يحدثنا، فلما قام تلاومنا ألا نكون سألناه عنها، فقلت: أنا لها إذا راح
 غداً، فلما راح الغد، قلت: يا ابن عباس! ذكرتُ أمس أن آية من القرآن

لم يسألك عنها رجل قط، فلا تدري أَعَلِمَهَا الناس، فلم يسألوا عنها، أم لم يَفْطَنُوا لها؟، فقلت: أخبرني عنها، وعن اللاتي قرأتَ قبلها، قال: نعم! إِنَّ رسول الله -ﷺ- قال لقريش: «يا معشر قريش! إِنَّه ليس أحد يُعْبُدُ من دون الله فيه خير»، وقد علمت قريش أَنَّ النصراني تعبد عيسى ابن مريم، وما تقول في محمد، فقالوا: يا محمد! أَلست تزعم أَنَّ عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً؟، فلئن كنت صادقاً فإنَّ أَلهتهم لكما تقولون. قال: فَأَنزل الله -ﷻ-: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾، قال: قلت: ما يَصِدُّونَ؟، قال: يَضْجُونَ ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾، قال: هو خروج عيسى ابن مريم -ﷺ- قبل يوم القيامة^(١).

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أي: ما كان هدفهم من قولهم هذا إلا اللجاجة والخصام، وإلا فإنهم يعرفون أَنَّ هذه الآية لا تشمل الأنبياء والرسل والصالحين والأولياء، وأنها لم تنزل إلا فيهم؛ لأنهم هم المخاطبون بها؛ لكونهم يعبدون الأصنام والأوثان، ولم يكونوا يعبدون عيسى، إضافة إلى أنه نزل بعد هذه الآية

(١) المسند، (٤ / ٣٢٨-٣٢٩)، (رقم ٢٩٢١)، وصححه المحقق أحمد شاكر، وأخرجه ابن حبان، (رقم ٦٨١٧) مختصراً، والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي، (المستدرک ٢ / ٤٤٨)، وصححه السيوطي، (لباب النقول ص ١٨٩).

قول الله-تعالى:- ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، فدل هذا على أن قصدهم من مقولتهم الخصام والمجادلة بالباطل.

ثم قال-تعالى-عن نبيه عيسى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: ليس عيسى إلا عبداً من عباد الله، أنعم الله عليه بالنبوة، وجعله مثلاً لبني إسرائيل أي: برهاناً ودليلاً على قدرة الله، لعلهم يهتدون.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ أي: لو نشاء لأهلكناهم، ولجعلنا لكم ملائكة يخلفونكم في الأرض، ويكونون أفضل منكم.

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: إن نزوله لدليل على قيام الساعة ﴿فَلَا تَمْتَرْنَ بِهَا﴾ أي: لا تشكوا في مجيئها .

﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ أي: قل يا نبينا محمداً لقومك: اتبعوني فيما جئتكم به، وهو الإسلام الذي يوجب عليكم توحيد الله، وطاعته، والبراءة من الشرك به ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: إن هذا الدين هو الطريق القويم الذي يوصل إلى مرضاة الله.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: لا يصدنكم عن اتباع الحق، فتضلوا، وتتعرضوا لغضب الله وعقابه ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: يريد أن يغويكم ويضلكم؛ لتكونوا معه ومع جنده يوم القيامة في العذاب السعير.

أحكام وفوائد الآيات:

- تحريم الجدل والخصام بالباطل، كما قال-تعالى-: ﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥]، كما أن الجدل والخصام في غير الحق هو من أوامر الشيطان، كما قال-تعالى-: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحِيَ إِلَيْهِمْ أَهْلِيَّائِهِمْ لِيَجَدِّلُواكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وفي الحديث عن رسول الله -ﷺ- أنه قال: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»^(١).
- تقرير أن عيسى عبد من عباد الله، أنعم الله عليه بالنبوة، وأن نزوله في آخر الزمان دليل على قرب قيام الساعة.
- أن نزول المسيح -ﷺ- آخر الزمان من علامات الساعة.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير، باب: من سورة الزخرف، (رقم ٣٢٥٣)، وابن ماجه في المقدمة، باب: اجتناب البدع والجدل، (رقم ٤٨)، وصححه الترمذي، والألباني في صحيح سنن الترمذي.

- تحريم الشك في قيام الساعة، كما قال-تعالى:- ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١١]، وقال: ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يَمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].
- تحريم اتباع الشيطان، كما قال-تعالى:- ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨]، وقال: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩]. والآيات في التحذير من اتباع الشيطان كثيرة.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلَآبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ٦٣﴾
 إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ٦٤
 فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمِ
 أَلِيمٍ ٦٥ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
 ٦٦﴾ .

بيان الآيات:

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ لما دحض الله حجة مشركي مكة وزعمهم الباطل في تناقض ما جاء به الرسول، ذكر الله رسالة عيسى-

عليه السلام- ونبوته، وأنه أرسل إلى بني إسرائيل؛ ليبين لهم ما اختلفوا فيه من التوراة، كما قال- تعالى:- ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾، كما أخرج الطبري بسنده الحسن عن قتادة في قوله- تعالى:- ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ قال: «أي: بالإنجيل»، وقوله: ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ قيل: عني بالحكمة في هذا الموضع النبوة.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ أي: اتقوه، واخشوه فيما أمركم به، وأطيعوني فيما جئكم به من كتاب ربكم الإنجيل ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ﴾ أي: أنا عبد من عبيد الله مثلكم، فاعبدوا الله وحده، ولا تشركوا معه غيره ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: أن ما جئكم به هو الطريق القويم الذي يجب أن تكونوا عليه.

وفيما قاله عيسى- عليه السلام - تذكير لكفار قريش أن ما جاء به محمد- صلى الله عليه وسلم - إليهم هو ما سبق أن جاء به النبيون والرسل من قبله من الدعوة إلى عبادة الله وحده، لا شريك له.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أي: اختلف بنو إسرائيل لما جاءهم عيسى، فصاروا فرقاً، منهم من صدق نبوته ورسالته، وقال: إنه عبد من عبيد الله، ومنهم من جعله ابناً لله، تعالى الله عن قولهم علواً

كبيراً، ومنهم من كذبه، واتهم أمه بارتكاب الفاحشة.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمِ الْإِيمِ﴾ وفي هذا تهديد

ووعيد للذين كذبوه بأنهم سيلاقون العذاب الأليم يوم القيامة.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

أي: هل ينتظر هؤلاء الذين كذبوه من اليهود والنصارى أن تأتيهم الساعة فجأة، وهم سادرون في غيهم وضلالهم، وتكذيبهم لما جاءهم به عيسى من البينات؟.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير أن عيسى -عليه السلام- أرسل إلى بني إسرائيل بالبينات؛ لكي يعودوا إلى رشدهم، ويهتدوا بما أنزل إليهم من التوراة والإنجيل، ويبين لهم ما كانوا يختلفون فيه من أحكام دينهم.
- أن المسيح -عليه السلام- جاء بالحكمة وبيان الدين، وحلّ الخلاف بين بني إسرائيل.

- وجوب الإيمان برسالة رسول الله محمد -صلى الله عليه وسلم-.

- تحريم الاختلاف في الدين، كما قال -صلى الله عليه وسلم-: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ

تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ

عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

- وعيد الله باليم العقاب لليهود والنصارى الذين جحدوا ما في التوراة والإنجيل من البشارة برسالة رسول الله محمد - ﷺ -، فكذبوه، ولا يزالون يكذبونه، ويستهزئون برسالته.

﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ٦٧ ﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ٦٨ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ٦٩ ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ ٧٠ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ٧١ ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ٧٢ ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ٧٣.

بيان الآيات:

﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: يوم تأتي الساعة فجأة يكون الذين تصادقوا وتحابوا من أجل الدنيا أعداء فيما بينهم.

﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ أما الذين تحابوا في الله، وتصادقوا من أجل هذه المحبة، فمحبتهم وصادقتهم تبقى ثابتة يوم القيامة.

﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي: ينادي

الله المتقين يوم القيامة ألا يخافوا من هول ذلك اليوم، ولا يحزنوا على ما فاتهم من متع الحياة الدنيا.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا﴾ هذا وصف لهم بأنهم الذين آمنوا بآيات الله ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أي: أسلموا أنفسهم لله رب العالمين ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ أي: ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم المؤمنات، تفرحون فيها خالدين مخلدين.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ﴾ أي: يطاف عليهم بآنية الطعام التي تتكون من ذهب ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ والمراد بها آنية الشراب المكونة من الذهب ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ﴾ أي: ما تتطلع إليه الأنفس من أطايب الطعام والشراب وغيره ﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ أي: فيها ما تلتذ له الأعين من النظر إليه .

﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: مخلدون لا يخرجون منها، ثم يقول الله لهم على سبيل الامتنان عليهم: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: أن أعمالكم الصالحة هي التي وفقكم الله بسببها إلى دخول هذه الجنة ﴿لَكُمْ فِيهَا فَلَكَهٌ كَثِيرَةٌ﴾ أي: متنوعة الأنواع والأصناف ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: تطعمون مما تختارونه منها.

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بأن المحبة في الدنيا إذا كانت مبنية على المنافع والأغراض الدنيوية سرعان ما تنتهي، فلا يبقى إلا المحبة في الله.
- فضل التقوى، كما قال -ﷺ-: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].
- أن الله يجمع بين المؤمن وزوجته أو زوجاته في الجنة إذا كن مؤمنات.
- أن الأعمال الصالحة سبب في دخول الجنة، ولكنها ليست حكماً لازماً لدخولها؛ لقول رسول الله -ﷺ-: «لا يدخل أحد الجنة بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة»^(١).

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ ٧٤ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ٧٥ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ٧٦ وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ٧٧ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ٧٨ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَاذِبُونَ ٧٩ أَمْ أَبْرَمُوا

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل، (رقم ٦٤٦٣)، ومسلم في كتاب صفة القيامة، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله، بل برحمة الله، (رقم ٢٨١٦).

أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ
وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتَئِبُونَ ﴿٨٠﴾ .

بيان الآيات:

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ خَالِدُونَ﴾ لما ذكر الله ما أعده للمتقين من النعيم ذكر حال المجرمين، وهم أهل الشرك والكفر بأنهم يخلدون في النار ﴿لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يخفف عنهم العذاب ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: حزينون ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: أن الله لم يظلمهم، وحاشا أن يفعل، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم بإصرارهم على الشرك والمعاصي، وعدم التوبة إليه، مع أنه قد أمهلهم، ووعدهم بالتوبة عليهم إذا تابوا.

﴿وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: نادوا مالكا خازن النار، يطلبون أن يقضي الله عليهم، فيموتوا إلى الأبد؛ لكي يستريحوا مما هم فيه من العذاب ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَكِئُونَ﴾ أي: أجابهم مالك بأنهم مخلدون في النار.

﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي: أن سبب عدم خروجكم من النار هو

تكذيبكم للحق الذي جاءكم، واستهزاؤكم به .

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَاذِبُونَ﴾ أي: كنتم تكفهون الحق، وتصدون عنه، وتكفهون أهله، وتحبون الباطل، وتدعون إليه، وتحبون أهله، ولما انتهت مهلتكم في الدنيا، وصرتم إلى ما صرتم إليه الآن من العذاب، فليس لكم إلا ما أنتم فيه.

﴿أَمْ أَبَرِّمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبَرِّمُونَ﴾ لما كان المشركون يكيّدون المكاييد لرسول الله - ﷺ -، ويدبرون الشرور، ويعملون للصد عن دين الله، توعدهم الله - ﷻ - إن هم فعلوا ذلك بأنه سوف يبرم أمرًا يبطل فيه كيدهم وشرورهم.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي: أيعظنون أننا لا نسمع ما يسرون وما يعلنون وما يدبرونه؟.

﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: نعلم ما هم عليه، والملائكة الحفظة يكتبون أعمالهم، فلا يخفى منها شيء.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير أن أهل الشرك والكفر يخلدون في العذاب إذا لم يتوبوا في الدنيا، وأن خلودهم فيه ليس بسبب ظلم الله لهم، فحاشاه أن

يفعل؛ لأنه كما قال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]،

وإنما السبب في خلودهم استمرارهم على المعاصي.

- أنهم يطلبون أن يقضي الله عليهم، فيموتوا موتاً أبدياً؛ حتى

يستريحوا من العذاب، فلا يقبل طلبهم، بل يبقون كما ذكر الله

عنهم بقوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ

عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، وقوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝ ١١﴾ الَّذِي

يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۝ ١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۝ ١٣﴾

[الأعلى: ١١ - ١٣].

- الترهيب من كتابة الملائكة؛ فإنها تُحْصِي كُلَّ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ.

- أن أهم سبب للعذاب والخلود فيه هو إنكار الحق، وتكذيب أهله، وتعظيم الباطل، وتقدير أهله.

- الحكم بأن الله يعلم بعلمه المطلق ما يخفيه العباد وما يعلنونه،

كما قال -ﷺ-: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾

[غافر: ١٩].

- أنه في الآية (٨٠) إخبار مستقبليٍّ عن سَمْعِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ الْمَطْلُوقِ فِي

الماضي والحاضر والمستقبل فيما يُسَرُّهُ الْمُشْرِكُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ، وفيما

يتناجون به بينهم، ورسل الله من الملائكة الكرام الحَفَظَةَ يكتبون عليهم كلَّ ما عملوا.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ ﴿٨١﴾ سُبْحَنَ رَبِّ
الْسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَحْضُوا
وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ .

بيان الآيات:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ في هذا أمر من الله
لرسوله أن يقول للمشركين: لو فرض أن الله ولداً-وحاشاه أن يكون له
ولد- فأنا أول العابدين له على ذلك، ولكني أتبرأ من الشرك به، وأنفي
أن يكون له ولد، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد، ولم يولد.
﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾
هذا تنزيه من الله لذاته العلية من أن يكون له ولد، فهو رب السماوات،
 ورب الأرض، ومن فيهما، ورب العرش، فتعالى وتقدس عما يصفه
الكافرون.

﴿فَذَرَهُمْ يَحْضُوا﴾ أي: اتركهم يتكلموا بباطلهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في
دنياههم، ويمرحوا فيها ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي:

يوم القيامة، وسيجدون فيه جزاء خوضهم ولعبهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- أهمية إقناع المدعو إلى الله بما يقيم الحجة عليه، ولو كان في هذا الإقناع ما هو مستحيل أصلاً، كما قال-تعالى:- ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾، وقد أريد به التوكيد على عبادة الله، والبراءة من الشرك به في جميع الأحوال.

- الحكم بتنزيه الله عن الولد، كما قال-تعالى:- ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

- تعليم الله-تعالى- لعباده المؤمنين التأدب معه، ولا سيما إذا ذكر أنه اتخذ ولداً، فإنه ينبغي تعظيمه بالتسبيح كما عَلِمْنَا في الآية (٨٢).
- تهديد الله للمشركين بسوء العذاب يوم القيامة.

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾
﴿٨٦﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾.

بيان الآيات:

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ أي: هو الذي يعبدُه أهل السماء، ويعبدُه أهل الأرض، فهو معبودهم، وهو معهم بعلمه وقدرته، يعلم ما يفعلون ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ أي: الحكيم في تدبيره، العليم بأمور خلقه.

﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: تقدس وتعالى الذي فطر السماوات والأرض، وأبدعهما، وخلق فيهما الخلق، وأحكم خلقهم ورزقهم ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: لا يعلم قيامها إلا هو ﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يرجع إليه جميع الخلق، فيجازيهم بأعمالهم.

﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ﴾ أي: لا تقدر هذه الأصنام والأوثان ولا الملائكة التي يعبدوها المشركون أن تشفع لهم يوم القيامة لما يلاقون العذاب، وهذا رد على زعمهم أن الذين يعبدونهم من الملائكة وغيرهم سوف يشفعون لهم ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ هذا استثناء من الحكم، والمراد: أن من شهد أن لا إله إلا الله، وآمن بالإسلام، وأدى ما فرض الله عليه من الفرائض، فالملائكة والأنبياء قد يشفعون له إذا أذن الله لهم؛ لقوله-تعالى-: ﴿مَنْ ذَا

الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴿٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥].

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بأن الله إله في السماء يعبدُه أهلها، وإله في الأرض يعبدُه أهلها، وهو معهم بعلمه، كما قال-تعالى:- ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣]، وهذا يبطل قول ابن عربي وأتباعه من الملحدين الذين قالوا بوحدة الوجود، وأنه لا انفصال بين الخالق والمخلوق، وأن وجود الكائنات هو عين الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

- الحكم بأنه الذي يعلم وحده علم الساعة، كما قال: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لَوُفَّتْهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

- أن كل معبود غير الله لا يقدر أن يشفع يوم القيامة لمن عبده، وأن الشفاعة لا تكون إلا لمن عبد الله وحده، وأخلص في عبادته، فهذا قد تشفع له الملائكة والأنبياء إذا أذن الله لهم في الشفاعة، كما قال- تعالى:- ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾
 وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾.

بيان الآيات:

﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي: إن سألت يا نبينا

محمدًا هؤلاء المشركين عن الذي خلقهم سيقولون لك: إن الله هو الذي خلقهم ورزقهم، ومع ذلك يعبدون معه غيره؛ مما يدل على سفاهتهم وجهلهم، فإذا كانوا يعترفون بربوبية الله ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي:

كيف يصرفون أنفسهم عن الحق، فينكرون توحيد الله في عبادته؟

﴿وَقِيلِهِ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يعلم الله قيل

محمد ﴿وَقِيلِهِ﴾ أي: قوله شاكيًا إلى ربه بأن قومه لا يؤمنون، رغم ما جاءهم به من البينات، كما أخرج الطبري بسنده الحسن عن قتادة قوله: ﴿وَقِيلِهِ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: «هذا قول نبيكم-عليه الصلاة والسلام-، يشكو قومه إلى ربه».

ويؤكد هذا التفسير قوله-تعالى-: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي

أَتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]. فأمره-ﷺ- أن يصفح

عنهم، وألا يجاريهم في مخاطبتهم له بالبذاءة، ولكن يتألفهم، كما قال-تعالى-: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾، ثم قال-ﷺ-:

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد ووعد لهم إن لم يتوبوا، وقد أنجز

الله ما وعد، فمن استمر منهم على كفره وعناده أخذ الله، كما حدث في معركة بدر وغيرها مما سبق ذكره، كما أخرج الطبري بسنده الحسن عن قتادة قوله-تعالى:- ﴿فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ قال: «اصفح عنهم، ثم أمره بقتالهم».

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير أن المشركين كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، وينكرون توحيد الألوهية؛ مما يدل على جهلهم؛ لأن العقل يقتضي أن الذي خلق الخلق، ورزقهم، ويدبر أمرهم هو المستحق وحده للعبادة، وليست الأجار التي لا تنفع، ولا تضر.
- وجوب الصبر على الأعداء عند العجز عن مقاومتهم، وعدم مجاراتهم في سفههم، مع وجوب الاستعداد لمجاهدتهم، وعدم الاستكانة لهم، كما قال-ﷺ:- ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ (٤٠)﴾ [الحج: ٣٩-٤٠].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الدخان

مكية، وآياتها تسع وخمسون آية

﴿حَمْ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾ .

بيان الآيات:

﴿حَمْ﴾ الله أعلم بمراده ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي: القرآن ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ أي: ليلة القدر من شهر رمضان، وقد وصفها الله بالبركة لما فيها من تنزل الرحمة، وقبول دعاء العباد ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ أي: مرسلين إلى الناس رسلاً ينذرونهم، ويعلمونهم ما يجب عليهم، حتى تقوم الحجة عليهم إذا لم يستجيبوا لما دعوهم إليه. ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: يفصل من اللوح المحفوظ ما في تلك السنة من آجال العباد وأرزاقهم، وما يحدث في الكون من

أحداث مما قدره الله من كل أمر حكيم أي: محكم، لا يتبدل، ولا يتغير، وأخرج الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق، وقد وقع اسمه في الموتى، ثم قرأ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ ﴿٢﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» يعني: ليلة القدر، ففي تلك الليلة يفرق أمر الدنيا إلى مثلها من قابل»^(١).

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: جميع ما يقدره الله في تلك الليلة أو في غيرها هو بأمر الله وإرادته .

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي: أرسلنا الرسل-ومنهم محمد-لإبلاغ العباد ما يجب عليهم من الإيمان بالله وطاعته، فأرسلهم رحمة للعباد؛ لأنهم يدلونهم على ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، كما قال- تعالى:- ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لما يقولون، العليم بما يسرون ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: فاطر السموات والأرض، ومبدعها وما بينهما ﴿إِنْ كُنْتُمْ

(١) قال الحاكم : «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، المستدرک، (٢/٤٤٨-٤٤٩)، كتاب التفسير، وصححه الذهبي، وأخرجه البيهقي عن الحاكم به، شعب الإيمان، (٧/٢٦١-٢٦٢)، (ح٣٣٨٨)، وقال المحقق: «إسناده رجاله ثقات».

مُوقِنِينَ ﴿٢٣٥﴾ أي: متحققين من ذلك علم يقين.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾

أي: هو المعبود الذي لا معبود بحق سواه، وهو القادر على إحياء الخلق وإماتتهم، وهو رب المخلوقين من أولهم إلى آخرهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- بيان عَظْمَةِ ليلة القدر وما فيها من البركات.
- الحكم بأن الليلة المباركة هي ليلة القدر، وأنها في شهر رمضان، كما قال-تعالى:- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وهذا يقتضي نفي قول من قال: إن الليلة المباركة هي ليلة النصف من شعبان.
- أن هذه الليلة أفضل الليالي على الإطلاق، كما قال-تعالى:- ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ ٣ ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ ٤ ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ ٥ [القدر: ٣ - ٥].
- أن الله يفصل من اللوح المحفوظ أحداث تلك السنة من الآجال والأرزاق، وما يحدث في الكون من أحداث.

- أن إرسال الرسل إلى العباد إنما هو رحمة لهم؛ لأنهم يدلونهم على ما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَأَرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَتَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ .

بيان الآيات:

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ لما بيّن -تعالى- للمشركين آياته على لسان رسوله، ودعاهم إلى توحيده، والبراءة من الشرك به، وقالوا: إنهم يؤمنون بأن الله هو الذي خلقهم، وأنهم يقرون بربوبيته، ثم ظلوا على عبادة أوثانهم، دلّ على أنهم غير موقنين بما جاءهم من الآيات، وأن ما يقولونه مجرد لعب وشكوك، فتوعدهم الله -تعالى- بقوله: ﴿فَأَرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: انتظر يا نبينا محمداً ما سيحل بهم؛ ذلك أن رسول الله -ﷺ- دعا على قريش لما آذوه قائلاً: «اللهم

اجعلها عليهم سنين كسني يوسف»^(١)، فاستجاب الله دعوته، فأصاب قريشاً من الجهد والبلاء ما أصابهم حتى هلك مواشيهم، وأصابهم من الجوع ما أصابهم مما لم يكونوا يتصورونه، فكان الواحد منهم يرفع رأسه إلى السماء فلا يرى إلا دخاناً يغشاه من شدة الجهد، كما قال-تعالى:- ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقد بعثوا إلى رسول الله يطلبون منه أن يدعو الله؛ ليكشف عنهم ما هم فيه من الضر والبلوى، وهو معنى قولهم: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾.

ثم قال-تعالى:- ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ أي: كيف يتذكرون اليوم وقد جاءهم رسول يبين لهم الحق، ويدلهم على ما ينفعهم، فأذوه، وسبّوه، واتهموه بالجنون؟، ثم بقدره الله-تعالى- وحكمته كشف عنهم ما كانوا يعانونه من القحط والجوع، ولكنهم لم يستمروا على ما كانوا يزعمونه من إيمانهم، بل ظلوا على شركهم.

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: قوله-تعالى:- ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾، (رقم ٤٥٩٨) ومسلم في كتاب المساجد، باب: استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، (رقم ٦٧٥).

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ أي: انتظر يا

نبينا محمدًا يوم نأخذ هؤلاء المشركين بقوتنا، وكان ذلك هو ما حدث لهم بالفعل يوم بدر حين قتل صناديدهم ورؤسائهم، كما أخرج

البخاري بسنده عن عبد الله بن مسعود قال: «إنما كان هذا لأن قريشاً

لما استعصوا على النبي -ﷺ- دعا عليهم بسنين كسني يوسف،

فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى

السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله- عز

وجل-: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشى النَّاسَ هَذَا

عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال: فأتى رسول الله -ﷺ-، ف قيل له: يا رسول الله!

استسقى الله لمضر، فإنها قد هلك، قال: «مضر»؟، إنك لجريء،

فاستسقى، فسُقوا، فنزلت: ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾، فلما أصابتهم

الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية، فأنزل الله- عز

وجل-: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ قال: يعني

يوم بدر»^(١).

(١) الصحيح، (٨/٤٣٤-٤٣٥)، (حديث ٤٨٢١)، كتاب التفسير، سورة الدخان، باب الآية، وأخرجه

مسلم في صحيحه، (٤/٢١٥٦-٢١٥٧).

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير أن الله قد صدق في وعده أن ينتقم من المشركين، حيث أصابهم القحط سبع سنوات إلى أن دعا رسول الله ربه أن ينقذهم مما أصابهم من الجهد، بعد أن وعدوا أنهم سيؤمنون بالله، وقد استجاب الله دعاءه، فنزل عليهم المطر، إلا أنهم عادوا إلى كفرهم.

- أن الدخان من علامات الساعة.

- أن حرب الإشاعة من أساليب الأعداء في كل زمان.

- أن الكفار يلجؤون إلى الله في الضراء، وينسون عبادته في السراء، كما قال-تعالى:- ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَتُوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتَّركِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: سبق أن بلونا قبل هؤلاء المشركين من قومك قوم فرعون، وهم القبط ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ هو موسى بن عمران-عليه السلام-قائلاً لهم: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ أي: سلموا لي بني إسرائيل، كما أخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد، في قوله: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ قال: «أرسلوا معي بني إسرائيل».

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: مأمون على ما بلغتكم به من عند ربي ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا تستكبروا وتستنكفوا عن اتباع آياته التي جئكم بها ﴿إِنِّي عَاتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ﴾ أي: أتيتكم بآيات بينات واضحة، فأمنوا بها، ولا تعلوا عليها.

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ أي: استجرت بالله من أن ترموني بسوء .

﴿وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزِلُونِ﴾ أي: إذا لم تصدقوا ما جئكم به فاتركوني حتى يقضي الله بيني وبينكم، وقد استمر موسى-عليه السلام- في دعوته لهم بالحسنى والمسألة، إلا أنهم لم يستجيبوا له،

فاضطر إلى الدعاء عليهم، كما قال -تعالى-: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ فَجْرُمُونَ﴾، كما أخبر الله -تعالى- عنه بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا ﴿٨٩﴾ [يونس: ٨٨ - ٨٩].

وقد أمره الله أن يخرج بقومه ليلاً، وأن فرعون سوف يتبعه، فلا يخشاه، كما قال -تعالى-: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبِعُونَ﴾، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَن أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧].

﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أي: اترك البحر ساكنًا؛ ذلك أن البحر لما انفلق فلقطين بعد أن ضربه موسى بعصاه، ودخل قوم موسى البحر، فسلكوه، أراد أن يضربه مرة أخرى؛ ليعود إلى حالته الأولى، فأمره الله أن يتركه على طبيعته، حتى إذا دخله فرعون وجنده انطبق عليهم، وهذا ما حدث تنفيذاً لحكم الله بقوله -تعالى-: ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ كما أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة في قوله -تعالى-: ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾: «كما هو طريقاً يابساً».

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الذين ينكرون آيات الله، ويكذبون رسله يتشابهون في سلوكهم، رغم فوارق الزمان والمكان؛ لأن الكفر ملة واحدة.
- تحريم العلو والاستكبار عن التصديق بآيات الله، كما قال- تعالى:- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢].
- وجوب الاستعاذة بالله، والاستغاثة به عند الشدائد والمحن؛ إذ لا معيذ ولا مغيث إلا هو.
- البشرى من الله- تعالى- للمؤمنين بالنجاة من الكرب والعذاب.
- مشروعية طلب المسألة من العدو إذا كان قادرًا على الغلبة والقهر.
- الحكم بأن كل من علا في الأرض، واستكبر فيها سيكون مصيره إلى الهلاك.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾

وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾

فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ

نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٥﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ
عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ اخْتَرْتَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾
وَعَاتَيْنَاهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٨﴾ .

بيان الآيات:

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ المراد: فرعون وقومه، فقد
تركوا بهلاكهم الكثير من البساتين والجنان بما فيها من الأنهار
والمياه، والمساكن الجميلة، والنعم التي كانوا يتفكحون منها من
أطياب الطعام والشراب، كما قال-تعالى-: ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ
﴿٣٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَلَکِهِنَّ ﴿٣٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٣٨﴾﴾
قيل: إن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون، ولعل
الصواب في تأويل الآية: أن بني إسرائيل ورثوا مثل هذه الجنان لما
ذهبوا إلى مكان آخر؛ ذلك أنه - كما سبق ذكره - ليس ثمة ما يدل
على أنهم عادوا إلى أرض مصر بعد ما خرج بهم موسى، فيكون المراد
ب- ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ من جاء بعد فرعون وقومه.

قوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: بهلاكهم لم
تبك عليهم السماوات؛ لأنه لم يكن لهم عمل صالح يصعد إلى السماء

حتى تبكيهم، ولم يكن لهم عمل صالح في الأرض تبكيهم عليه، فهي لا تبكي إلا على الذي كان يركع فيها، ويسجد فيها، ويذكر اسم الله فيها ﴿وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ أي: لم يمهلوا، بل عاجلتهم العقوبة جزاء وعدهم لموسى بالإيمان، ونكتهم لهذا الوعد.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أي: نجيناهم من إهانة فرعون لهم بقتل أبنائهم، وترك بناتهم للخدمة ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي: كان متكبراً عليهم، ومسرفاً في تعديه وظلمه.

﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ المراد بهم بنو إسرائيل، واختيارهم كان على أهل زمانهم؛ لأنهم كانوا موحدين، وأهل زمانهم كانوا مشركين، كما أخرج الفريابي والطبري بسند صحيح عن مجاهد في قوله-تعالى-: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ قال: «فضلناهم على من هم بين ظهرائهم».

﴿وَعَاتَيْنَاهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾ أي: أعطوا من البراهين ما فيه اختبار لهم؛ لكي يهتدوا، ويشكروا نعم الله عليهم، ولكنهم لم يفعلوا، فغضب الله عليهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بأن النعم لا تدوم إلا إذا أطاع العباد ربهم، فإذا عصوه سلبها منهم، وأورثها قومًا غيرهم؛ لقوله-تعالى:- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، ومن طاعة الله: شكره على نعمه، فإذا كفر بها العباد فقد عصوه، واستحقوا سلب نعمه منهم، كما قال-تعالى:- ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].
- عظمة العبادة، وكيف أن السماء تبكي على العبد إذا مات، وانقطع رفع عمله إليها، وكيف أن الأرض تبكي على من كان يركع ويسجد فيها.
- وقد أخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس أن رجلاً سألَه قائلًا: أرأيت قول الله-تعالى:- ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ فهل تبكي السماء والأرض على أحد؟، قال: «نعم! إنه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب في السماء، منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن، فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد منه عمله، وينزل منه رزقه، ففقدته بكى عليه، وإذا

فقداه مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها، ويذكر الله -ﷻ- فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم تكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى الله -ﷻ- منهم خير، فلم تبك عليهم السماء والأرض»^(١).

- تحريم الاستعلاء والكبر، وقد مر ذكر الشواهد فيه.
 - أن النعمَ مهما عظمت في الدنيا فإنها زائلة.
 - أن المراد من اختيار بني إسرائيل على العالمين اختيارهم على أهل زمانهم، فهم كانوا أفضل منهم؛ لأنهم كانوا موحدين، وأهل زمانهم مشركون، كما قيل: إن لكل زمان عالماً، فلما عصى بنو إسرائيل لم يكونوا أفضل من غيرهم، فالأصل هو الدين، ولا عبرة بغيره.
 - أن الله يبتلي العباد بأنواع من المصائب؛ ليرى أيصبرون ويشكرون أم يكفرون؟، فيترتب عندئذ جزاؤهم حسب عملهم.
- ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

(١) أخرجه محمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة، (رقم ٣٢٨).

بيان الآيات:

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ﴾ هذا بيان من الله بأن المشركين يقولون في إنكارهم للبعث: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي: ما هي إلا مorte واحدة، وليس بعدها بعث ولا نشور، فإن كان البعث حقاً وصدقاً كما تقولون.

﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: أعيدوا لنا آباءنا وأجدادنا الذي مضوا، وفي قولهم هذا تلبيس وحجة باطلة، فالأموات لا يعودون إلى الحياة الدنيا، وإنما يبعثون ليمضوا إلى يوم القيامة، وقد توعد الله المشركين بأن بأسه لا يرد عنهم، وأنه قادر على إهلاكهم، كما أهلك من كان قبلهم من الأمم التي كذبت بالبعث، ومنهم التبابعة قوم سبأ وغيرهم، كما قال-تعالى:- ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

أحكام وفوائد الآيات:

- التوكيد على بعث الأموات للحساب والجزاء يوم القيامة.
- فساد حجج المنكرين للبعث حين يطلبون إعادة الأموات إلى

الدنيا، في حين أن البعث خاص بيوم القيامة.

- تذكير المشركين أنهم لن يكونوا أكثر قوة، ولا أفضل ممن أهلكهم الله من الأمم قبلهم، كقوم سبأ وغيرهم.
- ذم المشركين لجهلهم، وعدم استفادتهم من الوحي، وما فيه من الهدى والآداب.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ ۚ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۚ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ۚ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۚ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۚ ﴿٤٢﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ ۚ﴾ هذا بيان من الله -ﷻ- ينزه فيه ذاته العلية عن اللعب في خلق السماوات والأرض، وأنه إنما خلقهما بالحق، حيث جعلهما مكاناً لعبادته وشكره وتعظيمه، فمن فعل ذلك فقد استحق جزاءه، وهو المقام المحمود عنده في الآخرة، وقد أكد الله -جل وعلا- هذه الحقيقة في

قوله- تعالى:- ﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي: إن هؤلاء المنكرين للبعث جهلة في فهمهم، وضعاف في عقولهم حين ينكرونه، لو كانوا يعلمون حق العلم لعرفوا أن الله ما أوجد الخلق إلا لحكمة، وأنه ما خلقهم وأماتهم إلا ليعيدهم إليه؛ ليجزي كلًا بما عمل في الدنيا.

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي: يوم القيامة حيث يحكم الله بين خلقه، فيجزي المؤمن على إيمانه، ويجزي الكافر على كفره.

﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي: في ذلك اليوم لا ينفع قريب قريبه، ولا خليل خليله، وإنما هي الأعمال تحصى، ويجزى كل بما عمل .

﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ ﴾ أي: وفي ذلك اليوم لا تغني نفس عن نفس شيئًا، وإنما هي رحمة الله يرحم بها عباده يوم يقفون عنده، كما خلقهم أول مرة .

﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أي: يرحم برحمته عباده المتقين، وينتقم بعدله من الكافرين.

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بأن الله-جل وعلا-منزه عن العبث، كما قال-ﷻ:-
﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ
الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]،
وقال-أيضاً:- ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَتَّكُمُ إِلَيْنَا
لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

- الحكم بأن يوم القيامة هو اليوم الذي يفصل الله فيه بين
خلقه، حيث يحصي أعمالهم، ويجزي كلًّا منهم بما عمل،
وحينئذ لا ينفع ولي وليه، ولا قريب قريبه، وإنما هي رحمة الله
لخلقه، فيتجاوز عن سيئات الذين عملوا الصالحات، ويرضى
أن يشفع الملائكة والأنبياء لمن يشاء من عباده، ويخرج من
النار من كان في قلبه ذرة من إيمان ممن آمن به ربًّا، وبالإسلام
دينًا، وبمحمد-ﷺ-نبيًّا ورسولًا.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي
الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾
ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ

الْكَرِيمِ ﴿٤١﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٤٢﴾ .

بيان الآيات:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ لما ذكر الله يوم

القيامة، وما فيه من الحساب والجزاء، بين ما يناله الكافر فيه من العذاب، ومن ذلك: أن طعامه من شجرة الزقوم، وهي من أخبث الأشجار، وأشدّها مرارة ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ أي: كالمعدن المذاب يغلي في البطون من شدة حرارته .

﴿كَغَلِي الْحَمِيمِ﴾ أي: يغلي كما يغلي الماء الشديد في حرارته ﴿خُذُوهُ﴾ أي: يقال للزبانية: سوقوا الكافر ﴿فَاعْتَلُوهُ﴾ أي: ادفعوه بشدة .

﴿إِلَى سَوَاءٍ الْجَحِيمِ﴾ أي: إلى وسطها ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ أي: صبوا فوق رأسه من الماء الشديد في حرارته

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أي: تقول له الزبانية على وجه

السخرية به: ذق هذا العذاب، فأنت اليوم لست بعزيز ولا كريم

﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أي: هذا هو العذاب الذي كنت

تجادل فيه، وتكذب به.

أحكام وفوائد الآيات:

- وصف طعام الكفرة يوم القيامة، ومنهم: أبو جهل، فقد ذكر أنه المقصود بكلمة ﴿الْأَثِيم﴾، وهي تشمله كما تشمل كل كافر، وهذا الطعام هو ثمر شجرة الزقوم، وكان أبو جهل يجمع أولاده، ويضع بين أيديهم الزبد والتمر، ويقول لهم: تزقموا، هذا هو الزقوم الذي يتوعدنا به محمد^(١).
- شدة عذاب الكفرة، وما يلاقونه من الإهانة والذل والخزي يوم القيامة، لقاء ما كانوا يهينون المؤمنين في الدنيا، ويسخرون منهم.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَرَزَجْنَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلَّأَ مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

(١) تفسير الطبري، (١٩/٥٥٢).

بيان الآيات:

لما ذكر الله شقاوة الكفار يوم القيامة ذكر سعادة المتقين، فقال-عز ذكره-: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ والمراد بهم: المؤمنون الذين اتقوا الله في السر والعلن، فأعدَّ لهم المقام الكريم، وهو مقرهم ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: جنات تجري فيها العيون بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر .

﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ أي: يلبسون من السندس، وهو رقيق الحرير، كما يلبسون الإستربق، وهو غليظه، ويتقابلون في الجنة، أي: تتقابل وجوههم على سررهم .

﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: يتزوجون من الحور المخلوقات في الجنة، ومن صفاتهن: أنهن واسعات الأعين وحسانها ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَلَكَهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ أي: يطلبون ما يشاؤون من أنواع الفواكه التي لا تنقطع عنهم ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ أي: هم مخلدون في الجنة، لا يموتون إلا الموتة التي حدثت لهم في الدنيا .

﴿وَوَقَّعْنَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: حفظهم الله، ونجاهم من عذاب النار بفضل رحمته لهم، وامتنانه عليهم بقبول أعمالهم الصالحة في

الدنيا، وهذا هو معنى قوله -ﷻ-: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: هذا هو الفوز الذي نجاهم الله به من العذاب، وأدخلهم به الجنة.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ هذا بيان من الله -ﷻ- أنه أنزل هذا القرآن سهلاً وبيناً في ألفاظه ومعانيه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لعل الذين أنزل عليهم يفهمونه، ويعملون به ﴿فَأَرْتَقِبْ﴾ المخاطب رسول الله -ﷺ-، والمراد: انتظر ماذا سيحدث للمكذابين به ﴿إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ﴾ أي: سيعلمون أن العاقبة الحسنی في الدنيا والآخرة إنما هي لك وللمؤمنين معك.

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بأن التقوى هي أساس الفوز في الدنيا والآخرة، وأن المتقين هم أهل السيادة في الأرض، كما قال -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، كما أن المتقين هم الذين يرثون الجنة، كما قال -تعالى-: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].

- بيان أحوال أهل الجنة، وما لهم من النعيم المقيم فيها.

- أنه في الآخرة لا موت إلا مودة واحدة، هي التي ذاقوها في الدنيا؛ لما ثبت عن رسول الله -ﷺ- أنه قال: «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة! خلود فلا موت، ويا أهل النار! خلود فلا موت»^(١).
- أنه في الآية (٥٦) إخبار مستقبلي، وبشارة لعباد الله المتقين بأنهم لا يذوقون في الجنة الموت بعد المودة الأولى التي ذاقوها في الدنيا، وبأن الله سيقيهم عذاب الجحيم.
- بيان مكانة اللغة العربية، فهي اللغة التي نزل القرآن بها.
- أن القرآن نزل بلغة العرب، وهي أفصح اللغات وأبينها؛ ليكون أيسر لفهمه، وأجلى لمعانيه، كما قال-تعالى-: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].
- أمر الله رسوله -ﷺ- وهو يدعو قومه أن يصبر، ويرتقب ما يقدره الله، فيتوب على من تاب منهم، وآمن به، ويجازي من كذب به.

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: قوله-تعالى-: ﴿وَأَنذَرُهم يَوْمَ الْحُسْرَةِ﴾، (رقم ٤٧٣٠)، ومسلم في كتاب الجنة، باب: «النار يدخلها الجبارون»، (رقم ٢٨٤٩).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الجاثية

مكية، وآياتها سبع وثلاثون آية

﴿حَمْدٌ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَأُخْتَلِفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ءَايَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ .

بيان الآيات:

﴿حَمْدٌ﴾ الله أعلم بمراده ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ هذا بيان من الله أن القرآن قد نزل من عند الله العزيز في ملكوته وسلطانه، الحكيم في تدبيره وتصريف خلقه ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن في خلق السماوات وما فيها من الملائكة، والشمس والقمر، والأفلاك العظيمة، وما في الأرض من الإنس والجن، والدواب، والجبال، والبحار، والأنهار، والأشجار، دلالات وعبراً عظيمة للذين يؤمنون بربهم، ويوحدونه،

ويطيعونه، فيعرفون أنه الخالق الذي لا خالق إلا هو، وأنه لا معبود بحق إلا هو.

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي: وفي خلقكم ومراحل

هذا الخلق من نقطة صغيرة إلى كائن حي متكامل القوى، وفي بث الدواب في الأرض: صغيرها وكبيرها، وبريها وبحريها، ومختلف أنواعها .

﴿ءَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: دلالات وعبر للذين يوقنون بربوبية

ربهم، وألوهيته، وعظمته، وتفردته في أسمائه وصفاته ﴿وَأُخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ أي: في تعاقبهما في نظام دائم، لا يتغير، ولا يتبدل

﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ

مَوْتِهَا﴾ أي: بعدما كانت ميتة عديمة الحياة .

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ من غربية إلى شرقية، ومن جنوبية إلى

شمالية، ومن رياح تسوق السحاب إلى رياح تسوق العذاب، كما أخرج الطبري بسنده الحسن عن قتادة، في قوله-سبحانه-:

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ قال: «تصريفها إن شاء جعلها رحمة، وإن

شاء جعلها عذابا».

﴿ءَايَاتُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: دلالات للذين يتفكرون في عظمة الله، ويعلمون أنه الحق الذي يدبر خلقه، ويتصرف فيهم بحكمته وإرادته.

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بأن القرآن نزل من عند الله نزولاً لا مرأى ولا شك فيه؛ لقوله-تعالى:- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وقوله-عز ذكره:- ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [غافر: ٢]، والآيات في هذا كثيرة، وهي تفنيد ورد لدعاوى المشركين والكافرين الذين تماروا في القرآن بعد أن أعماهم الجهل، وطبع الله على قلوبهم بسبب كفرهم، فلم يعودوا يفرقون بين الحق والباطل.
- وجوب التفكير في آيات الله العظيمة الظاهرة والمتمثلة في خلق الكون، وما يمثله هذا الوجود من عوالم ظاهرة للخلق، وباطنة لا يعلمها إلا الذي خلقها.
- لَفَتْ الْأَنْظَارُ إِلَى الْبَرَاهِينِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.
- أَنَّهُ فِي الْآيَةِ (٤) إِخْبَارٌ مُسْتَقْبَلِيٌّ فِي الْحِكْمَةِ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ، وَخَلْقِ

ما تَفَرَّقَ في الأرض من الدوابِّ التي تَدْبُ عليها، فهي حُجَجٌ وأدَلَّةٌ لقوم يوقنون بالله وشرعه.

- أن المخاطبين بهذا التفكير هم العقلاء الذين ترشدهم عقولهم إلى الإيمان بالله، واليقين بآياته العظام.

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيُلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَّرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴿١١﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ ﴿٦﴾ لما بَيَّنَّ-وَعَلَّلَ-آياته الكونية الدالة على عظمته وقدرته، بَيَّنَّ-تعالى-أنها آيات كلها حق، يعرفها البر والفاجر، ولا يماري فيها إلا من انطبع قلبه بالكفر، وصار على قلبه غشاوة، فإذا لم يؤمن كفار قريش بالله وبآياته التي

يبصرونها بأعينهم، وما يتلى عليهم من القرآن ومعانيه من البراهين القاطعة، فبأي شيء يؤمنون؟ وبأي برهان يصدقون؟، وهو معنى قوله- تعالى:- ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾.

ثم توعدهم- عجل- من يجحد آياته بقوله: ﴿وَيُلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي: ويل -وهو واد في جهنم - لكل كذاب كافر بآيات الله، أثيم في قلبه

﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: تقرأ عليه ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ أي: على كفره وكبره ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي: كأنها لم تتل عليه ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: أبلغه يا نبينا محمداً أن العذاب الأليم ينتظره يوم القيامة، وأنه ملاقيه.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ أي: إذا عرف هذا الأفاك الأثيم المتكبر شيئاً من القرآن استهزأ به، وسخر منه ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: سوف يجزون العذاب والخزي والذلة يوم القيامة لقاء استهزائهم واستكبارهم.

ثم فسر- عجل- هذا العذاب بأنه جهنم التي سيساق إليها المشركون المكذبون، فلا ينفعهم حينئذ ولي ولا شفيع، ولا مال ولا ولد، ولا تنفعهم الأصنام والأوثان، وكل ما كانوا يعبدونه من دون الله، كما

قال-تعالى:- ﴿مِّنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ﴾.

ثم أكد على عظم العذاب الذي سيلاقونه بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٥﴾ هَذَا هُدًى أي: إن هذا الهدى المنزل عليك يا نبينا محمداً هدى للناس إن آمنوا به، فقد اهتدوا في دنياهم، ونجوا في آخرهم، أما الذين يكفرون به وبآيات الله الدالة على وحدانيته فسوف يلقون عذاباً من رجز أليم، وهو أشد العذاب وأغلظه، كما قال-تعالى:- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٍ﴾.

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بأن من لم يهتد بالقرآن وما فيه من الآيات الدالة على عظمة الله فلن يهتدي أبداً.
- الوعيد الشديد للذي يتلى عليه القرآن، ثم يتعامى عنه مستكبراً، ومعرضاً عنه، ومكذباً له، كما قال-تعالى:- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٧].
- التحذير من ترك أحكام الله-تعالى-، ولا سيما مَنْ عَرَفَ هذه الأحكام.

- تقرير الوعيد الشديد للذي يستهزئ بالقرآن، أو يسخر منه، وفي هذا روى ابن عمر- رضي الله عنهما-: «أن رسول الله ﷺ- نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو، مخافة أن يناله العدو»^(١).

قلت: وقد كثر في هذا الزمان الذي استحكم فيه الأعداء بقوتهم على المسلمين الاستهانة بكتاب الله، وتدنيسه تارة، وتكذيبه تارة أخرى ﴿يُرِيدُونَ لِيُظْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

- أن العمل الصالح هو الذي يغني العبد يوم القيامة، وأن ما عداه من المال والولد وغيره لا يغني عنه شيئاً، كما قال- تعالى-: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩].

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ أَلْفُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب: السفر بالمصاحف إلى أرض العدو، (رقم ٢٩٩٠)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب: النهي أن يسافر بالمصحف إلى أرض الكفار إذا خيف وقوعه بأيديهم، (رقم ١٨٦٩).

يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

بيان الآيتين:

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ هذا بيان من الله-تعالى-أنه الذي سخر البحر، وذلك لخلقه حتى تجري السفن فيه بأمره، آمنة مطمئنة، وهي تنقلهم من مكان إلى مكان ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: لتطلبوا أرزاقكم من التجارة وغيرها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لعلكم تشكرون الله على ما سخره لكم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سخر لكم ما فيهما من الكواكب والبحار والأنهار والجبال والأشجار ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي: كل ذلك من عنده ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إن في هذا التسخير عبراً وعظات للذين يتفكرون، فيعلمون أنه ما كان هذا ليكون لهم إلا بتقدير الله.

أحكام وفوائد الآيتين:

- تقرير نعم الله على خلقه، وأنها كلها من عنده، كما قال-ﷻ:-

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ

تَجْرُونَ ﴿ [النحل: ٥٣].

- قال العلماء: للبحر قانون يقول: «إن كل جسم غاطس في الماء يتلقى من الأسفل إلى الأعلى دفعا عموديا قائما مساويا لوزن الماء المعادل لحجم هذا الجسم، ولولا هذا القانون لما أمكن أن يُركب البحر، ولما وجدت في البحر سمكة واحدة»^(١).

- أن نعم الله على خلقه تقتضي منهم الشكر عليها، وعدم الكفر بها، كما قال-تعالى:- ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ الآية

الأولى نزلت أيام ضعف المسلمين في مكة وتسلط المشركين عليهم، وفيها: أمر الله رسوله بإبلاغ المؤمنين أن يصبروا على أذى المشركين،

(١) <http://nabulsi.com/blue/ar/artp.php?art=4035>.

ويتحملوا إساءتهم؛ تأليفاً لهم، ورغبة في هدايتهم، فلما أصرّوا على كفرهم أذن الله لرسوله والمؤمنين بقتالهم ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: سوف يجزي بالعذاب القوم الذين لم يؤمنوا منهم بسبب إصرارهم على الكفر.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: إن من عمل عملاً صالحاً فإن نفع عمله يعود إليه، ومن أساء فإن إثم إساءته يعود إليه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: سوف تعودون إليه أيها الخلق يوم القيامة، فيجزي كلا بما عمل، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

أحكام وفوائد الآيتين:

- تقرير تسامح المسلمين مع الكفار إذا كان المسلمون في حال من الضعف والكفار في حال من القوة، ولكن هذا التسامح لا يعني التنازل عن الثوابت من الدين، وإنما المراد المهادنة والصلح إلى أن يكون المسلمون في حال من القوة.

- الحكم بأن عمل المرء يعود إليه في نفعه أو ضرره، كما قال -تعالى-:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]. وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ

بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَعَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ هذا بيان من الله يذكر فيه امتنانه على بني إسرائيل، حيث أنزل عليهم الكتب، وجعل منهم الأنبياء والرسل، ورزقهم من طيبات الدنيا من المطاعم والمشارب، وفضلهم على أهل زمانهم، كما قال-تعالى-: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، وذلك لأنهم كانوا -كما ذكر من قبل- على التوحيد، وأهل زمانهم كانوا على الشرك.

﴿وَعَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي: مما جاءت به كتبهم، كالتوراة والإنجيل لما كانوا مستقيمين على الدين ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: بعدما جاءتهم رسالة رسول الله -ﷺ- اختلفوا فيها ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: حسداً له، كما قال-تعالى-: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا

حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴿١٠٩﴾ [البقرة: ١٠٩].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

أي: يحكم بينهم، فيتبين الحق من الباطل.

أحكام وفوائد الآيتين:

- أن تفضيل بني إسرائيل - كما ذكر من قبل - لم يكن أبداً لجنسهم، ولا لمحبة الله لهم كجنس، كما يعتقد الغلاة والمتعصبون منهم، والمتعصبون من النصارى، وإنما كان تفضيلهم على أهل زمانهم لما كانوا مستقيمين على الدين، فلما فسقوا، وقتلوا الأنبياء، مقتهم الله بقوله: ﴿وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

- ذمُّ الاختلاف، والتحذير من الظلم.

- أن بني إسرائيل لما علموا بنبوة ورسالة رسول الله محمد - ﷺ - كما وردت في التوراة حسدوه وحسدوا العرب؛ لكونه منهم، فناصبوه العدا، وكادوا له المكائد.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ
الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرُ
لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

بيان الآيات:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ لما ذكر الله أن
اليهود سلكوا مسلك البغي والحسد لرسوله محمد - ﷺ - بين له أنه
جعله على شريعة من الدين الذي ارتضاه له ولأمته، وهو دين الإسلام،
وأمره باتباع هذه الشريعة .

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تتبع أهواء الذين لا
يعلمون شيئاً من الدين، كحال كفار قريش، ومن كان مثلهم من أهل
الكتاب من اليهود والنصارى ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ
شَيْئًا﴾ أي: إن اتبعت أهواءهم فلن ينفعوك مما يضرك جراء اتباع
أهوائهم .

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: إنهم يتناصرون في
الدنيا على الباطل، فيدفعون الحق بأقوالهم وأفعالهم، وأما في الآخرة

فلا يستطيعون نصراً لأنفسهم ولا لغيرهم، بل يكفر بعضهم ببعض، ويتبرأ منه ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: يتولاهم يوم القيامة برحمته ولطفه، فينجيهم من عذابه.

﴿هَذَا بَصِيرٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ المراد به القرآن، فهو نور يبصر به المؤمنون مسالكهم، وهو هدى وحماية لهم من الضلال، وهو رحمة لهم في الدنيا والآخرة.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير أن الله جعل لرسوله محمد - ﷺ - وأمته دين الإسلام شريعة لهم، وأمرهم باتباعه، والالتزام بأحكامه، كما قال - تعالى -: ﴿أَتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

- التحذير من اتباع أهل الأهواء الذين يعارضون الحق، ويدعون إلى الباطل، كما قال - تعالى -: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنِ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال - عز ذكره -: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

- أن الظالمين يوالي في الدنيا بعضهم بعضاً، كما قال - تعالى -:

﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: ٦٧]، أما في الآخرة فيتبرأ كل

منهم من وليه في الدنيا.

- أن الله يتولى المؤمنين يوم القيامة بولايته.

- أن القرآن نور يبصر به المؤمنون في الدنيا والآخرة، وهو هدى
ورحمة لهم في الدنيا والآخرة.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ
﴿٦١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا
كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ هذا استفهام إنكاري،
والمراد: هل يظن الذين يرتكبون المعاصي، فيحلون ما حرم الله،
ويدفعون الحق، وينصرون الباطل، ويضلون عن سبيل الله ﴿أَنْ
نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ
وَمَمَاتُهُمْ﴾؟ أي: يتساوون مع الذين آمنوا بالله، وأحلوا حلاله،

وحرّموا حرامه، وأقاموا الصلاة، وأدّوا زكاة أموالهم، ونصروا الحق، وجاهدوا الباطل، هذا من المستحيل، فهؤلاء لا يتساوون في محياهم ومماتهم، بل هم فريقان، فالْمُؤْمِنُونَ لهم حسن المآب، والكافرون لهم سوء العذاب .

﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء ظنهم في تساوي أصحاب السيئات مع أصحاب الحسنات؛ لأن هذا يتنافى مع العدل، ويتنافى مع الحق الذي خلق الله به السماوات والأرض، وخلق به الخلق، كما قال-عز ذكره-: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ .

وقوله: ﴿وَلِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: ومن أسس هذا الحق والعدل: أن يجازى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: ومن أسس هذا الحق والعدل: أن الله لا يظلم أحداً من خلقه، فحاشاه ذلك، بل هو الرحمن الرحيم، ولكن حكمته اقتضت أن يكون العدل هو الميزان بين خلقه، فيجزي كل واحد منهم بما عمل.

أحكام وفوائد الآيتين:

- عدم التساوي مطلقاً بين البر والفاجر، والمؤمن والفاسق، كما يزعم الكافرون؛ لقوله-تعالى-: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ

جَنَّتِ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا
فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ
لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ [السجدة:
١٨ - ٢٠].

- أن من العدل والحق الذي خلق الله السماوات والأرض به: أن
يجزي الله كلاً بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال-
تعالى:- ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨].

﴿أَفْرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ
سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٣﴾.

بيان الآية:

﴿أَفْرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أي: أن من العجب أن يطيع
المرء هواه، فيكون معبوده يأتمر بأمره، وينتهي عن نهيه، معرضاً عما
جاءه من الحق ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: أضله الله لما علم أنه
يستحق الضلالة بعدما جاءته البراهين، فأعرض عنها، واتبع هواه
﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ أي: لم
يعد سمعه يسمع الحق، ولا قلبه ينتفع به، ولم يعد بصره يبصره؛ لما

أصابه من غشاوة الضلالة ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ أي: بعد هذا الذي أصابه بسبب ذنوبه لن يهديه أحد بسبب عدم هداية الله له ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تعتبرون أيها الخلق، فتلجؤوا إلى الله بعمل الصالحات، وترك السيئات، حتى يكتب الله لكم الهداية، ويجنبكم الضلالة؟.

أحكام وفوائد الآية:

- الحكم بأن الهوى أعظم خطر يتعرض له المرء؛ ذلك أنه إذا اجتنب أوامر الله وأحكامه، وأعرض عن ذكره، أصبح هواه يتحكم في سلوكه، فيكون بمثابة معبوده، يأتمر بما يأمره به، وينتهي عما ينهاه عنه، فيرى الحسن سيئاً والسيئ حسناً، كما قال -ﷺ-: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوُّ عَمَلِهِ فَرَّاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

- أن الهوى يورث الضلال؛ ذلك أن الله -ﷻ- يضل بعلمه من يعرض عن ذكره، ويتبع هواه بعدما يأتيه من البراهين، فلا يهديه بعدئذ أحد، كما قال -تعالى-: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَى

عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ .

بيان الآيات:

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ هذا بيان من الله عن أقوال الدهريين الكفار من مشركي العرب في إنكار البعث والحساب والجزاء، ومرادهم: أنه ما من حياة إلا حياة واحدة، يولد فيها أناس، ويموت فيها أناس، فلا بعث، ولا نشور ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أي: لا يحيينا ويميتنا إلا الزمان ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: ليس لهم فيما يقولونه علم عقلي أو نقلي ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: يتخرسون ويزعمون، وسيعلمون عاقبة ظنهم يوم يبعثون، ويرجعون إلى الله.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: إذا تليت عليهم الآيات الدالة على وجود الله، وعظمته، وقدرته على إحياء الموتى، لم يكن لهم من حجة أو برهان إلا أن قالوا: أعيديوا لنا آباءنا الأولين إن كنتم صادقين فيما تقولون، كما أخبر الله بذلك عنهم بقوله: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ

يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴿٢٤﴾ أي: قل يا نبينا محمدًا لهؤلاء الدهريين الكفرة: إن الله هو الذي أحياكم، حيث كنتم عدماً بلا وجود، فأوجدكم، ثم يميتكم رغماً عنكم، فهو القادر إذن على أن يجمعكم إلى يوم القيامة جمعاً لا شك فيه، كما قال-تعالى-: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: بسبب جهلهم وضعف عقولهم ينكرون البعث.

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بإبطال دعوى الدهريين الملاحدة إنكار وجود الخالق، وزعمهم أن الذي يحييهم ويميتهم هو تكرر الزمان.
- تقرير أن دعواهم ليس لها سند عقلي أو نقلي، وإنما هي مجرد ظن نتيجة فساد عقولهم وضلالهم.
- أنه في الآية (٢٤) إخبار مستقبلي، وإثبات للبعث بعد الممات.
- بيان مشهد من حوار غير المسلمين؛ ليظهروا أنهم على حق.
- أنه ليس للدهريين من حجة إلا طلب إحياء آبائهم وأجدادهم، وهذا يتنافى مع سنة الله في خلقه، التي اقتضت أن الأموات يبعثون عند قيام الساعة للعودة إلى الله للحساب والجزاء.

- تقرير أن كثيراً من الناس لا يعلمون الحق من الباطل بسبب تحكيمهم لأهوائهم، وبعدهم عن الله، وما جاء في كتابه وسنة رسوله محمد - ﷺ -.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِذِ يَحْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: الحاكم لهما، المدبر لهما، والمتصرف فيهما، وخلقهما أعظم من خلق الناس، وإحيائهم بعد مماتهم، كما قال - تعالى -: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِذِ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: يوم يبعث

الله الناس من قبورهم سوف يخسر المكذبون بالبعث رحمة ربهم

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً﴾ أي: سوف ترى يا نبينا محمداً أن كل أمة

يوم القيامة جاثية، أي: باركة على ركبها، خوفاً من هول ذلك اليوم

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ أي: إلى صحائف أعمالها ﴿الْيَوْمَ

تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: تجزون في هذا اليوم على أعمالكم، إن

خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي: هذا كتابنا المدونة فيه

أعمالكم يتكلم بالحق من غير زيادة على ما عملتم، ولا نقصان لما

عملتم ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: نأمر الملائكة

الحفظة أن يكتبوا جميع أعمالكم؛ لتجدوها ماثلة أمامكم، فيرى الذين

آمنوا وعملوا الصالحات أعمالهم، ويسرون بها، فيشملهم ربهم

برحمته، ويفوزون فوزاً عظيماً بما من الله عليهم، كما أخبر الله عن

ذلك بقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي

رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ وأما الذين كفروا فيلاقون التوبيخ على

إجرامهم واستكبارهم عن سماع آيات الله عندما تتلى عليهم، فيقول

الله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ

وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١﴾، ولم يكن هذا فعل هؤلاء المجرمين من الاستكبار عن سماع آيات الله فحسب، بل إذا ذكر لهم قيام الساعة والبعث تجاهلوه، وقالوا: ما ندري ما هو؟، وإنما نظنه مجرد ظن، ولسنا بمتحققين منه، كما قال-تعالى-عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ﴾.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير بعض ما يحدث يوم القيامة للكافرين من خسرانهم لأنفسهم بسبب كفرهم.
- دقة الحساب بعد إحصاء ونسخ الأعمال.
- أن الأمم تجثو يوم القيامة على ركبها من شدة ما ترى من هول ذلك اليوم، فتدعى كل واحدة منها؛ لتقرأ كتاب أعمالها، وهنا ينقسم الناس إلى فريقين: فريق المؤمنين، وهؤلاء تشملهم رحمة ربهم بسبب أعمالهم الصالحة، وفريق الكافرين، فيؤخذون للعذاب بسبب استكبارهم عن سماع آيات الله التي كانت تتلى عليهم في الدنيا، وبسبب إجرامهم، وعدم يقينهم بالبعث.

﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِلُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَّصَرِّينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكُمْ بِأَنكُم أَخَذْتُمُ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ .

بيان الآيات:

﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي: ظهر للمجرمين من كتابهم أعمالهم السيئة التي ارتكبوها. ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: أحاط بهم العذاب الذي كانوا لا يصدقون به، وإنما كانوا يستهزئون عند ذكره لهم.

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِلُكُمْ﴾ أي: تعاملون اليوم بنسيانكم لتمكنوا في العذاب ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: كما كنتم تنسون هذا اليوم، فلم تعملوا له ﴿وَمَاْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَّصَرِّينَ﴾ أي: مقركم اليوم النار، وليس لكم من ناصر ينصركم. ﴿ذَلِكُمْ بِأَنكُم أَخَذْتُمُ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا﴾ أي: أن ما تلاقونه

من العذاب اليوم إنما كان جزاء استهزائكم وتكذيبكم بما جاءكم من الآيات والبراهين ﴿وَعَرَّتْكُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: وكان هذا العذاب بسبب اغتراركم بمتع الحياة الدنيا وزينتها، ونسيانكم للجنة ونعيمها

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يخرجون في ذلك اليوم من النار، ولا يطلب منهم توبة عما فعلوا؛ لانتهاء وقتها في الدنيا. ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: له كامل الحمد، فهو مالك الكون ومدبره ومصرفه. ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: العظمة والعلو في ملكوت السماوات والأرض. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْقَاهِرُ الْغَالِبُ الْحَكِيمُ﴾ في تدبيره للملكوته، فتقدست أسماؤه وصفاته، وقال ابن كثير: «ثم قال: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال مجاهد: يعني السلطان، أي: هو العظيم الممجّد، الذي كل شيء خاضع لديه، فقير إليه، وقد ورد في الحديث الصحيح: «يقول الله-تعالى-: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما أسكنته ناري»^(١).

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بأن الإنسان يجزى بما عمل، فمن نسي الله في الدنيا نسيه

(١) صحيح مسلم - كتاب البر، باب تحريم الكبر، حديث (٢٦٢٠).

الله في الآخرة، كما قال-تعالى:- ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

- أن الجزاء من جنس العمل، فكما ترك الكفار شرع الله-تعالى-، فإنه يتركهم في نار جهنم خالدين فيها أبداً.
- الحكم بأن من يستهزئ بالله أو آياته أو أحد من رسله يعد كافراً، سواء كان جاداً أو هازلاً، كما قال-ﷺ- في حق المنافقين الذين كانوا يستهزئون بالله ورسوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ - ٦٦].

- وجوب الحمد والشكر لله عندما ينتهي المرء من عمل صالح عمله، أو طعام طعمه، أو شراب شربه؛ لأن المخلوق لا يقدر على عمل شيء إلا إذا كان الله قد يسره له، وأعانه عليه، فاقترض ذلك وجوب حمد المنعم عليه لمن أنعم عليه، وهو الله-جل جلاله-.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأحقاف

مكية، وآياتها خمس وثلاثون آية

﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٣﴾.

بيان الآيات:

﴿حَمَّ﴾ الله أعلم بمراده ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أي: أن القرآن قد نزل على رسول الله محمد - ﷺ -، وقد أنزله الله العزيز في ملكوته، الحكيم في تدبيره لخلقه، ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: ما خلق الله السماوات بكل ما فيها من الملائكة والأفلاك، وما خلق الأرض وما فيها من الجن والإنس والدواب وغيرها، وما خلق بينهما من الملكوت إلا بالحق، فتقدس وتنزه عن العبث، فما من شيء أرادته الله فهو حق أحقه، وقدر قدره، وحكمة أرادها ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: أنه - جل وعلا - خلقهما لمدة معلومة، لا يعلمها إلا هو.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ أي: غافلون عما أُنذروا

به من العذاب إذا لم يوحّدوا الله، ويطيعوه، ويتبرّؤوا من الشرك به.

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بأن الله قد أنزل القرآن من اللوح المحفوظ على نبيه ورسوله محمد - ﷺ -، مبيناً لآيات الله وأحكامه في خلقه، فيما يبصرهم في دينهم ودنياهم، كما قال - تعالى -: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].
- الحكم بأن خلق السماوات والأرض وما بينهما كان بالحق وأجل معلوم، وهذا يقتضي حكماً تقديس الله، وتنزيهه عن العبث.
- أن الكفار إنما يجزون بسبب إعراضهم عن البينات التي تنذرهم، وتحذرهم من ارتكاب المعاصي.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنْتُونِي بِكِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾

بيان الآيات:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: قل يا نبينا محمداً للمشركين الذين يعبدون الأصنام: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: أفيدوني عما إذا كانوا قد خلقوا شيئاً من الأرض ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: هل لهم شرك في السموات بأي صفة؟.

﴿أَتُتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا﴾ أي: هاتوا كتاباً منزلاً من عند الله على الأنبياء السابقين يأمركم بعبادتهم ﴿أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أو هاتوا أثراً صحيحاً يأمركم بعبادتهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في زعمكم أن هذه الأصنام آلهة تستحق العبادة.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ هذا بيان من الله-وبيانه الحق-أنه لا أحد أضل ممن يدعو من دون الله أو ثاناً، ويبتغي منها جلب النفع له، ودفع الضر عنه، بينما هي لا تقدر على تحقيق مطلبه؛ لأنها حجارة صماء، لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر، كما قال-تعالى:- ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾.

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ أي: إذا حشر الناس يوم القيامة كانت هذه الأصنام عدواً لمن عبدها، وخصماً له، وتتبرأ منه ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ أي: يكفرون بدعائهم ونذورهم

وعبادتهم لهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بعجز المخلوق عن الخلق، كما قال-تعالى-: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

- قال ابن العربي في الآية: «وَهِيَ أَشْرَفُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ، فَإِنَّهَا اسْتَوْفَتْ أُدْلَلَّةَ الشَّرْعِ عَقْلِيَّهَا وَسَمْعِيَّهَا»^(١).

- قال ابن عاشور: «الأمر في ﴿أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ مستعمل في التسخير والتعجيز، كناية عن النفي إن لم يخلقوا من الأرض شيئاً، فلا تستطيعوا أن تُروني شيئاً خلقوه في الأرض، وهذا من رؤوس مسائل المناظرة، وهو مطالبة المدّعي بالدليل على إثبات دعواه»^(٢).

- تقرير أنه لا أحد أضل ممن يدعو من دون الله من لا يعقل، ولا يسمع، ولا يبصر؛ ذلك أن العقل ومسلمات الحقائق تقتضي أن

(١) أحكام القرآن، (٧/١٢٩).

(٢) التحرير والتنوير، (٨/٢٦).

العاجز في ذاته لا يقدر على نصر غيره، فمن كان في قبره وقد تحول إلى رميم، هل ينفع من يدعوه؟، هذا في عالم البشر، أما في عالم الجمادات فهل يقدر صنم مكون من حجر أن ينفع من يدعوه؟، والجواب بداهة بالنفي.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنِ اتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾

بيان الآيات:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ هذا بيان من الله بأنه إذا تليت آياته البينات الدالة على وجوب توحيده ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: قال المكذبون بآيات الله لما جاءتهم بينة في القرآن: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: سحر جلي.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ يقصدون محمداً - ﷺ - ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ أي: قل لهم: إن كنت كذبت، وزعمت أن الله أرسلني إليكم،

وهو لم يرسلني ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لن تقدرُوا أنتم ولا غيركم على إنقاضي من العذاب الذي سوف يحقق بي لقاء كذبي ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: أن الله هو الذي يعلم ما تتحدثون به طعنًا في أمانتي، وتكذيبي لي ﴿كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: كفى به شاهدًا ورقيبًا عليّ فيما أقول لكم، وما تقولونه لي ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: يغفر ويرحم لمن يتوب إليه، فتوبوا إليه، لعله يغفر لكم ويرحمكم.

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي: لست أول الرسل الذين دعوا إلى عبادة الله وتوحيده، فكل الرسل قبلي قد دعوا قومهم، وأنذروهم ﴿وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ أي: لا أدري ماذا يقدره الله لي ولكم؟، فأنا بشر يوحى إلي، فهو المدبر لي ولكم، والمتصرف فينا كما يشاء، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، وأخرج الطبري بسنده الحسن عن قتادة في قوله-تعالى-: ﴿وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾: «ثم درى وعلم من الله-ﷻ-بعد ذلك ما يفعل به، يقول: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١].»

﴿إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي: ما أتبع ولا أقبل إلا ما يوحيه الله لي، فلست متقولًا ولا مبتغيًا دنيا ولا جاها ولا ملكًا ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ

مُبِينٌ ﴿١﴾ أي: أُنذركم ما أُمِرت به بأن تعبدوا الله وحده، وتجتنبوا الشرك، وتؤمنوا بما أنزل الله إليكم في كتابه.

أحكام وفوائد الآيات:

- إبطال الله لطعن المشركين في القرآن، وتنزيه رسوله محمد - ﷺ -

عن الكذب، والإتيان بالقرآن من عنده، كما زعم المشركون فيما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان: ٥ - ٦].

- أن رسالة محمد - ﷺ - لم تكن أولى الرسائل، بل كانت متممة ومصدقة لها.

- أن قوله - تعالى -: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ ﴿١﴾ ردٌّ على شبهات أعداء الإسلام الذين طعنوا في الشريعة الغراء، وسَعَوْا جاهدين إلى تشويه محاسنها، وطمس معالمها، فطعنوا على سبيل المثال في الحجاب، وطعنوا في تعدد الزوجات، وفي فريضة الجهاد، مع أن هذه الأحكام كانت في شرائع مَنْ قبلنا، ودلَّ على ذلك القرآن، وما زالت كُتُبُهم مع تزييفها وتحريفها تشهد بذلك.

- أن قول الله - ﷻ -: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي﴾ المراد به في الدنيا

من المصائب، أما في الآخرة فإن رسول الله -ﷺ- في الرفيق الأعلى؛
 لأن الله -ﷻ- قال: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا
 تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، فقال المؤمنون في حينها: هنيئاً لك يا رسول الله!
 فما لنا؟، فأنزل الله -ﷻ- قوله: ﴿لِيَدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
 جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ
 سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الفتح: ٥] ^(١).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ
 بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الظَّالِمِينَ﴾ (١٠).

بيان الآية:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ أي: قل يا نبينا
 محمداً للمشركين الذين يكفرون بالقرآن: أخبروني إن كان القرآن
 منزلاً من عند الله، وكذبتكم به ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾
 المراد به: عبد الله بن سلام ﴿عَلَى مِثْلِهِ﴾ أي: شهد على مثل ما
 جئتمكم به ﴿فَقَامَنَ﴾ أي: هذا الشاهد بالقرآن ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي:
 عن الإيمان بالقرآن، ألم تكونوا باستكباركم أشد الناس كفراً وظلماً؟.

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب: غزوة الحديبية، (رقم ٤١٧٢).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يهدي الذين يصرون على الكفر والاستكبار عن آيات الله، وأخرج البخاري بسنده عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: ما سمعت النبي -ﷺ- يقول لأحد يمشي على الأرض: «إنه من أهل الجنة، إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِءَ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِءَ فَقَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾»^(١).

وأخرج ابن حبان بسنده عن عوف بن مالك الأشجعي، قال: «انطلق النبي -ﷺ- وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود بالمدينة يوم عيدهم، وكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله -ﷺ-: «يا معشر اليهود! أروني اثني عشر رجلا يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله يُحِبُّ الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي غضب عليه»، قال: فأمسكوا، وما أجابه منهم أحد، ثم رد عليهم، فلم يُجبه أحد، ثم ثلث، فلم يجبه أحد، فقال: «أبيتم، فوالله إني لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا المقفّي، آمنتم أو كذبتم»، ثم انصرف وأنا معه حتى دنا أن يخرج، فإذا

(١) الصحيح، (١٦٠/٧)، حديث (٣٨١٢)، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب عبد الله بن سلام -رضي الله عنه-، ومسلم في صحيحه، (١٩٣٠/٤)، حديث (٢٤٨٣)، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل عبد الله بن سلام.

رجل من خلفنا يقول: كما أنت يا محمدا، قال: فقال ذلك الرجل: أي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود؟، قالوا: ما نعلم أنه كان فينا رجل أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك، ولا من أبيك من قبلك، ولا من جدك قبل أبيك، قال: فأني أشهد له بالله أنه نبي الله الذي تجدونه في التوراة، قالوا: كذبت، تم ردّوا عليه، وقالوا له شرّاً، فقال رسول الله -ﷺ-: «كذبتُم، لن يُقبل قولكم، أما أنفا فتُثَنون عليه من الخير ما أثنيتُم، وأما إذ آمن كذبتُموه، وقلتم ما قلتم، فلن يُقبل قولكم»، قال: فخرجنا ونحن ثلاثة: رسول الله -ﷺ- وأنا وعبد الله بن سلام، فأنزل الله فيه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾^(١).

أحكام وفوائد الآية:

- تقرير أن الشهادة أداة لإثبات الحق، على شرط أن يكون الشاهد ممن تتوافر فيه شروط الشهادة، وأولها: الإيمان المقتضي للعدالة، كما قال -تعالى-: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢].

- تحريم الاستكبار عن اتباع الحق، واستحقاق صاحبه أشد العذاب،

(١) الإحسان، (١١٨/١٦-١٢٠)، حديث (٧١٦٢)، قال محققه: «إسناده صحيح»، وأخرجه الحاكم في المستدرک، (٤١٥-٤١٦)، من طريق عبد بن عوف بن سفيان عن أبي المغيرة به، وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

كما قال-تعالى:- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

- أن الإصرار على المعاصي، وعدم التوبة منها يؤدي إلى عدم هداية الله لصاحبها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانَا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أي: قال المشركون عن المؤمنين بالقرآن: لو كان في هذا القرآن الذي جاءنا به محمد خير لما سبقنا إليه هؤلاء الضعفاء والعبيد والإماء، ويقصدون بذلك بلالًا وعمارًا وخبابًا وصهيبًا-رضي الله عنهم، وأرضاهم-.

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أي: لما لم يهتدوا به، ويعتبروا بآياته، وينعموا ببشارته بعد أن أعماهم الضلال، فقد كذبوه، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي: إنه مجرد كذب

أخذ من كلام الأولين وأساطيرهم.

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي: من قبل القرآن الذي أنزل على محمد أنزلنا التوراة على موسى قدوة ورحمة ﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾ أي: هذا القرآن ﴿مُصَدِّقٌ﴾ لما سبقه من الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: أنزل بلسان عربي ﴿لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشِّرَ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: ينذر الذين ظلموا بأنهم سيلاقون العذاب إذا لم يتوبوا إلى الله، ويستغفروه من ذنوبهم، وهو بشرى للمحسنين الذين عملوا، فأحسنوا في عملهم، فاستحقوا بذلك حسن العاقبة.

أحكام وفوائد الآيتين:

- أن من ضل عن الهدى، واتبع هواه يتهم من اتبع الهدى بالجهل، كما أن من جهل العلم يعاديه بالجهل، ومن فقد الإيمان يعاديه بعدمه، كما هو حال المشركين والكفرة الذين لم يهتدوا بكتاب الله، فاتهموه تارة بالسحر، وتارة بأنه من أساطير الأولين.
- أن الكتب المنزلة من عند الله يصدق بعضها بعضاً، فالتوراة والإنجيل صدقا القرآن، والقرآن يصدقهما كما أنزلا، وقبل أن يتعرضا للتحريف وهكذا.

- أن نزول القرآن بلغة العرب تشريف لها، وهذا يقتضي الاهتمام باللغة العربية، والدفاع عنها، خاصة ضد المنحرفين الذين يحاولون تحويلها إلى لهجات حسب كل مكان تكون فيه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ المراد بهم: الذين كانوا يقولون في الدنيا: إن الله ربهم، لا يعبدون إلا إياه، ولا يخشون إلا إياه، ولا يرجون إلا إياه، فلم يعبدوا صنماً، ولم يتعلقوا إلا بربهم، وقد استقاموا على ذلك، وأقاموا عليه في حياتهم إلى مماتهم.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: لا خوف عليهم من هول يوم القيامة، ولا هم يحزنون على ما تركوه في الدنيا ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: إن هؤلاء الذين استقاموا هم الذين يرثون الجنة برحمة الله جزاء لما كانوا يعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة.

أحكام وفوائد الآيتين:

- وجوب استقامة المسلم على طاعة الله غير مبدل ولا مغير، وفي حديث سفيان بن عبد الله الثقفي قال: «قلت: يا رسول الله! قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك؟ قال: «قل: آمنت بالله، ثم استقم»^(١).

- أن المستقيمين على طاعة الله لا يخافون من الفرع الأكبر يوم القيامة، ولا يحزنون على ما تركوه في الدنيا من الأموال والأولاد، وأنهم هم الذين يرثون الجنة بفضل رحمة بهم لهم، جزاء استقامتهم على طاعته، كما قال-تعالى:- ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ١٥ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: جامع أوصاف الإسلام، (رقم ٢٨).

أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ
الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ .

بيان الآيتين:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ لما أوجب الله - ﷻ - على عباده في الآية السابقة توحيدَه وطاعته، والاستقامة على ذلك، أمرهم ببر والديهم، والإحسان إليهم، والعطف والشفقة عليهم ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَكُرْهًا﴾ أي: عانت المشقة والتعب بسبب الحمل ومضاعفاته وأخطاره ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي: عانت من وضعه بما يصيبها من الآلام والأخطار حين الطلق .

﴿وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ أي: مكثت الأم تحمله، وترضعه، وتربيته ثلاثين شهرًا بكل ما فيها من المشقة، فاقتضى هذا وجوب برّها وبرّ أبيه، فإن كانت الأم تعاني خلال هذه المدة من حملها وإرضاعها، فإن الأب يعاني من القيام عليها وعليه بما يجب من النفقة وغيرها ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: قوي ونشط ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي: اكتمل عقله وإدراكه، فلم يعد معرضًا للتقلب في سلوكه ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي: وفقني، وألهمني، وأرشدني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ قيل: إن هذه الآية

نزلت في أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-، فقد أسلم أبواه جميعاً، ولم يحصل لأحد من المهاجرين أن أسلم أبواه غيره، فأرضاه الله بهما^(١).

وهذه الآية عامة لكل مسلم أن يشكر الله على نعمة الإسلام والإيمان، وأن جعل أبويه وذريته وزوجه على هذا الدين، فإن ذلك من نعم الله التي يجب أن تقابل بالشكر للمنعم، والثناء عليه بما هو أهله.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي: يا رب! وفقني أن أعمل عملاً صالحاً تتقبله مني ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أي: واجعل الصلاح سارياً في ذُرِّيَّتِي من الأولاد والأحفاد وَمَنْ بعدهم ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: إني تبت إليك من جميع ذنوبي، وإني من المطيعين لك الخاضعين لحكمك.

قلت: ودعاء أبي بكر -رضي الله عنه- وإنابته هما مثال للمسلم الصادق بأن يدعو ربه أن يوفقه للأعمال الصالحة، وأن يتوب وينيب إليه، وأن يثبته على دينه دين الإسلام، الذي من الله به عليه، فهداه له.

قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ أي: أن هؤلاء الذين شكروا نعمة

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، (١٦/١٩٤)، والسيرة الحلبية لأبي الفرج الحلبي، (٣/١٢٨).

الله، وأنابوا وتابوا إليه هم الذين يتقبل الله منهم حسن أعمالهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، فهم من أهل الجنة ونزلاتها ﴿وَعَدَ الصِّدِّيقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي: هذا ما وعدهم الله به، وهو وعد صدق، لا شك فيه.

أحكام وفوائد الآيتين:

- وجوب بر الوالدين، وما يقتضيه ذلك من طاعتهما، والإحسان إليهما، والدعاء لهما أحياء وأمواتاً، وعدم الإساءة إليهما بأي صفة من صفات الإساءة، كما قال الله -ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤].

والأمر بالبر للوالدين يقتضي العموم، سواء كانا مسلمين أم كافرين؛ لقول الله -تعالى-: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾

[لقمان: ١٥]، ومنها: أن أقل مدة الحمل ستة أشهر فأكثر؛ لأن الله -

تعالى- قال: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ منها: حولان

كاملان للرضاعة، أي: أربعة وعشرون شهرًا، فما بقي من المدة- وهو ستة أشهر كاف لأقل مدة الحمل، وقد فطن لهذا عليٌّ -عليه السلام- في قصة المرأة التي شكاه زوجها إلى عثمان؛ لكونها ولدت له ولدًا في ستة أشهر، فأمر عثمان برجمها، فذكر له عليٌّ أن لا شيء عليها، فكانت تقول لأختها لما بكت عليها: «وما يبكيك، فوالله ما التبس بي أحد من خلق الله-تعالى- غيره قط، فيقضي الله فيَّ ما شاء»، فجاء الغلام مثل أبيه، وعاقب الله زوجها بالآكلة حتى مات^(١).

- أن أقل مدة الحمل ستة أشهر أخذًا من قوله-تعالى-: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ وقوله-تعالى- في الرضاع: ﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾.

- أن بلوغ الأربعين حدٌ فاصلٌ بين مرحلتين، وبلوغها يستدعي وقفتين: وقفة مع الماضي الذي مرَّ، والتوبة مما سلف من تفريط وإفراط، ووقفة لما يستقبله العبد من الزمان الحاضر والآتي.

- أنه في الآيتين (١٥-١٦) إخبار مستقبليٌّ عن جزاء من استجاب

(١) أخرجه بهذا السياق الحافظ ابن حجر في موافقة الخبر الخبر، (٢/ ٢١٤)، وأخرجه الإمام مالك، رواية أبي مصعب، مختصرًا جدًّا، (رقم ١٧٩٣)، والطبري في تفسيره بسند حسن، (٢٠/ ٦٥٧)، وقال الحافظ ابن كثير: «فهو استبطاط قوي صحيح».

لوصية الله بالوالدين، فأحسن في صحبته لهما برًا بهما في حياتهما وبعد مماتهما، فجزاؤه أن يتقبل الله منه أحسن ما عمل من صالحات الأعمال، ويصفح عن سيئاته.

- وجوب التوسل إلى الله، والإنابة إليه بالتوبة، والإقرار بالثبات على الدين الحق الذي ارتضاه الله، وهو دين الإسلام.
- ثناء الله على أبي بكر الصديق، حيث كان هو وأسرته من أوائل المسلمين.

﴿وَالَّذِي قَالَ لِيَوْلَدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمْ أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَالَّذِي قَالَ لِيَوْلَدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمْ﴾ لما ذكر الله -عز وجل- وجوب بر

الوالدين، والإحسان إليهما، ذكر الحالة المنافية لهذا البر، وهي حالة الولد العاق الملحد الكافر الذي قال لوالديه متأففاً منهما:

﴿أَتَعِدَّائِي أَنْ أُخْرِجَ﴾ أي: تقولان لي بأني سوف أبعث من القبر بعد موتي ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ أي: قد مضت الأمم من قبلي، فلم يبعث منهم أحد .

﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ وحينما يسمع والداه هذا منه يستغيثان الله، ويسألانه الهداية له، ويقولان لولدهما: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنٌ﴾ أي: آمن بالله وبالبعث والنشور .

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: لا مرأ ولا شك فيه، فيصر الولد على إلحاده وكفره وعناده، فيقول ما أخبر الله عنه بقوله: ﴿فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا إلا حكاياتهم وأباطليهم المسطرة في كتبهم.

وقد أخبر الله عن هذا الملحد والعاق وأمثاله بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾، فدل قوله-تعالى-: ﴿أُولَئِكَ﴾ أنه ليس المراد به إنساناً بعينه، بل كل من قال هذا القول في أي زمان أو مكان .

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي: لكل جزاء عمله ﴿وَلِيُوفِّيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ﴾ أي: سوف يوفى كل عامل عمله، فإن كان قد عمل خيراً

وجد جزاء عمله أمامه يوم القيامة، وإن كان قد عمل شرًّا وجد جزاء عمله كذلك يوم القيامة .

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لن يظلمهم الله من أعمالهم شيئاً، ولو

كان مثقال حبة من خردل.

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بتحريم عقوق الوالدين كما سبقت الإشارة إليه، وفي ذلك مفارقة كبيرة بين علاقة الوالدين بولدهما، وعلاقتهما به، أما علاقتهما به فهي قائمة على التلطف به منذ كينونته حملاً في بطن أمه إلى أن يبلغ أشده، وحتى بلوغه هذا الحد من عمره، فهما يشفقان عليه من الأخطار، ويعملان جهدهما لإرضائه، ولم تكن هذه طبيعة الوالدين من البشر فحسب، بل هي غريزة فطر الله عليها خلقه من الحيوانات والدواب والطيور، حتى إن الوالد من هذه الخلائق يفضل ولده على نفسه.

ففي ذلك روت عائشة-رضي الله عنها- قالت: «جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منهما ثمرة، ورفعت إلى فيها ثمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتاهما، فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما،

فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعت لرسول الله - ﷺ -، فقال:

«إن الله قد أوجب لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار»^(١).

وأما علاقة الولد بوالديه فقد تكون على العكس من علاقتهما

به، فهو قد يتأفف منهما في كبرهما، وقد يعقهما إلا من رحم الله،

ولعلم الله بما يكون عليه الولد من هذا السلوك حرم عليه

عقوقهما أيا كانت درجته، فقال - عز من قائل -: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا

أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال:

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا

أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ

وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]، وفي حديث أبي بكرة نفيح بن

الحارث - رضي الله عنه - قال قال رسول الله - ﷺ -: «ألا أنبئكم بأكبر

الكبائر؟ ثلاثا، قلنا: بلى يا رسول الله!، قال: «الإشراك بالله،

وعقوق الوالدين.. الحديث»^(٢).

وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أن

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب: «اتقوا النار ولو بشق تمر» والقليل من الصدقة، (رقم ١٤١٨)، ومسلم في كتاب البر والصلة، باب: فضل الإحسان إلى البنات، (رقم ٢٦٣٠)، واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب: عقوق الوالدين من الكبائر، (رقم ٥٩٧٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها، (رقم ٨٧).

رسول الله -ﷺ- قال: «من الكبائر: شتم الرجل والديه»، قالوا: يا رسول الله! هل يشتم الرجل والديه؟ قال: «نعم! يسب أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه، فيسب أمه»^(١).

- طَلَبُ الهداية من الله-تعالى-، كما يوحي بذلك قوله-تعالى-:
﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾، فَيُسْتَحَبُّ الدعاء للولد بالهداية.

- أن عذاب الله حق على الملحددين والكفرة والعاقين.

- أن الله يوفي كل عامل بعمله كاملاً غير منقوص.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾.

بيان الآية:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي: أبلغ يا نبينا

محمدًا المشركين المكذبين لك أنهم يوم يعرضون على النار، فيقال

لهم في تقريع وإهانة: لقد ﴿أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا

وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ أي: كنتم متلذذين بالشهوات، وأفنيتم شبابكم

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب: لا يسب الرجل والديه، (رقم ٥٩٧٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها، (رقم ٩٠).

وأنتم في غفلة عن الآخرة.

﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: تلاقون الذلة والهوان
 ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: كنتم تستكبرون
 عن عبادة الله وطاعته، وتستهزئون بآياته ورسوله كما
 كنتم تستكبرون، وتستعلون على عباده المؤمنين. ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ
 تَفْسُقُونَ﴾ أي: وذوقوا عذاب الهوان بسبب فسقكم وخروجكم عن
 طاعة الله وطاعة رسوله.

أحكام وفوائد الآية:

- التحذير من التلذذ بالشهوات في الدنيا، والانغماس في ملذاتها؛
 فروي أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: «لو شئت كنت أطيّبكم
 طعاماً، وألينكم لباساً، ولكن أستبقي طيباتي للآخرة»^(١).

وكما روي أنه دخل على النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو في مشربته -أي: غرفته- حين هجر نساءه، قال: «فالتفتُ، فلم أر شيئاً يرد البصر إلا أهباً -أي: جلوداً- معطونة قد سطع ريحها، فقلت: يا رسول الله! أنت رسول الله وخيرته، وهذا كسرى وقيصر في الديباج

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق، (رقم ٥٧٩).

والحرير؟، قال: فاستوى جالسًا، وقال: «أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟، أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا»، فقلت: استغفر لي، فقال: «اللهم اغفر له»^(١).

- تحريم الكبر والفسق، والتحذير منهما؛ لأن الذل والخزي والصغار سيكون عاقبتهما يوم القيامة.

﴿وَأَذْكُرُ أَحَا عَادٍ إِذْ أُنذِرَ قَوْمَهُ بِأَلْحَقَافٍ وَقَدْ خَلَتْ لُذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ إِلَهِنَا فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِيتُكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمِطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ

﴿٢٥﴾

(١) أخرجه البخاري في كتاب المظالم، باب: الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة، (رقم ٢٤٦٨)، ومسلم في كتاب الطلاق، باب: في الإيلاء، واعتزال النساء وتخييرهن، (رقم ١٤٧٩) وليس عندهما: «فقال: اللهم اغفر له».

بيان الآيات:

﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ أي: اذكر يا نبينا محمدًا للمشركين المكذبين لك هودًا-عليه السلام- ﴿إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ وهؤلاء قوم من أقوام اليمن، كانوا يسكنون بالشحر، أنذرهم هود من العذاب الذي حاق بهم إذ لم يوحدوا الله، ولم يتوبوا من شركهم ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: سبق أن كان قبله رسلٌ أنذروا أممهم وحذروهم من العذاب قائلين لهم: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: اجتنبوا عبادة الأصنام وغيرها، واعبدوا الله وحده ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هذا قول هود لقومه، وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أي: هل جئتنا يا هود لتصرفنا عن آلهتنا التي نعبدها، وكان آباؤنا يعبدونها؟، فإن كان كذلك ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: إن كنت صادقًا فأرنا ما تقول، وهذا استعجال منهم للعذاب؛ لأنهم غير مصدقين به.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَلِئْتُكُمْ اللَّهَ﴾ أي: لا علم لي بعذابكم، وإنما علمه عند الله، فهو أعلم بي وبكم، وإنما أنا مبلغ لكم رسالته، كما قال-

تعالى-عنه: ﴿وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾.

﴿وَلَكِنِّي أَرْبُكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أي: أرى أنكم بقولكم هذا لا تعقلون.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾ أي: لما رأوا العذاب يجللهم من فوق رؤوسهم، وقد اتجه إلى أوديتهم ومزارعهم ومساكنهم ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي: هذا سحب سوف يمطرنا، ففرحوا، واستبشروا به؛ لكونهم كانوا في حاجة ماسة للمطر.

﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: هذا هو العذاب الذي كنتم تستعجلونه استهزاء وتكذيباً ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: تخرّب هذا الريح بإذن الله كل ما أمرت بتدميره ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ أي: أهلكتهم الرياح، فلم تبق لهم باقية إلا مساكنهم؛ لتكون عبرة لغيرهم ممن يكذبون بآيات الله ورسله.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: هذه هي سنة الله التي مضت، وحكمه وقضائه فيمن كذب آياته رسله.

وأخرج البخاري بسنده عن عائشة-رضي الله عنها-زوج النبي-

ﷺ-قالت: «ما رأيت رسول الله-ﷺ-ضاحكاً حتى أرى منه لهوته، إنما كان يبتسم، قالت: وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرف في وجهه، قالت: يا رسول الله! إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرف في وجهك الكراهية، فقال: «يا عائشة! ما يؤمِّنِي أن يكون فيه عذاب؟، عُدَّ قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب، فقالوا ﴿هَذَا غَارِضٌ مُّطِرُنَا﴾»^(١).

أحكام وفوائد الآيات:

- بيان سنة الله في خلقه بأنه يرسل لهم الرسل، يبشرون من يؤمن منهم بالعاقبة الحسنی في الدارين، وينذرون العصاة منهم، ويحذرونهم من العذاب الذي سوف يحيق بهم إن لم يتوبوا إلى الله من عصيانهم.

- بيان جهل بعض الأمم أو الأفراد في استعجالهم العذاب، كما قال- تعالى:- ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۚ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

- التوكيد على أن مهمة الرسل هي إبلاغ رسالات ربهم إلى أممهم، أما

(١) الصحيح، (٨/٤٤١)، حديث (٤٨٢٩)، كتاب التفسير، سورة الأحقاف، باب الآية.

عذابهم بالعقاب العاجل أو الآجل فعلمه عند الله.

- أنه قد تقتضي الضرورة مصارحة الجاهل بجَهْلِهِ؛ ليكونَ على حَذَرٍ،
وَيُبَدَّدَ ظلام الجهل بنور العلم والحكمة.

- ما يجب أن يكون عليه المؤمن من الوجل من عقاب الله، فقد يكون
المطر عذاباً، وقد تكون الرياح كذلك، وفي حديث أم المؤمنين عائشة-
رضي الله عنها- قالت: «ما رأيت رسول الله -ﷺ- ضاحكاً حتى أرى
منه لهوته، إنما كان يبتسم، قالت: وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً
عُرف في وجهه، قالت: يا رسول الله! إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا
رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرف في وجهك الكراهية،
فقال: «يا عائشة! ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟، عُدَّب قوم
بالريح، وقد رأى قوم العذاب، فقالوا ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾»^(١)

﴿وَلَقَدْ مَكَنَّهُمْ فِيمَاَ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا
وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا
أَفْئِدَتُهُمْ مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا
كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: قوله-تعالى-: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ

قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾، (رقم ٤٨٢٨، ٤٨٢٩)، ومسلم في كتاب الاستسقاء، باب: التعوذ

عند رؤية الغيم والريح، (رقم ٨٩٩).

وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ .

بيان الآيات:

﴿وَلَقَدْ مَكَنَّا لَهُمْ فِيْمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ هذا بيان من الله - ﷻ - يقول فيه: لقد مكنا الأمم السابقة في الدنيا، وأعطيناهم من الأموال والأولاد والقوة أكثر مما أعطيناكم منه أيها المشركون ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْعِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: إن هؤلاء الذين أعطيناهم من القوة في أنفسهم وأموالهم لم يغنهم شيئاً، ولم يمنع عنهم العذاب، وما ذاك إلا لأنهم ﴿إِذْ كَانُوا يَمْجِدُونَ بِنَايِتِ اللَّهِ﴾ أي: ينكرون آياته البينات.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: أحاط بهم العذاب الذي كانوا ينكرونه، ويستهزئون بمن ينذرهم به ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى﴾ المخاطب هنا كفار قريش، والمراد: لقد أهلكنا الأمم المكذبة برسلها كعاد وثمود وقوم لوط، وهي قرى قريبة من الحجاز، يراها أهل مكة حين يذهبون إلى الشام، فناسب تذكيرهم

بها، لعلهم يتوبون، ويرجعون عن شركهم وضلالهم ﴿وَصَرَّفْنَا
الْآيَاتِ﴾ أي: بيّناها، وجعلناها واضحة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي:
يتركون شركهم وكفرهم.

﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً﴾ أي:
فهلّا نصرتهم آلهتهم التي عبدوها من دون الله عند حاجتهم إليها،
والجواب بالنفي ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ فلم ينفعوهم بشيء، ولو كان
من قطمير ﴿وَذَلِكَ إِنْكُفُّهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَرُونَ﴾ أي: تخلوا عنهم
وعن افترائهم عندما عبدوهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بأن ما يعطيه الله الأمم من قوة مادية مختلفة لا يغني عنها
شيئاً إذا كفرت بآيات الله، فما أصاب الأمم السابقة الهلاك إلا
بسبب ذنوبها، فلم تنفعها قوتها؛ لأن القوة التي يعطيها الله أحداً
من خلقه أمماً أو أفراداً إنما هي فتنة، ليرى أيشكرون أم
يكفرون؟.

- أن الله يبقي آثاراً من آثار الأمم الهالكة؛ لتكون عبرة وعظة لغيرها.
- التعبير بقوله -تعالى-: ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ للدلالة على
أن افتراءهم راسخ فيهم، ومجيء ﴿يَفْقَرُونَ﴾ بصيغة المضارع

للدلالة على أن افتراءهم متكرر.

- تشابه مواقف الكفار من أنبيائهم على مَرِّ التاريخ، وتشابهه عاقبتهم.

- أن من يعبد غير الله لا ينفعه هذا المعبود يوم القيامة؛ لأن كلا يتبرأ من غيره، كما قال-تعالى:- ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ أُتْبِعُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ﴾ (٢٦) قَالُوا يَقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ .

بيان الآيات:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ مقدمة

هذه القصة: أن رسول الله -ﷺ- ذهب إلى ثقيف علّه يجد عندهم نصراً

بعد أن وجد من قومه في مكة الهوان، فقصد رؤساءهم، وهم: عبدياليل ومسعود وحبيب إخوة بني عمر ابن عمير، فدعاهم إلى الإيمان بالله، وتوحيده، وعدم الشرك به، فقال أحدهم: يمرط (أي ينزع) ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك، وقال الآخر: ما وجد الله أحدًا يرسله غيرك، وقال الثالث: والله لا أكلّمك كلمة أبدًا إن كان الله قد أرسلك كما تقول، فأنت أعظم خطرًا من أن أكلّمك، وإن كنت تكذب فيما تقول فما ينبغي لي أن أكلّمك، ثم أرسلوا سفهاءهم وعبيدهم يستبّونه، ويسخرون منه، حتى اجتمع عليه الناس، وألجؤوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة، ثم اتجه إلى ربه متوسلاً وهو يقول: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، لمن تكلني؟، إلى عبد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري؟، إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

فلما سمع ابنا ربيعة قوله أشفقا عليه، وقالا لغلام لهما نصراني- يقال له: عداس:- خذِ قِطْفًا من العنب، وضعه في هذا الطبق، ثم وضعه

بين يدي هذا الرجل؛ ليأكل منه، فلما وضعه بين يدي رسول الله -ﷺ- قال-عليه الصلاة والسلام-: «بسم الله»، ثم أكل، فنظر عداس إلى وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال رسول الله -ﷺ-: «من أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟»، فقال عداس: أنا نصراني من أهل نينوى. فقال-عليه الصلاة والسلام-: «أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟»، فقال عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟، فقال-عليه الصلاة والسلام-: «ذاك أخي كان نبياً، وأنا نبي»، فانكبَّ عداس يقبّل رأس رسول الله -ﷺ- ويديه ورجليه، فقال له ابنا ربيعة: لم فعلت هذا؟، فقال: يا سيدي! ما في الأرض خير من هذا، أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي^(١)، ولما يؤس رسول الله -ﷺ- من ثقيف، قفل راجعاً، حتى إذا كان ببطن نخلة قام من الليل يصلي، فمر به نفر من جن أهل نصيبين، وقيل في سبب مرورهم: «إنه لما حيل بين الشياطين وخبر السماء رجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، يبتغون معرفة الذي حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله -ﷺ- وهو ببطن نخلة، وهو يصلي صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا

(١) انظر القصة في سيرة ابن هشام، (١/٤٢٠ - ٤٢١).

الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فلما رجعوا إلى قومهم ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن: ١ - ٢]^(١).

فقلوه-تعالى:- ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنَّ﴾ أي: قل لقومك يا نبينا محمدًا لكفار مكة: إن الجن قد آمنوا، وهم لم يؤمنوا، حيث جاءك نفر من جن أهل نصيبين ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ أي: اسمعوا ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أي: فرغ الرسول من القراءة .

﴿وَلَوْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي: رجعوا إلى قومهم وأهلهم في نصيبين ونيوى ينذرونهم من عذاب الله، ويأمرونهم بعبادته وحده، لا شريك له ﴿قَالُوا يَقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ أي: سمعنا هذا الكتاب الذي أنزل من بعد موسى، وهذا الكتاب ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: مصدقًا للكتب السابقة المنزلة على الأنبياء

﴿يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ﴾ أي: يرشد إلى الهدى ﴿وَالِىٰ طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: يرشد إلى الطريق القويم الذي لا عوج فيه، ثم بدؤوا

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب: قوله-تعالى:-: الجهر بقراءة صلاة الفجر، (رقم ٧٧٣)، ومسلم في كتاب الصلاة، باب: الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، (رقم ٤٤٩).

يدعونهم إلى الإسلام بقولهم: ﴿يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾ أي: أسلموا، واتبعوا هذا الدين دين محمد .

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: يغفر لكم الذنوب التي بينه وبينكم ﴿وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: ينجّكم من العذاب الشديد.

﴿وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: من استكبر وعتا فإنه لا يعجز الله، بل يأخذه أخذ عزيز مقتدر ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءٌ﴾ أي: لن ينجيه من عذابه أحد، فلا ولي يواليه، ولا ناصر ينصره .

﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: أن من لا يجيب داعي الله ضالٌّ ضللاً مبيناً، وهذا ترهيب منهم لقومهم؛ لكي يسلموا ويتبعوا رسول الله - ﷺ - .

أحكام وفوائد الآيات:

- توكيد وجود عالم الجن، وأن الله خلقهم أمة قائمة، كما قال - تعالى -: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:

٥٦]، فمن أنكر وجودهم فقد أنكر القرآن، وإنكار القرآن كفر.

- الحكم بأن رسالة رسول الله - ﷺ - تشمل الجن، كما ورد ذكره في قصة جن أهل نصيبين في قوله - تعالى -: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ ، وذلك أن الله أرسلهم ليتعلموا الدين بسماعهم لقراءة رسول الله - ﷺ - .

- التواصي بالتأدب والخشوع عند الاستماع للقرآن.
- أن الله - جل وعلا - لا يغفر ذنوب العبد كلها، وإنما يغفر ما بينه وبين العبد، أما الذنوب المترتبة من حقوق العباد ففيها القصاص، فيؤخذ من حسنات المذنب، فتعطى لصاحب الحق، أو يؤخذ من سيئات هذا، فتوضع على غريمه، وهكذا.
- أن من يعرض عن إجابة الدعوة إلى الله معرض للهلاك.
- تقييد الإعجاز بكونه في الأرض؛ لبيان أنه لا مَفَرَّ ولا مَهْرَبَ لكفار الجن، لا على ظهر الأرض ولا في بطنها.

﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالِ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَأَصْبِرْ كَمَا

صَبَرُوا أُولَئِكَ الْعَزْمُ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَعَلَّ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ
الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾

بيان الآيات:

﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّ
بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ أي: ألم ير هؤلاء المنكرون
للبعث-وهم كفار قريش-أن الله هو الذي خلق السماوات والأرض،
وصنعهما بقدرته وعظمته، وأنه لم يتعب من خلقهما، بل قال لهما:
كونا، فكانتا؟، أفلا يكون قادرًا على إحياء الموتى، وهو الذي خلقهم
أصلًا من العدم؟، ثم أجاب-جل جلاله-بقوله: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم توعّد المشركين والكفرة المنكرين للبعث بقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ
الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أي: يوم يعرضون على
النار، فيرونها عيانًا، فيقول لهم خزنتها: أليس هذا العذاب بالحق؟
﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أي: نقر ونعترف بأنه حق ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا
كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: حينئذ ذوقوا العذاب جزاء كفركم.

ثم أمر -ﷺ- رسوله أن يصبر على تكذيب قومه له بقوله: ﴿فَأَصْبِرْ
كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ المراد بهم: نوح، وإبراهيم، وموسى،
وعيسى -عليهم السلام-، والمخاطب نبينا محمد -ﷺ- أي: كن مثلهم في
صبرهم على تكذيب قومهم لهم ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ بالعقوبة

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾

أي: حينما يرون العذاب كأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة واحدة رغم
طول أعمارهم .

﴿بَلَّغْ﴾ أي: أن هذا القرآن بلاغ للناس عن أمر دينهم ودنياهم،
وفيه هدايتهم إذا اهتموا بما فيه من الآيات البينات، ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا
الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: لا يهلك الله إلا من فسق، وأصر على فسقه،
وبلغه أجله دون توبة نصوح.

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بأن البعث والنشور كائن لا محالة، كما قال -تعالى-: ﴿أَلَا

يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ
النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي
سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ

يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بَيِّتَ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا
يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ [المطففين: ٤ - ١٢].

- أن من كذب وجود الله، أو أحد في أسمائه أو صفاته، أو أنكر
البعث، أو كذب آيات اللهن أو أحداً من رسله أو كتبه يعد كافراً
مستحقاً للعذاب.

- ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إظهار في مقام الإضمار؛ لبيان
علة مصيرهم وسبب شقائهم، وهو الكفر.

- وجوب الصبر على الدعوة إلى الله وعلى طاعته، والصبر على النوائب؛
لما في ذلك من الثواب العظيم كما قال -جل وعلا-: ﴿وَالْعَصْرُ ﴿١﴾
إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَتَوَّصَّوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَّوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١ - ٣].

- أن الله لا يظلم أحداً من خلقه، فلا يهلك إلا الفساق الذين يصرون
على فسقهم، فيرتكبون المحرمات، ويخرجون على أوامر الله،
ويموتون دون أن يتوبوا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة محمد

مدنية، وآياتها ثمان وثلاثون آية

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ ١ ﴿وَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ
 مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ ٢ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ
 كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ
 كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ ٣ ﴿.

بيان الآيات:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المراد بهم مشركو مكة، فقد كفروا بآيات الله،
 ولم يصدقوا رسوله، ولم يصدقوا بالقرآن رغم نزوله بلغتهم
 ووضوحه لهم ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: لم يكتفوا بكفرهم
 أنفسهم، بل عملوا جاهدين لصدّ غيرهم عن سبيل الله، فعذبوا المؤمنين
 مثل: بلال وخباب ﴿أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي: بسبب كفرهم وصددهم عن
 سبيل الله أبطل الله أعمالهم، فلا تقبل منهم حسنة ولا ﴿وَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وهم الذين آمنوا بالله، وعملوا الأعمال

الصالحة، كإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وكف الأذى، ونحو ذلك من أفعال الخير ﴿وَعَامِنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ وهو القرآن، حيث صدقوه، وأحلوا ما أحله، وحرموا ما حرمه، وعرفوا أنه منزل من عند الله لهداية عباده، وأنه الحق الذي لا مرأى فيه، كما قال-تعالى:- ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَتْ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ هؤلاء كفر الله عنهم سيئاتهم جزاء أعمالهم ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: أصلح أمورهم في دنياهم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ أي: أن هؤلاء الكفار الذين أضل الله أعمالهم اتبعوا أوامر الشيطان، وما زين له من الكفر، أما المؤمنون الذين كفر الله عنهم سيئاتهم، وأصلح أمورهم، فهم الذين وصفهم بقوله: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهو القرآن ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ أي: يبين لهم حال المؤمنين، وما يتميزون به من الصلاح، ويبين لهم حال الكافرين، وما هم عليه من الفساد.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن من يكفر بالله أو آياته، أو أحد من رسله أو شرائعه، ويصد عن سبيله، لا يقبل الله منه في الآخرة أي عمل، بل يجعله في ضلال

وخسران.

- أن العبد على مفترق طريقين، فإما أن يكون مؤمناً بالله، وهنا يكون مستحقاً لرضاه، فيكفر عنه سيئاته، ويصلح أموره، فيكون دائماً في حرز منه، وإما أن يكون هذا كافراً وصاداً عن سبيل الله، وهنا يكون محلاً لسخط الله وغضبه عليه.

- أن الله يضرب للناس الأمثال، ويبين لهم الحقائق؛ ليكون ذلك عوناً لهم على فهم أوامره، والاهتداء بهديه، والبعد عن غضبه.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فِئَمَّا مَتًّا بَعْدَ ۖ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ۖ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝﴾.

بيان الآيات:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ هذا توجيه من الله في حالة الحرب التي يكون فيها المسلمون مع العدو، وهي وجوب الشدة في القتال؛ لأن المراد هو الانتصار عليه، ولا يكون هذا الانتصار

إلا بالقوة في قتاله ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنُتُهُمْ﴾ أي: أوسعتموهم قتلاً

﴿فَشُدُّوا أَلْوَتَاقَ﴾ المراد به الأسارى في الحرب، والمعنى: أحكموا أسرهم، حتى لا يفرّوا منكم، وحينئذ أنتم وقائدكم في الحرب مخيرون: إما أن تمنوا عليهم بإطلاقهم، أو تأخذوا منهم الفداء لقاء إطلاقهم، كما قال-تعالى- في ذلك: ﴿فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي: ليكن ذلك شأنكم مع العدو من قتل وأسر إلى أن تنتهي الحرب بينكم وبينه.

﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي: لو شاء الله لأهلك أعداءكم دون قتال منكم، ولكن اقتضت حكمته اختباركم، كما قال-تعالى-: ﴿وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي: ليختبركم، ويعرف مدى تحملكم وصبركم على الجهاد في سبيله، وشاهده: قوله-ﷺ-: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: لن يذهب أعمال هؤلاء الذين ضحوا في سبيله، وجاهدوا من أجل نصرته دينه، بل سوف ينمي أعمالهم، ويدخرها لهم؛ ليجدوا الجزاء عليها

﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أي: يدلهم على طريق الجنة ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أي: أحوالهم وأمورهم ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ أي: يدخلهم الجنة التي بيننا لهم في كتابه، وعلى لسان رسوله.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الجهاد من فرائض الله على المسلمين، كما قال -تعالى-: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، وقال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨]، وهذه الفريضة من فرائض الله قائمة إلى قيام الساعة، لا يحل لأحد أن يبطلها، أو يؤولها، أو يقلل منها، فهذا هو حكم الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

- حِرْصُ الإسلام على حقن الدماء، والخروج من المعارك بأدنى خسائر، فالحرب في الإسلام ليست حرب إبادة انتقامية، وإنما هي جهاد لإعلاء كلمة الله، وكسر شوكة الأعداء.

- أنه في الآية (٤) إخبار مستقبلي، وبشارة لعباد الله المؤمنين بالنصر على أعداء الله؛ وذلك لأن الله -ﷻ- جعل عقوبتهم على أيدي المؤمنين، وذلك بالجهاد، وفيها إخبار مستقبلي آخر، وهو أن الحكمة من شرع الجهاد اختبار الله المؤمنين بالكافرين، ولكي ينصر الله بهم

دينه، وفيها إخبار مستقبلي ثالث، وهو أَنَّ جزاء مَنْ قُتِلَ في سبيل الله من المؤمنين أَنه لن يُبطل الله ثواب عمله، بل سيوفِّقه إلى طاعته ومرضاته، ويصلح شأنه في الدنيا والآخرة.

- أن قائد الحرب أو إمام الأمة مخير في حال الحرب بين المن على الأسارى بإطلاقهم، أو تقرير الفداء، وذلك بعد أن يكون قد أظهر قوة الجيش في القتال، كما قال-تعالى-مستنكراً المبادرة إلى الأسر قبل الإثخان بالقتل يوم بدر: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٧ - ٦٨].

- البشارة العظمى للذين قتلوا في سبيل الله أن الله لن يضيع أعمالهم، بل ينميها لهم، وسوف يهديهم إلى الجنة التي عرَّفها لهم في كتابه، وعلى لسان رسوله، كما قال-تعالى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس: ٩].

- أن الله قادر على إهلاك الكافرين، ولكن شرع الجهاد ابتلاء للأمة؛ ليرى مدى صبرها وقوتها وتضحيتها في سبيله، كما قال-تعالى-:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا﴾ [البقرة: ٢١٤].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ٧ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ٨ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ ٩ ﴿.

بيان الآيات:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ هذا أمر من الله-تعالى- للمؤمنين أن ينصروه بالعمل من أجل إظهار دينه، ونشره في الأرض بالدعوة إليه، ومجاهدة الأعداء الذين يصدون عنه، ونصرة دين الله تقتضي نصره رسوله باتباع أوامره، والالتزام بسنته، والدفاع عنها، والوقوف ضد من يتقول عليه، أو يستهزئ به، أو يكذب بنبوته ورسالته.

﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ أي: إذا نصرتم دين الله ورسوله ربط الله على قلوبكم، وثبتكم عند لقاء العدو، ونصركم عليه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: ليس لهم إلا العثار والشقاوة والهلاك، وضلال أعمالهم بعدم قبولها ﴿ذَلِكَ

بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأُحْبِطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤٠﴾ أي: ما حصل لهم هذا الشقاء والهلاك إلا بسبب كرههم لكتاب الله، وعدم التصديق به، فاقترضى عملهم هذا إحباط كل عمل من أعمالهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بأن من نصر دين الله نصره على أعدائه، فهذا وعد من الله، ووعدته الحق، كما قال-تعالى-: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُٓ وَ﴾ [الحج: ٤٠]، ونصر دين الله يقتضي حكماً نصره نبيه، والدفاع عن سنته، ومحاربة من يتقول عليه، أو يستهزئ به، أو يكذب بنبوته.
- أنه في الآية (٧) إخبار مستقبلي، وبشارة لعباد الله الذين صدّقوا به، واتَّبَعُوا الرسول، ونصروا دينه بالجهاد في سبيله، والحكم بكتابه، وامتنال أوامره، واجتناب نواهيه، فَإِنَّ الله سينصرهم على أعدائهم.
- تقرير أن التعاسة والشقاوة من نصيب الذين يكرهون كتاب الله، ويكذبون به.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَلُهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾﴾

بيان الآيتين:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ المراد بهم المشركون بالله، المصريون على شركهم،

رغم ما جاءهم من البينات .

﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ

عَلَيْهِمْ﴾ أي: ألم يتفكروا فيمن تعرضوا للهلاك من الأمم السابقة

المكذبة لرسالتها، كقوم هود وصالح ولوط وشعيب، حيث دمر الله

بلادهم وحصونهم ومزارعهم بالصيحة والرجفة والريح العاتية.

﴿وَالْكَافِرِينَ أَمَثَلُوا﴾ أي: أمثال ما حلّ بتلك الأمم، وهذا تهديد

لمشركي مكة أن يتفكروا فيمن قبلهم حتى لا يحل بهم ما حل بهم من

العذاب ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: إن الله يتولى المؤمنين

بولايته، فينصرهم على أعدائهم، أما الكافرون الذين كذبوا بآيات الله

فليس لهم مولى يواليهم؛ لأنهم خسروا أنفسهم في الدنيا والآخرة، كما

قال-تعالى:- ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾.

أحكام وفوائد الآيتين:

- وجوب الاعتبار بما يصيب الآخرين في أنفسهم وأموالهم، كما قال-

﴿فَاعْتَبِرُوا يٰٓأُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]. وقوله: ﴿إِنَّ

فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾
[ق: ٣٧].

- أن ولاية الله خاصة لأهل الإيمان بسبب صلاحهم، كما قال - تعالى -:
﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ
الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]، وأما الكفرة فلا ولاية لهم؛ لأنهم خسروا
هذه الولاية بسبب كفرهم، وإصرارهم عليه.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا
تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً
مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَنْ كَانَ
عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ
﴿١٤﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ هذا بيان من الله، ووعد لعباده الذين آمنوا به
وبرسله وكتبه أن يدخلهم الجنة بكل ما فيها من النعيم ﴿وَالَّذِينَ

كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ ﴿١﴾ أي: يتلذذون بمتع الحياة الدنيا وشهواتها ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ أي: مثلهم في أكلهم وشربهم مثل الأنعام التي لا تعرف إلا الأكل ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: مقر ومقام لهم، وفي هذا وعيد شديد للذين يلهون في حياتهم الدنيا، ويتمتعون فيها بالملذات، وينسون الآخرة.

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ ذكر ابن عباس-رضي الله عنهما- أن هذه الآية نزلت لما خرج رسول الله-ﷺ- من مكة إلى الغار، التفت إلى مكة، وقال: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»^(١)، والمراد: أن كثيراً من القرى كان أهلها أكثر عدداً وأموالاً وحصوناً من أهل مكة الذين أخرجوك ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ أي: أخذناهم بالعذاب، فلم يجدوا ناصرًا ينصرهم منه، وفي هذا تهديد ووعد شديد للمشركين الذين أخرجوا رسول الله-ﷺ- من بلده الذي كان يحبه.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي: من كان على بصيرة وبرهان وإيمان بالله وبرسوله وكتابه، والمراد بهم المؤمنون الذين آمنوا

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب فضل مكة، حديث (٣٩٢٥)، وصحه الترمذي، والألباني في صحيح سنن الترمذي.

بالله وكتابه ورسوله، يرجون ما عند ربهم، ويخافون من عقابه ﴿كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوُّ عَمَلِهِ وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: أن أولئك المؤمنين ليسوا مثل أهل الشرك والمعاصي الذين زينت لهم أنفسهم سوء أعمالهم، فاتبعوا أهواءهم، فلم يصدقوا ما جاءهم من عند الله على لسان رسوله، فهم كالأنعام أو أضل سبيلاً.

أحكام وفوائد الآيات:

- بيان حال المؤمنين ونقيضهم، فالمؤمنون يدركون أنهم على طريق الآخرة، فيعملون لها، والمكذبون بآيات الله يتنعمون في الدنيا، ويكفرون بالآخرة، فهم مثل الأنعام السائبة التي لا تفكر إلا فيما تأكل وتشرب.
- تسلية رسول الله - ﷺ - عن الظلم الذي تعرض له من قومه حين آذوه، واضطروه إلى ترك بلده الذي يحبه.
- تقرير التضاد بين المؤمنين الذين يعملون وهم على يقين من ربهم، وأولئك الذين يعملون تبعاً لأهوائهم.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ

وَأَنْهَرُ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلَدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾

بيان الآية:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: صفتها التي وعد الله بها عباده وأوليائه المتقين، الذين وضعوا أنفسهم في الدنيا على طريق الآخرة ﴿فِيهَا أَنْهَرٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ عَاسِنٍ﴾ أي: غير متغير ﴿وَأَنْهَرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ أي: لم يتطرق إليه فساد يغير طعمه ﴿وَأَنْهَرٌ مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ أي: وفيها أنهار من خمر فيه لذة لشاربيه، على عكس الخمر في الدنيا التي تسكر أصحابها، وتغير أمزجتهم ﴿وَأَنْهَرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أي: في غاية الصفاء وعدم الكدر، وأخرج الترمذي بسند صحيح عن حكيم بن معاوية، عن أبيه، عن النبي -ﷺ- قال: «إن في الجنة بحر الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر، ثم تُشَقَّقُ الأنهار بعد»^(١).

(١) السنن، (٤/٦٩٩)، (ح ٢٥٧١)، كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة أنهار الجنة، قال: «هذا حديث حسن صحيح»، وصححه الألباني في صحيح الترمذي، وأخرجه أحمد في المسند، (٥/٥)، والدارمي في السنن، (٢/٣٣٧)، كتاب الرقائق، باب في أنهار الجنة.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: ولهم في الجنة ما يرغبون فيه من كافة أنواع الثمار من الفواكه وغيرها ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: مع هذه المزايا يغفر الله لهم سائر ذنوبهم، فهل هؤلاء الذين أكرمهم الله، وصدق فيهم وعده مثل المشركين المخلدين في النار، الذين يسقون فيها الحميم الذي يقطع أمعاءهم، كما قال -ﷺ-: ﴿كَمَنْ هُوَ خَلِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾؟، الجواب: أن هؤلاء ليسوا كهؤلاء، فهل يدرك الذين يبارزون الله بالعداوة، ولا يتوبون إليه، ماذا سيكون مصيرهم يوم القيامة؟.

أحكام وفوائد الآية:

- الحكم بأن تقوى الله وطاعته هي السبب الموجب لرحمته، كما قال -تعالى-: ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥]، وقال: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]. والآيات في هذا كثيرة.

- البيان عن أنواع النعيم التي أعدها الله للمتقين.

- أن المقارنة بين عاقبة المؤمنين وعواقب الكفار مما يُثبت القلوب،

وَيُسَلِّيَ النفوس، وَيَشْحَذُهَا بالزاد في مواجهتها الصعبة للمكاييد والتحديات.

- أن تنكير ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ مع نِسْبَتِهَا إلى الربِّ-تعالى-تعظيم وتفخيم لها.

- الحكم بعدم التماثل بين أهل الإيمان وأهل الشرك والكفر.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ عَٰنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ۚ﴾ (١٨).

بيان الآيات:

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ المراد بهم المنافقون في المدينة، فقد كانوا يستمعون إلى رسول الله -ﷺ- وهو يتلو آيات الله، ليس لقصد الانتفاع من السماع، ولكن ليشعروه بإيمانهم، مع عدم صدقهم في بواطنهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من الصحابة: ﴿مَاذَا قَالَ عَٰنِفًا﴾ أي: ماذا قال سابقاً؟ وذلك لأنهم

لم يفهموا ما قاله-عليه الصلاة والسلام-؛ لأنهم أصلاً لم يقصدوا الرغبة في السماع، وقد وصفهم الله بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: ختم عليها بسبب ما ران عليها من الضلال، ومجانبة الحق، فتحولوا إلى منافقين ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: لم يتبعوا في نفاقهم سلطاناً أو برهاناً، بل اتبعوا أهواءهم، فضلوا

﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ أما الذين يبتغون الهدى من ربهم، ويتبعون ما أنزل على رسوله، فقد زادهم الله هدى، وثبتهم، ووفقهم لدوام هدايتهم ﴿وَعَاقِبَتُهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أي: أرشدهم إلى الأعمال التي توصلهم إلى هذه التقوى.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ المراد بهم كفار

قريش، أي: هل يستمرون على شركهم إلى أن تفاجئهم الساعة؟

﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: ظهرت علاماتها، وأولها: بعثة

رسول الله -ﷺ- ﴿فَأَنِّي لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ أي: من أين لهم

التذكر إذا جاءتهم الساعة بغتة، وهم عنها غافلون؟.

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بدم المنافقين، والتنديد بهم، وأن الله يطبع على قلوبهم، وقد

بين الله عذابهم يوم القيامة بقوله -عز ذكره-: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦]. وقوله -جل ثناؤه-: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

- تقرير أن للساعة علامات، منها: بعثة رسول الله -ﷺ-، ففي حديث أنس -رضي الله عنه- أن رسول الله -ﷺ- قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، وضم السبابة والوسطى^(١)، ومنها: انشقاق القمر، كما قال -تعالى-: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ ١١.

بيان الآية:

﴿فَاعْلَمْ﴾ المخاطب هنا هو الإنسان في عمومه، والمعنى: اعلم علم

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ ، (رقم ٤٩٣٦)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة، (رقم ٢٩٥١).

جزم ويقين ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ هذا هو توحيد الألوهية بكل أحكامه ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنْبِكَ﴾ أي: اطلب من ربك المغفرة، وفي الحديث: أن رسول الله -ﷺ- كان يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي»^(١). وكان-عليه الصلاة والسلام- يقول: «والله إني لأستغفر الله، وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(٢).

﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: استغفر للمؤمنين والمؤمنات؛ لأنهم لما آمنوا بالله حق الاستغفار لهم من ذنوبهم، وأخرج مسلم بسنده عن عاصم عن عبد الله بن سرجس قال: «أتيت النبي -ﷺ-، وأكلت معه خبزاً ولحماً، أو قال: ثريداً، قال: فقلت له: أَسْتَغْفِرُكَ لَكَ النبي -ﷺ-؟، قال: نعم! ولك، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنْبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ قال: ثم درت خلفه، فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه، عند ناغض كتفه اليسرى، جمعاً عليه خيلان كأمثال

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب: الدعاء للمشركين، (رقم ٦٣٩٨)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب: التعوذ من شر ما عمل، (رقم ٢٧١٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب: استغفار النبي -ﷺ- في اليوم والليلة، (رقم ٦٣٠٧).

الثَّالِثُ^(١).

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أي: يعلم أحوالكم في
ليلكم ونهاركم، كما قال -ﷺ-: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى
اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾
[هود: ٦].

أحكام وفوائد الآية:

- أن العلم قبل العمل، فطن الإمام البخاري بملكته الفقهية في تبويب
«الصحيح»، فعقد باباً في كتاب العلم بعنوان (باب: الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ
وَالْعَمَلِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ -تَعَالَى-: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾).
- وجوب العلم بأنه لا إله إلا الله وحده، وهذا العلم يقتضي عدة
أحكام، منها: العلم بأن الله هو الأول والآخر والظاهر والباطن،
ومنها: العلم بأنه الذي فطر السماوات والأرض، وأبدعهما،
وأنشأهما من العدم، ومنها: العلم بأنه الذي خلق الخلق كلهم،
وهم: الملائكة والإنس والجن وسائر الكائنات الأخرى من الحيوانات
والدواب، وما في البر والبحر من المخلوقات المختلفة، والعلم بأنه

(١) الصحيح، (٤/ ١٨٢٤)، حديث (٢٣٤٦)، كتاب الفضائل، باب إثبات خاتم النبوة وصفته،
ومحله من جسده -ﷺ-.

المتفرد بهذا الخلق، فلا يشاركه فيه أحد، ومنها: العلم بأن الله يعلم كل ما في السماوات والأرض وما بينهما، فلا يغيب عن علمه أي شيء، مهما كان حجمه واسمه، ومنها: أنه المتفرد بهذا العلم، ولا يشاركه فيه أحد من خلقه، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ومنها: أنه المتفرد بعلم الساعة، فلا يعلم قيامها إلا هو.

- أنه هو المدبر والمتصرف في الكون: علوه وسفله، وما يحدث فيه من حادث، وما ينزل فيه من نازلة إلا وهو يعلمها، ومنها: أنه متفرد عن خلقه بذاته العلية وأسمائه وصفاته، فليس له من ند ولا مثيل ولا نظير.

- أنه المستحق وحده للعبادة قولاً وعملاً، وأن أي عبادة لما سواه تعد عبادة باطلة، عاقبتها العذاب والخسران.

- وجوب استغفار العبد من ذنوبه، وأن يستغفر كذلك للمؤمنين والمؤمنات، لأنهم إخوانه وأولياؤه، كما قال-تعالى-: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ ۞ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ

مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٣﴾ .

بيان الآيات:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ هذه من الآيات التي نزلت في المدينة، حيث إن قتال المشركين لم يفرض إلا فيها، والمراد أن الناس كانوا يقولون بينهم: هلاً أنزلت سورة تأمر بالجهاد، وتشرعه حتى نجاهد في سبيل الله؟، ولما فرض الجهاد تولى عنه بعض الناس، وقد أخبر الله عن ذلك بقوله: ﴿فَإِذَا أَنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أي: أنزلت سورة غير منسوخة تحت على الجهاد، وتبين فضله ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: المنافقين ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: تراهم وكأن الموت يتغشاهم من شدة فزعهم وجبنهم عن القتال، وخوفهم من الموت.

﴿فَأَوَّلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: أن الأحق بهم ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أي:

امتنثال ما أمروا به، سواء في الأفعال أو الأقوال .

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي: لو أنهم

صدقوا الله في طلبهم الجهاد، ومعاهدتهم لرسول الله على القيام به،
 لكان ذلك أفضل لهم من النكول عنه ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾
 أي: يتوقع منكم أنكم إذا توليتم الإمارة، ونكلتم عن الجهاد، وتخليتم
 عنه.

﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أي: تعودوا إلى
 سابق عهدكم من الاقتتال، والفساد في الأرض، وقطيعة الأرحام
 ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ أي: أن
 أولئك الذين يفعلون هذه الأفعال الفاسدة قد لعنهم الله، فأصم آذانهم
 عن سماع الحق، وأعمى عيونهم عن النظر إليه، فهم مطرودون من
 رحمة الله.

أحكام وفوائد الآيات:

- عدم جواز التمني على الله، فقد أمر الله عباده أن يسألوه حاجاتهم،
 كما قال-تعالى:- ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ
 دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

- قال ابن عاشور في الآية: «هذه الآية إنباء عما سيكون من المنافقين
 حين يَجِدُ الجِدُّ، ويجيء أوان القتال، وهي من معجزات القرآن في
 الإخبار بالغيب، فقد عزم أمر القتال يوم أُحُد، وخرج المنافقون مع

جيش المسلمين في صورة المجاهدين، فلمَّا بلغ الجيش إلى الشوط بين المدينة وأُحُد قال عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين: ما ندري علامَ نقتل أنفسنا هاهنا أيُّها النَّاسُ؟، وَرَجَعَ هو وأتباعه، وكانوا ثلث الجيش، وذلك سنة ثلاث من الهجرة، أي: بعد نزول هذه الآية بنحو ثلاث سنين^(١).

- التنديد بالجبن والخور، كما قال-تعالى:- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَعَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

- تحريم الفساد في الأرض، وتوعد أصحابه بأشد العقوبات، سواء كانوا ولاة أمر أم أفراداً، والأحكام في هذا كثيرة، منها قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ

(١) التحرير والتنوير، (٩٣/٢٦).

وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ [الرعد: ٢٥].

- تحريم قطيعة الرحم، ففي حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -ﷺ- قال: «خلق الله -تعالى- الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم، فأخذت بحقو الرحمن -ﷻ-، فقال لها: مه؟، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟، قالت: بلى يارب! قال: فذاك»، قال أبو هريرة -رضي الله عنه-: «اقرأوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾»^(١).
- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ إشارة إلى المخاطبين بطريق الالتفات، إيذاناً بأن ذكر هَنَاتِهِمْ أوجب إسقاطهم عن رتبة الخطاب^(٢).

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: قوله -تعالى-: ﴿وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾، (رقم ٤٨٣٠)، ومسلم في كتاب البر والصلة، باب: صلة الرحم وتحريم قطعها، (رقم ٢٥٥٤).

(٢) تفسير أبي السعود، (٨/ ٩٩).

سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿٢٨﴾ .

بيان الآيات:

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ لما ذكر الله حال المنافقين وسلوكهم

قال- عز ذكره- في سياق الاستفهام الإنكاري لهم: أفلا يتدبرون القرآن

لكي يعلموا ما فيه من الهدى، فيهتدوا به؟ ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾

أي: هل طبع الله على قلوبهم بسبب نفاقهم، فانغلقت، فأصبحوا لا يعرفون الحق من الباطل، والهدى من الضلال.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾

أي: إن رجعوا إلى النفاق بعد أن تبين لهم الحق-وهو نبوة رسول الله-

ﷺ-ورسالته- ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: إن الذي

دفعهم إلى النفاق هو تزيين الشيطان لهم سوء أعمالهم، ووعدده لهم الأمانى الكاذبة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ

الْأَمْرِ﴾ أي: قال هؤلاء المنافقون للمشركين الذين كذبوا بالقرآن:

سوف نطيعكم سرّاً في بعض الأمور، فنكون على صلة بكم، ومودة لكم، وعدم الخروج لقتالكم، وسنتواطأ معكم في كل ما يصرف الناس عنكم، وقد كشف الله زيف هؤلاء المنافقين، وتوعدهم بالعذاب بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي: ما كانوا يخفونه في صدورهم خلافاً لما كانوا يظهرونه للمؤمنين من المودة .

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَكَةُ﴾ أي: كيف تكون حالهم إذا جاءهم ملك الموت وأعوانه، ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ﴾ أي: لإخراج أرواحهم من أجسادهم بالقوة والعنف ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ أي: أن هذا العذاب الذي نزل بهم هو بسبب اتباعهم للشيطان وأهوائهم، فأسخطوا الله، وابتعدوا عن كل ما يرضيه من الأعمال الصالحة، ومنها: الجهاد

﴿فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: أبطلها، وجعلها هباءً منثوراً.

أحكام وفوائد الآيات:

- وجوب تدبر القرآن وجوب عين على كل مسلم؛ لما فيه من الهداية، كما قال-تعالى:- ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].
- قال النسفي: «وأضيفت الأقفال إلى القلوب لأنَّ المراد الأقفال

- المختصة بها، وهي أقفال الكفر التي استغلقت، فلا تنفتح»^(١).
- بيان أسباب الارتداد، وأنها ليست خللاً في منهج الإسلام، أو قصوراً فيه، وإنما هي ثمرة الاستجابة لتسويل الشيطان وإملائه.
 - أن سبب النفاق سيطرة الشيطان على النفس، وتزيينه أعمال السوء لها، ووعدها الوعود الكاذبة، وانخداعها بهذه الوعود.
 - أن المنافق إذا رجع عن طاعة الله إلى معصيته، واتفق مع الأعداء على عدم الجهاد في سبيل الله، ومالاً الأعداء على المؤمنين، يعد مرتدّاً.
 - بيان ما يلاقيه المنافق ومن هو في حكمه من الكفرة عند الاحتضار، وفي القبر.
 - أن الله لا يتقبل أعمال المنافقين، بل يحبطها، ويجعلها هباءً منثوراً.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾.

(١) مدارك التنزيل للنسفي، (٤ / ١٤٩).

بيان الآيات:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنْهُمْ﴾

استفهام إنكاري، والمراد: أیظن المنافقون أن الله لن يكشف حقدهم وضغينتهم لرسوله وعباده المؤمنين، حتى يكونوا على علم بهم؟، بلى سوف يفضحهم الله .

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي: لو أردنا لكشفناهم

لك؛ لتعرفهم بأسمائهم، ولكن أردنا الستر عليهم، لعلمهم يتوبون من نفاقهم ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أي: سوف تعرفهم من أقوالهم ومقاصدهم إذا تكلموا عندك؛ لأن ما يخفيه الإنسان في قلبه يظهر على قسما ت وجهه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي: يعلم ما تعملون من سر وجهر، وسوف يجازيكم عليه.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي: سوف نفتنكم بالجهاد ﴿حَتَّى نَعْلَمَ

الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ أي: حتى نعرف من المجاهد منكم

بقلبه وجسمه؟، ومن الصابر عليه، والمحتسب فيه، الذي يبتغي وجه الله، وإعزاز دينه، ونصرة رسوله؟ ﴿وَنَبْلُواْ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي: نمتحن

ونعرف مدى صدقكم فيما تقولون، وتحدثون عن أنفسكم.

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بأن الله بَيَّن أسرار المنافقين وخفياهم في سورة التوبة، كما قال-تعالى:- ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤]، وقد أخفى أسماء بعض المنافقين سترًا لهم، علمهم يتوبون من نفاقهم.
- تقرير حقيقة عضوية، وهي أن ما يخفيه المرء في صدره من النفاق أو الكذب أو الفرح أو الغضب يظهر على قسَمات وجهه، كما يظهر من خلال حديثه، فيدل الظاهر على الباطن منه.
- أن الله يبتلي عباده، إما بما يوجب الجهاد عليهم، أو بما يصيبهم به من النوازل؛ ليعلم -وهو العليم بما كان وما سيكون لو كان كيف يكون- مدى صبرهم، وقوة إيمانهم، وفي هذا قال الإمام ابن كثير: وليس في تقدم علم الله بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب، فالمراد حتى نعلم وقوعه، ولهذا يقول ابن عباس-رضي الله عنهما- في مثل هذا: «إلا لنعلم أي: لنرى»^(١).
- بيان منهج القرآن في توطين النفوس، وتهيئتها لمواجهة البلاء، واستقباله بنفس راضية مطمئنة، وقلب ثابت راسخ.

(١) تفسير الطبري، (٢/٦٤٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ
بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَلُهُمْ
﴾. ﴿٣٢﴾

بيان الآية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الذين كذبوا بآيات الله ورسوله ﴿وَصَدُّوا
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: أنكروا الإسلام، وصدوا عنه بالكذب وقول
الباطل، وآذوا المؤمنين به ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ أي: كذبوه وعاندوه
﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ أي: بعد ما جاءهم بالبينات، وتبين
لهم صدق نبوته ورسالته ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ﴾ لأنه القاهر لهم، والقادر
عليهم، وإنما يضرّون أنفسهم؛ لأنه يحبط أعمالهم، فلا يثيبهم على أي
عمل قدموه، كما قال -تعالى-: ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَلُهُمْ﴾.

أحكام وفوائد الآية:

- الحكم بأن الكافر لا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله؛ لأنه أعظم من أن يضره كفر أحد من خلقه.
- أن حرف الاستقبال في الآية (٣٢) لتحقيق حصول الإحباط في المستقبل، وهو يدلُّ على أنَّ الله محبط أعمالهم من الآن.
- الحكم بأن أعمال المشركين والكفرة من بر أو صدقة أو نحو ذلك

مردودة عليهم؛ لأن الله لا يقبل منهم عدلاً ولا صرفاً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٥).

بيان الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ لما ذكر الله حال المنافقين، وكفرهم بالله، ومشاققتهم لرسوله، أمر المؤمنين أن يطيعوه، كما أمرهم أن يطيعوا رسوله، وطاعة الله وطاعة رسوله تقتضي الاستجابة لأمرهما، والانتفاء عن نهيهما ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أي: لا تبطلوها بارتكاب الكبائر والمعاصي.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ المراد بهم: الذين يكفرون بالله قولاً أو فعلاً، ويصدون خلقه عن الإيمان به، فيزينون لهم الباطل، ويكرهون لهم الحق، ويغرونهم بالمعاصي، ويموتون وهم على تلك الحال دون توبة، فهؤلاء لن يغفر الله لهم ذنوبهم.

قوله: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي: لا تضعفوا وتتركوا منازلة الأعداء، وتستسلموا لهم، وأنتم أقوىاء بإيمانكم، وفوق ذلك أن الله معكم بنصره إذا عرف صدقكم وجهادكم في سبيله .

﴿وَلَنْ يَتْرَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ أي: لن ينقصكم ثواب أعمالكم، بل يضاعفه لكم.

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بوجوب طاعة الله وطاعة رسوله، كما قال-تعالى:-
﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

- قوله-عز ذكره:- ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

- النهي عن إبطال الأعمال بعد عملها، ويشمل ذلك ما يعملها المسلم من صلاة وزكاة وصيام وحج وغير ذلك، فإبطال الصلاة يكون بالرياء فيها، وإبطال الزكاة يكون بالمباهاة فيها، وإبطال الصيام بالغيبة والنميمة، وإبطال الحج بالرفث والفسوق فيه، وذلك لأن تمام كل عمل وقبوله من الله مبني على النية فيه، وعلى تجريده من

مبطلاته.

- وجوب التوبة من الأعمال الفاسدة قبل الممات، والآيات والأحكام في وجوب التوبة كثيرة، كما قال-تعالى:- ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٧ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ اللَّهَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٨﴾ [النساء: ١٧ - ١٨].

- أنه في الآية (٣٥) إخبار مستقبلي، وبشارة عظيمة لعباد الله المؤمنين به وبرسوله، بالنصر والظفر على الأعداء، فيما إذا لم يضعفوا عن جهاد المشركين، وتجنبوا قتالهم.

- النهي عن الاستكانة للأعداء ومسالمتهم، وترك قتالهم إذا كان المسلمون في حال من القوة، أما إذا كان المسلمون في حال من الضعف، والكافرون أشد منهم قوة، وجبت مهادنتهم والصلح معهم، مع وجوب الاستعداد بالقوة لمنازلتهم إذا استمروا على عداوتهم.

﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ ٣٦ ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخُلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَنْكُمْ ﴾ ٣٧ ﴿ هَآأَنْتُمْ هَآؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ ٣٨ .

بيان الآيات:

﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ ﴾ هذا هو واقع الحياة ونتيجتها، إلا ما كان منها لله -عز وجل- من الأعمال الصالحة ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ ﴾ أي: إن تؤمنوا بالله، وتطيعوه بما أوجبه عليكم، وتتقوه باجتناب نواهيه، فإنه سوف يؤتكم ثواب هذا الإيمان وهذه التقوى ﴿ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ لأنه غني عنكم، وإنما أراد منكم الإنفاق في سبيله، كالجهاد ومساعدة إخوانكم المحتاجين؛ ليكون ذلك عوناً لهم، وثواباً لكم في الآخرة.

﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخُلُوا ﴾ أي: لو سألكم كل أموالكم لكان في ذلك إحفاء لكم، أي: إجهاد لكم، يجعلكم تبخلون بها

﴿وَيُخْرِجُ أَضْعَانَكُمْ﴾ أي: أحقادكم، فتكرهون الدين وتنفرون منه ﴿هَآأَنُتُمْ هَآؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ﴾ أي: أنتم تدعون لتبذلوا جزءاً من أموالكم في الجهاد، أو في دفع الزكاة لأصحابها، أو الصدقة للمحتاجين من المسلمين، ومع ذلك منكم من يبخل، أي: يكره أن يفعل ذلك ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ﴾ أي: إنما حرم نفسه من الأجر والثواب، فيعود إثم ذلك عليه، أما الله فهو الغني بذاته العلية، وقدرته العظيمة عن خلقه، وهم فقراء إليه في الدنيا والآخرة، ولهذا قال- تعالى:- ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾.

قوله: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ أي: تعرضوا عن طاعته وطاعة رسوله مما أمركم به من الأقوال والأفعال في المعتقدات والعبادات ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: يأت بأقوام آخرين يطيعونه، ولا يعصونه ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ أي: لا يكونوا مثلكم في المعصية.

أحكام وفوائد الآيات:

- التحذير من غرور الدنيا، واللهو واللعب فيها، وترك العمل للآخرة، كما قال- تعالى:- ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

- أنه في الآية (٣٨) إخبار مستقبلي عن عاقبة المؤمنين فيما إذا تَوَلَّوْا عن الإيمان بالله، وامتنال أمره، فَإِنَّ الله سيهلكهم، ويأتي بقوم آخرين، ولا يكونون أمثالهم في التَّوَلَّى عن أمر الله، بل يطيعونه، ويطيعون رسوله، ويجاهدون في سبيله بأموالهم وأنفسهم.

- الحكم بزم البخل والإعراض عن الإنفاق في سبيل الله، وأن من يبخل إنما يبخل عن نفسه، فيحرمها ثواب البذل والعطاء، أما الله فهو غني بذاته العلية عن خلقه، كما قال-تعالى:- ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ مَجْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠].

- أن من يتولى عن طاعة الله، ويعرض عن أوامره يأتي الله بأفضل منه، كما قال-تعالى:- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الفتح

مدنية، وآياتها تسع وعشرون آية

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ
ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢
وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾.

بيان الآيات:

نزلت هذه السورة بعدما رجع رسول الله -ﷺ- من الحديبية في شهر ذي القعدة من السنة السادسة من الهجرة النبوية، بعدما صده المشركون عن المسجد الحرام الذي جاء إليه هو وأصحابه للاعتمار، ثم مالوا بعد ذلك إلى الصلح، وأن يرجع-عليه الصلاة والسلام- عنهم ذلك العام، ثم يأتي العام القابل، فوافقهم على ذلك، فلما نحر الهدي الذي أحضره معه، ورجع أنزل الله هذه السورة^(١) بقوله -ﷻ-: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ فالفتح المراد هنا يوم الحديبية؛ لأن فيه ما بعده من الخير الكثير، ومن ذلك: اطمئنان الناس بالأمن

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، (رقم ٤٨٣٤)، مختصرًا جدًا، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب: صلح الحديبية في الحديبية، (رقم ١٧٨٦).

والتواصل، وما حدث من فتوحات ونصر للإسلام، ومن ذلك: فتح مكة وخيبر وغيرهما.

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي: ليغفر لك

بسبب جهادك وصبرك وتحملك المشاق في سبيل الدعوة إلى الله، وفي حديث أنس: أن رسول الله -ﷺ- قال: «لما نزلت عليه هذه الآية بعد رجوعه من الحديبية: «لقد أنزلت عليّ الليلة آية أحب إليّ مما على الأرض»، ثم قرأها عليهم، فقالوا: هنيئًا مريئًا يا رسول الله!، لقد بين الله -ﷻ- ما يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟، فأنزل الله قوله: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(١).

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أي: في الدنيا بالنصر والفوز، وفي الآخرة

بما اختصه الله به من الفضائل الكبرى، كالشفاعة العظمى ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي: بما ينزله عليك من أحكام الدين وشرائعه، وهدايته للناس ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي: سوف ينصرك على أعدائك نصرًا مؤزرًا، تفرح به، وتقر به عينك.

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب: غزوة الحديبية، (رقم ٤١٧٢)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب: صلح الحديبية في الحديبية، (رقم ١٧٨٦)، واللفظ للبخاري.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الفتح المراد هو يوم صلح الحديبية، وفي هذا: روى البخاري عن البراء بن عازب -رضي الله عنه- قال: «تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع رسول الله -ﷺ- أربع عشرة مئة، والحديبية بئر، فنزحناها، فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله -ﷺ- فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء، فتوضأ، ثم مضمض، ودعا، ثم صبّه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا»^(١).

- إعجاز القرآن الكريم في إخباره عن المستقبل، فقد وصف الله الفتح بالمبين، على خلاف ما رآه كثير من الصحابة لصلح الحديبية بادئ الأمر.

- استفتاح السورة بهذه البشارة العظيمة، فقد كان صلح الحديبية فاتحة خير على الدعوة، وتمهيداً لما تبّعه من فتح مكة، وفتح خيبر وغيرهما.

- أن المراد بالذي غفر الله لرسوله -ﷺ- ليس ذنباً بسبب كبيرة من الكبائر، فحاشاه -عليه الصلاة والسلام-، وإنما المراد ذنوب المتقين

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب: غزوة الحديبية، (رقم ٤١٥٠).

الأبرار.

- أن الله -ﷻ- أتم نعمته على رسوله بالفتوحات العظيمة، ونصره على أعدائه، وهداه إلى الصراط المستقيم بما أوحى إليه من الآيات والأحكام العظيمة، التي أنزلها رحمة لعباده.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ۖ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤﴾
لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾.

بيان الآيات:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أن الله هو الذي أنزل الطمأنينة على أصحاب رسول الله -ﷺ- يوم الحديبية، وكانوا ألفا وأربعمئة بعد أن أصابهم نوع من القلق والشدة لما علموا

بالصلح، وعدم تمكنهم من الاعتماد الذي جاؤوا من أجله.

قوله: ﴿لِيَزِدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ أي: يزداد إيمانهم بأنهم على

الحق، وأن الله ناصرهم على عدوهم .

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له القوة، فلو شاء لأرسل

ملائكته، فأهلك من يعادي دينه، ولكن حكمته اقتضت أمر العباد بالجهاد ليكون في ذلك خير لهم .

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: كان-ولا يزال-عليمًا بأحوال

خلقه، حكيماً في تدبيره لهم، وتصرفه فيهم.

﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ هذا وعد منه-عز وجل، ووعد

الحق-أنه سيدخل عباده المؤمنين والمؤمنات جناته بما فيها من النعيم، ويخلدهم فيها، ويكفر عنهم خطيئاتهم، فلا يحاسبهم عليها .

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: هذا الذي يحصل لهم

هو الفوز العظيم من ربهم.

وأخرج مسلم بسنده عن أنس بن مالك قال: « لما نزلت: ﴿إِنَّا

فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَوْزًا

عَظِيمًا ﴿١﴾ مرجعه من الحديدية، وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد غير الهدى بالحديدية، فقال: «لقد أنزلت عليّ آية هي أحب إليّ من الدنيا جميعاً»^(١).

وأخرج البخاري بسنده عن أنس بن مالك: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ قال: الحديدية، قال أصحابه: هنيئاً مريئاً، فما لنا؟، فأنزل الله: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(٢).

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يحاسب ويعاقب هؤلاء على نفاقهم وشركهم، وظنهم السيئ بأن الله لن ينصر رسوله، وأن أصحابه الذين صدقوه سيقتلون، ولن يكون لهم نصر، فمقت الله هؤلاء على ظنهم، وقال: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أي: سوف تدور عليهم دائرة السوء، وعليهم الغضب من الله والطرده من رحمته.

(١) الصحيح، (١٤١٣/١٣)، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديدية في الحديدية، حديث (١٧٨٦).

(٢) الصحيح، كتاب المغازي، باب غزوة الحديدية، حديث (٤١٧٢).

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: هيا لهم جهنم؛

ليعذبوا فيها، وبئس المصير الذي يصيرون إليه فيها.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له الملائكة في السماوات

وفي الأرض، ينتقم بها من أعداء دينه ورسوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾

أي: غالبًا في مراده ﴿حَكِيمًا﴾ في تدبيره.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الله أنزل السكينة على صحابة رسول الله - ﷺ - لما علموا من

صلح الحديبية أنهم لن يتمكنوا من الاعتماد في ذلك اليوم.

- تثبيت قلب النبي - ﷺ - والمؤمنين بذكر جنوده في السماوات

والأرض؛ لنصرة أوليائه.

- وعد الله لعباده المؤمنين بإدخالهم الجنة، وتخليدهم فيها، وتكفير

سيئاتهم.

- الوعيد بالعذاب للمنافقين والمشركين لقاء نفاقهم، وشركهم،

وظنونهم السيئة بأن الله لن ينصر رسوله وأصحابه.

- الحكم بأن الله إذا شاء أرسل جنوده في السماوات والأرض للانتقام

من أعداء دينه، إلا أنه شرع الجهاد لعباده؛ ليكون في ذلك خير

لهم.

- قال الرازي في الآية : «كَرَّرَ اللفظ لأنَّ جنود الله قد يكون إنزالهم للرحمة، وقد يكون للعذاب، فذكرهم أولاً لبيان الرحمة بالمؤمنين، وثانياً لبيان إنزال العذاب على الكافرين»^(١).

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ .

بيان الآيتين:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ هذا من نعم الله على عبده ورسوله محمد-ﷺ-، وامتنانه عليه بأنه أرسله لأُمته، شاهداً لله-تعالى- بأنه الرب الخالق الذي لا خالق غيره، وأنه الإله الواحد الذي لا إله غيره، وشاهداً على الخلق يوم القيامة بما بلغهم به من رسالة الله إليهم ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بأن لهم الفوز في الدنيا والآخرة ﴿وَنَذِيرًا﴾ أي: منذراً للمشركين والمنافقين بأن لهم العذاب إذا لم يتوبوا إلى الله ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: أرسلنا نبينا ورسولنا محمداً إليكم؛ لتؤمنوا بالله أنه الإله الحق، وتؤمنوا بأن رسوله مرسل من عنده ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي: تنصروه ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تقدروه وتبجلوه، وهذا

(١) التفسير الكبير، (٢٨/٦٥) .

التعزيز والتوقير واجب على العباد لله ورسوله، كما أخرج الطبري بسنده الحسن عن قتادة: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ «ينصروه»، ﴿وَتُوقِّرُوهُ﴾ أمر الله بتسويده وتفخيمه ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: تنزهوا الله في الغداة والعشي، وذلك ذكره، وهذا خاص به وحده.

أحكام وفوائد الآيتين:

- تقرير نبوة رسول الله - ﷺ -، وأن الله أرسله إلى الثقليين: الإنس والجن، كما قال- تعالى-: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].
 - ثناء الله على رسوله - ﷺ - بأنه شاهد ومبشر للمؤمنين ونذير للكافرين.
 - وجوب الإيمان بالله ورسوله وتوقيره، ووجوب تسبيح الله في الصباح والمساء، بما يقتضي ذكره وتقديسه وتعظيمه.
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسْئُوتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

بيان الآية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾

هذا بيان من الله لرسوله بأن الذين يبائعونه على قتال المشركين إنما يبائعون الله؛ لأنه الذي أمر بقتالهم حتى يسلموا، فلهذا قال: ﴿فَمَنْ نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ ٱللَّهُ فَمِنْ فَسْیُوتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وذلك لائتمارهم بما أمرهم به، وهذه البيعة هي بيعة الرضوان.

﴿فَمَنْ نَّكَثَ﴾ أي: نقض ما عاهد عليه ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ أي: إثم نكثه على نفسه، أما الله فغني عنه ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ ٱللَّهُ﴾ أي: استمر على عهده، فجاهد مع الرسول صابراً محتسباً ﴿فَمِنْ فَسْیُوتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: يعطيه الأجر العظيم، وهو الجنة والخلود فيها.

أحكام وفوائد الآية:

- وجوب الوفاء بالعهد، وهذا يشمل عهد العبد مع ربه بما يجب عليه من توحيده، وطاعته، وترك معاصيه، وهو العهد الأول، كما قال- تعالى:- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، والثاني: عهد العبد مع الخلق، كما هو الحال في الأمانة والدين

وغير ذلك من أنواع التعامل، والأصل في وجوب الوفاء بالعهد قول الله-تعالى:- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، والوفاء بالعهد يقتضي تحريم نقضه، كما قال-تعالى:- ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾.

بيان الآيات:

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ المراد بهم: أعداد من

القبائل التي كانت تسكن حول المدينة، مثل: غفار ومزينة وجهينة وغيرهم، استنفرهم رسول الله -ﷺ- للخروج معه إلى مكة للعمرة، فاختاروا عدم الخروج بعد أن ظنوا أن قريشاً سوف تنتصر على رسول الله وعلى المؤمنين، فلما رجع رسول الله -ﷺ- من الحديبية أنزل الله عليه هذه الآية^(١)، بأن هؤلاء الأعراب سوف يعتذرون إليك، ويقولون: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾، فاضطررنا إلى التخلف عنك من أجل القيام عليها ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ أي: اطلب من الله أن يتجاوز عن خطئنا بعدم الخروج معك، ولأنهم لم يكونوا صادقين في قولهم أنزل الله قوله-تعالى-: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: لم يكونوا صادقين بأن أموالهم وأهلهم سبب تخلفهم، بل كان السبب خوفهم وظنهم السيئ، ولهذا أمر الله رسوله أن يقول لهم: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أي: قل لهؤلاء المتخلفين: هل يرد عنكم ما يريد الله بكم من الضر، أو يرد عنكم ما يريد الله لكم من الخير إذا أنتم عصيتم أمر الله وأمر رسوله؟، والجواب: أنه لا أحد ينفعهم قطعاً.

﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: خبيراً بنواياكم

(١) تفسير مجاهد، (ص ٦٠٧).

وظنونكم السيئة في الله ورسوله، كما قال-تعالى-: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي: داخلكم الظن بأن قريشاً سوف تقتل محمداً وأصحابه، فلن تبقى لهم باقية، فأردتم أن تجعلوا معها يداً.

﴿وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: زينه الشيطان لكم؛ ليصدكم عن سبيل الله، وليحرمكم مما حصل من الأجر العظيم للذين استجابوا لرسول الله، فخرجوا معه وبايعوه ﴿وَوَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أي: أن الرسول ومن معه لن يرجعوا إلى المدينة ولا إلى أهليهم ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي: فاسدين في عقيدتكم، وأخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ قال: «هالكين».

﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ أي: أن من لم يؤمن بالله حقاً وصدقاً وإخلاصاً، فإن الله أعد له ولكل الكافرين عذاب السعير.

أحكام وفوائد الآيات:

- كشف الله ستر المتخلفين عن العمرة مع رسول الله - ﷺ -، وكذبهم

في الاعتذار، وإظهار أن سبب تخلفهم الخوف والظن في الله ظن السوء، واعتقادهم أن الرسول ومن معه لن يرجعوا إلى المدينة؛ لأن قريشاً سوف تقتلهم.

- الحكم بأنه لا أحد في الوجود يقدر على نفع أحد أو ضره، بل إن الله هو القادر وحده على ذلك.

- إعجاز القرآن الكريم في إخباره عن الغيب المستقبلي، وتحقيقه كما أخبر.

- تحريم ظن السوء بالله أو رسوله؛ لقول رسول الله - ﷺ -: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»^(١).

- أن عدم الإيمان بالله ورسوله موجب لأشد العذاب يوم القيامة.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾^(١٤).

بيان الآية:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ لما ذكر الله - ﷻ - حال المتخلفين وما كانوا عليه من الظن

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب: ما ينهى عن التحاسد والتدابير، (رقم ٦٠٦٤)، ومسلم في كتاب البر والصلة، باب: تحريم الظن والتجسس والتنافس، (رقم ٢٥٦٣).

السيئ، وكذبهم في اعتذارهم، بَيَّن أن ملك السماوات والأرض كله له، وأنه يغفر لمن يشاء من عباده، بسبب توبته ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بسبب إصراره على الكفر، وفي هذا إشارة إلى أن الله غفر لمن تاب منهم، وعفا عن سيئاته، وهو المراد من قوله -ﷻ -: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ فيغفر للتائب، ويكفر عنه سيئاته.

أحكام وفوائد الآية:

- الحكم أن ملك السماوات والأرض وما فيهما لله وحده، فهو المالك المطلق لهما، والمتصرف فيهما بما يشاء.
- الحكم بأن المغفرة والعذاب بمشيئته؛ فيغفر لمن تاب وأناب إليه من عباده، ويعذب من أصرَّ منهم على الكفر.
- أن الله رحيم بعباده، يتجاوز عن سيئاتهم وخطيئاتهم، كما قال -ﷻ -: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُل لَّنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكَ سَبَّحَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَمَيَّاقُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ١٥.

بيان الآية:

لقد وعد الله المؤمنين الذين خرجوا مع رسول الله -ﷺ- إلى الحديبية أن تكون لهم مغانم كثيرة بعد رجوعهم -كما سنرى-، ومن ذلك: فتح خيبر وما فيها من المغانم الكثيرة، فأخبر الله رسوله أن الأعراب الذين تخلفوا عنه سيطلبون الذهاب معه إلى الغزو، كما أخبر -تعالى- عن ذلك بقوله: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أي: نخرج معكم للغزو، وهدفهم من الخروج الحصول على المغانم، وليس الجهاد في سبيل الله، فمنعهم الله من ذلك بقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ والمراد به: ما أعدده لأهل الحديبية من المغانم بعد رجوعهم، وهؤلاء ليسوا منهم، فأمر الله رسوله أن يقول لهم: ﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكَم قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: وعد الله أهل الحديبية، ولستم منهم.

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسُدُونَنَا﴾ أي: سيقولون لكم: إن عدم خروجنا معكم لغزوة خيبر ما هو إلا حسد وحرمان لنا من المغانم ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ليس هذا هو السبب كما زعموا، بل السبب عدم استجابتهم للخروج مع رسول الله، ولكنهم لا يفهمون.

أحكام وفوائد الآية:

- الحكم بأن الله وعد المؤمنين العائدين من الحديبية بالمغانم في غزوة خيبر، وقد صدق وعده، فغزا رسول الله - ﷺ - وصحابته خيبر، ففتحوها، وغنموا المغانم الكثيرة منها.
- إعجاز القرآن الكريم في إخباره عن الأمور المستقبلية.
- أن التخلف عن دعوة الحق يورث أصحابه الحسرة والندامة، وذلك بسبب ما يفوتهم من خيري الدنيا والآخرة.
- سوء الوصف بالجهل، وما يجب من الإعراض عن أصحابه، كما قال- تعالى:- ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقال- عز ذكره- في وصف المؤمنين: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].
- ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۚ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٧ ﴾.

بيان الآيتين:

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بِأُسِّ شَدِيدٍ﴾

أي: قل يا نبينا محمداً للذين تخلفوا عن صحبة الرسول يوم الحديبية: ستدعون في يوم من الأيام لقتال أناسٍ لهم بأس شديد.

﴿تَقْتُلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي: تقاتلونهم، أو هم يبادرون إلى

الإسلام، فلا يحتاجون إلى قتال منكم ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا﴾ أي: إن تطيعوا

الأمر الذي يأمركم بالجهاد، ولا تتخلفوا عنه كما فعلتم من قبل

﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي: يثيبكم الله على عملكم بالأجر

الحسن ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ﴾ أي: إن تعرضوا كما

فعلتم يوم دعيتم إلى السفر مع رسول الله - ﷺ - ﴿يُعَذِّبُكُمُ عَذَابًا

أَلِيمًا﴾ أي: شديداً.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى

الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ هذا استثناء لأصحاب الأعذار: الأعمى والأعرج

والمريض، فليس عليهم إثم ﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ

تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: يطيعهما فيما يأمرانه به من الأوامر

كالجهاد ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: من ينكل عن

الجهاد يعذبه الله بالعذاب الشديد.

أحكام وفوائد الآيتين:

- الدليل على صحة خلافة أبي بكر وعمر؛ فأبو بكر دعا هؤلاء المتخلفين إلى قتال بني حنيفة، وعمر دعاهم إلى قتال فارس، ومن المعلوم أن الداعي للمتخلفين لن يكون الرسول؛ لأن الله قال عنه: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ﴾ [التوبة: ٨٣]، وقد دعاهم أبو بكر وعمر في خلافتهما.
- أن في قوله-تعالى-: ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ الآية (١٦) وقفًا نبويًا، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).
- أن الله رفع الحرج عن أهل الزمان، وهم: الأعمى والأعرج والمريض، فليس عليهم إثم إذا لم يخرجوا للجهاد بسبب أحوالهم.
- أن الله وعد-ووعده الحق-بأن من أطاع الله، واستجاب لأمره في الجهاد وغيره سيجزيه بإدخاله الجنات، بما فيها من النعيم، وذلك على خلاف المعرض عن أمره، فهذا يستحق العذاب الشديد.
- أن في قوله-تعالى-: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية (١٧) وقفًا نبويًا، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ .

بيان الآيتين:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ هذا بيان من الله عن رضاه عن الذين بايعوا رسوله تحت الشجرة على الموت، أو ألا يفروا عنه، وهي بيعة الرضوان كما سبق بيانها ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: علم ما فيها من الإخلاص، والصدق، والاستجابة لأمر الله وأمر رسوله ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ وهي الطمأنينة، وتعزيز الإيمان في نفوسهم، وأخرج الطبري بسنده الحسن عن قتادة قوله- تعالى:- ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الصبر والوقار ﴿وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: ما حصل من الصلح مع المشركين، وما تلا ذلك من فتح خيبر وحصول المغانم الكثيرة، وما تبع ذلك-أيضًا- من فتح مكة وكثير من البلاد ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ وهي غنائم خيبر كما ذكر ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ بقوته ﴿حَكِيمًا﴾ في تدبيره لخلقه.

أحكام وفوائد الآيتين:

- بيان ما لأهل بيعة الرضوان من الفضل العظيم؛ لما رواه جابر بن عبد الله -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة»^(١).
- أن الله إذا علم صدق عباده وإخلاصهم أنزل السكينة عليهم، فتعززت في نفوسهم قوة الإيمان، فلم يعودوا يشعرون بالقلق أو الخوف من أعدائهم، ناهيك بما يحققه لهم من النصر المبين عليهم، والحصول على الغنائم منهم.

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُم هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُم وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ٢١﴾ وَلَوْ قَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُم وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ

(١) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب، باب: في فضل من بايع تحت الشجرة، (رقم ٣٨٦٠)، وأبو داود في كتاب السنة، باب: في الخلفاء، (رقم ٤٦٥٣)، وصححه الترمذي، وصححه الألباني.

وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

بيان الآيات:

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ هذا بيان من الله عن امتنانه على عباده المؤمنين، ووعدهم بالمغانم الكثيرة إلى يوم القيامة إذا أخلصوا في دينهم، واستجابوا لأمر ربهم بنشر دينه، وإعلاء كلمته، وقد عجل لهم مغانم خيبر لوفرتها ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أي: ومنع أن تمتد إليكم أيدي الأعداء بسوء، فأخذتم الغنائم بدون جهد وقتال.

﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولتكون الغنائم دلالة واضحة على قدرة الله-تعالى- في نصر المؤمنين ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي: ويدلكم على الطريق المستقيم الذي يتحقق لكم به الفوز في الدنيا والآخرة.

﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي: وعدكم فتوحات أخرى لم تقدرُوا عليها في وقتها، ولكن الله أحاط بها أي: أَعَدَّهَا لَكُمْ، فتكون باقية لكم إلى يوم القيامة ما دمتم متمسكين بصراط الله الذي هداكم إليه ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أي: هو قادر على كل شيء، ومن ذلك: نصر عباده وأوليائه المؤمنين،

وتوريتهم الأرض.

﴿وَلَوْ قَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ في هذا بشارة للمؤمنين أن النصر سيكون لهم إذا قاتلهم الكافرون، وحينئذ لن يجد الكافرون ولياً يواليهم، أو ناصرًا ينصرهم.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: أن من سننه الكونية العظيمة: أن الإيمان ينتصر على الكفر، والحق على الباطل ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: وهذه السنة لن تتغير، ولن تتحول.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ لمراد هنا يوم الحديبية.

فقد أخرج مسلم بسنده عن أنس بن مالك أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله - ﷺ - من جبل التنعيم متسلّحين، يريدون غرة النبي - ﷺ - وأصحابه، فأخذهم سلماً، فاستحياهم، فأنزل الله - عز وجل -: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾^(١)، وكان هذا من دواعي صلح

(١) الصحيح، (٣/١٤٤٢)، كتاب الجهاد، باب: قول الله - تعالى -: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ

عَنْكُمْ﴾، (رقم ١٨٠٨).

الحديبية ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي: عالماً وبصيراً بكل ما كان يحدث للمسلمين مع أعدائهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الله قد صدق ما وعد به المؤمنين من الحصول على المغام الكثيرة.
- فضل الله على عباده المؤمنين بأن صد عنهم الذين كانوا يتآمرون على ذرياتهم ومساكنهم في المدينة، حين كانوا في حصار خيبر مع رسول الله - ﷺ -، وجعل هذه آية للمؤمنين؛ ليزداد إيمانهم.
- وعد الله لأجيال المؤمنين بأنهم سوف يغنمون مغام وفتوحات أخرى لم يتمكن أسلافهم منها، فحبسها لأجيالهم، وهذا هو ما حدث حين فتح المسلمون بلاد فارس وغيرها، وغنموا الأموال الكثيرة، ثم تتابعت بعد ذلك الفتوحات، ولم تتوقف إلا بعد أن ضعف المسلمون، واستكانوا، والوعد الذي وعده الله لهم باق إلى يوم القيامة إذا أخلصوا في عقيدتهم، وأتمروا بأمر ربهم، وانتهوا عما نهاهم عنه.
- أن الله وعد المؤمنين - ووعد الحق - بأن الكفار لو قاتلوهم سوف يولون الأدبار أمامهم، ولن يجدوا لهم ولياً يواليهم، أو نصيراً ينصرهم.

- أن سنة الله قد مضت أن الإيمان يعلو على الكفر، وأن الحق يعلو على الباطل، وآخر الفضائل على عباد الله المؤمنين الذين كانوا مع رسول الله - ﷺ - أن صرف عنهم كيد المشركين الذين أرادوا مباغتتهم وهم في الحديبية، فمكّن الله المؤمنين من أسرهم، ثم امتن عليهم رسول الله، فأطلق سراحهم، وكان ذلك من أسباب صلح الحديبية كما ذكر آنفاً.

- أن سلامة الأبدان وحفظ النفوس من مقاصد الإسلام، ومن لطف الله بعباده المؤمنين.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ ۖ وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطْطُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

بيان الآية:

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ هذا بيان من الله - ﷻ - بأن الذين صدوا رسوله والمؤمنين عن المسجد الحرام هم المشركون الذين كفروا بالله وآياته، وكذبوا رسوله.

﴿وَالْهَدَىٰ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ أي: وبسبب كفرهم صدوا

الهدي الذي كان معكوفًا أي: محبوبًا مع المؤمنين ينتظر أن يحل محله، كما أخرج الطبري بسنده الحسن عن قتادة قوله-تعالى:-
﴿وَالْهَدَىٰ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ أي: «محبوسًا».

﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُّؤْمِنَاتٍ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ أي: لولا

أن في مكة رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات يخفون إسلامهم خوفاً على أنفسهم من المشركين لكننا أذنا لكم في القتال، ولكن خشية ﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيْبَكُمْ مِنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: خوفاً من أن تطوؤهم أثناء القتال، فتصيبكم معرة أي: إثم بغير علم منكم.

﴿لِيَدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: لم يرض الله لكم

بالقتال، وإنما أراد الصلح رحمة بالمؤمنين الذين لا تعلمونهم، ولعل المشركين يتخلون عن شركهم وبغيهم وعدوانهم، فتشملهم الرحمة.

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: لو

تميز المشركون عن المؤمنين لأذنا لكم في القتال، فقتلتموهم، فأصابهم العذاب الأليم، كما أخرج الطبري بسنده الحسن عن قتادة قوله-تعالى:- ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا

أَلِيمًا ﴿١٩٦﴾ قال: «إن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار».

أحكام وفوائد الآية:

- التنديد بما فعله المشركون من صد رسول الله - ﷺ - وأصحابه عن دخول مكة.

- حكم الإحصار، وهو أن من منع من دخول البيت الحرام وهو محرم، يريد الحج أو العمرة، وأحصر بسبب عدو أو مرض أو نحو ذلك، فعليه أن يتحلل، ويذبح هديه في مكانه، ويرجع من حيث أتى، والأصل فيه قول الله - تعالى -: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

- وجوب الحيطة والحذر من إلحاق الأذى بالمسلمين الذين يكونون في مكان الأعداء.

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ ﴿٢٠٠﴾.

بيان الآية:

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾

الحمية: الأنفة والكبرياء، والمراد أنفتهم من الإقرار بنبوة رسول الله - ﷺ - ورسالته؛ لأنه لما أراد كتابة صلح الحديبية قال رسول الله - ﷺ - : «اكتب يا علي: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: لا ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم؟، ولكن اكتب ما نعرف: باسمك اللهم، فقال رسول الله - ﷺ - : «اكتب: من محمد رسول الله»، فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك، فقال-عليه الصلاة والسلام-: «اكتب: من محمد بن عبد الله»^(١).

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ أي: أنزل الطمأنينة والهدوء ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ بل رضوا بما ذهب إليه رسول الله - ﷺ - من أمر الصلح، فلم يأنفوا منه، ولم يمتنعوا عن قبوله ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ وهي: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير^(٢)، وأخرج الطبري بسنده الحسن عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ يقول: «شهادة أن لا إله إلا الله، فهي كلمة التقوى، يقول: فهي رأس التقوى».

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب: عمرة القضاء، (رقم ٤٢٥١)، ومسلم في كتاب الجهاد، باب: صلح الحديبية في الحديبية، (رقم ١٧٨٣).

(٢) أخرج الترمذي في كتاب التفسير، باب: ومن سورة الفتح، (رقم ٣٢٦٥)، عن أَبِي بِنِ كَعْبٍ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ -، ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وصححه الألباني.

﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ أي: وفقهم الله لها، وشرفهم بها؛ لأنها كلمة التوحيد، وإفراد العبودية لله، والإخلاص له ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي: هو أعلم بمن يستحق الإيمان والتوفيق له.

أحكام وفوائد الآية:

- التنديد بحمىة الجاهلية المبنية على التعصب والجهل، وكراهية دين الله ورسوله، وذلك حين رفض المشركون كتابة البسملة في رسالة الصلح، والإقرار بنبوة ورسالة رسول الله.
- أن في قوله-تعالى-: ﴿بَغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تفصيلاً للصحابية، وإخباراً عن صفاتهم الكريمة من العفة عن المعصية، والعصمة عن التعدّي، حتى إنهم لو أصابوا من أولئك أحداً لكان من غير قصد.
- أن الله ينزل سكينته على عباده المؤمنين، فيثبتهم، وتطمئن قلوبهم بذكره، فقد أنزل الله على المؤمنين السكينة حين صعب عليهم الصلح مع المشركين.
- تقرير كلمة التقوى بأنها (لا إله إلا الله).

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّعْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ

رَسُولُهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ

شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ .

بيان الآيتين:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّعْيَا بِالْحَقِّ﴾ كان رسول الله - ﷺ - قد

رأى في المنام أنه يدخل مكة، وأخبر بذلك أصحابه عندما خرجوا معه من المدينة قاصدين مكة، ففرحوا بذلك، وبعدما حدث الصلح مع المشركين، وأمر رسول الله أصحابه بنحر هديهم، وحلق رؤوسهم، حدث في نفوس بعضهم شيء، وتساءلوا: أين الرؤيا التي ذكرها لنا؟ فنزلت بعد ذلك سورة الفتح، وفيها هذه الآية.

قوله: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ

رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾^(١) أي: أن رؤيا رسول الله كانت

صادقة، فقد صدقه الله، فدخل هو والمؤمنون مكة في نفس الأيام من شهر ذي القعدة من العام القابل، وهم آمنون، وقد حلقوا رؤوسهم، أو قصروها؛ لقضاء عمرتهم، لا يخافون من أحد، حيث أخلت لهم قريش المسجد الحرام، فأتوا نسكهم، حيث طافوا، وسعوا بين الصفا

(١) تفسير مجاهد، (ص ٦٠٨)، وتفسير عبد الرزاق، (رقم ٢٩١٠)، وتفسير الطبري، (٣١٦/٢١).

والمروة.

قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أي: علم ما في هذا الصلح من المنافع لكم، وهي عدم الإضرار بالمؤمنين المخفين إسلامهم في مكة في حال قتال المشركين، وإعطاء المشركين أو بعضهم فرصة لعلهم يهتدون، فلا يعذبهم الله؛ لأنه يفرح بتوبة عباده، وهذه الأمور لا يعلمها إلا الله؛ أما الخلق فلا يعلمونها.

قوله: ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: حصل بعد هذا الصلح منافع كثيرة، منها: فتح خيبر، وفتح مكة، وغيرها من الفتوحات الأخرى التي كانت نصرًا وعزًّا للإسلام والمسلمين ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي: أن الله الذي يعلم ما لا يعلم عباده من مصالحهم، أرسل رسوله محمدًا بالهدى ودين الحق، وهو الإسلام الذي فيه هداية للإنسان، ومنع له من الضلال ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: يعليه على سائر الأديان ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: كفى به شهيدًا لنبيه ورسوله محمد - ﷺ - بالرسالة والنبوة.

أحكام وفوائد الآيتين:

- الحكم بأن رؤيا الأنبياء حق لا بد أن تقع، كما قال الله على لسان

يوسف: ﴿وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠]، وقد تتأخر سنوات أو شهوراً أو أياماً، وهذا هو ما حدث لرؤيا رسول الله -ﷺ-، فقد كان بين رؤياه ووقوعها سنة كاملة، والرؤيا: جزء من أربعين جزءاً من النبوة^(١)، وهي تختلف عن الحلم الذي يُلَبَّس به الشيطان على العبد.

- وجوب التلفظ بالمشيئة عندما يهم المسلم بفعل شيء في المستقبل، كما قال-تعالى:- ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف: ٢٣ - ٢٤].

- رُبُّط المسجد الحرام بالأمن؛ لأنه من أَحْصَ صفاته، فهو حَرَمٌ آمِنٌ.

- وجوب الحلق أو التقصير للتحلل من العمرة أو الحج، والحلق أفضل؛ لأن الله قَدَّمَهُ، ولأن رسول الله -ﷺ- قال: «اللهم ارحم الملقين» ثلاثاً، ودعا للمقصرين مرة واحدة^(٢).

- الحكم بأن الإسلام هو الدين الحق، وأنه لا دين إلا هو، وأن الله قد وعد-ووعده الحق-أنه سيظهره على سائر الأديان.

(١) أخرجه البخاري في كتاب التعبير، باب: رؤيا الصالحين، (رقم ٦٩٨٣)، بلفظ: «الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ مِنَ الرُّجُلِ الصَّالِحِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ».

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب: الحلق والتقصير عند الإحلال، (رقم ١٧٢٧)، ومسلم في كتاب الحج، باب: تفضيل الحلق على التقصير، (رقم ١٣٠١).

- أن الله شهد لرسوله بالنبوة والرسالة، وهي أعظم شهادة على الإطلاق.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

بيان الآية:

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ هذا توكيد لنبوة ورسالة رسول الله محمد-

ﷺ - بكل ما تحمله من معاني النبوة والرسالة من الفضل العظيم

﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ هذا وصف لصحابة

رسول الله، وصفة من صفاتهم: أنهم أشداء على الكفار، دفاعاً عن

دينهم، وتعزيزاً لرسالة نبيهم، ناهيك عما يكون فيها للكفار أنفسهم

حين يخافون، فيهتدون، فتكون عاقبة ذلك لهم، ومن صفاتهم:

التراحم، والتحاب بينهم؛ لأنهم إخوة في دين الله، وهذه الأخوة أعظم

من أخوة النسب ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ وهذا-أيضاً- وصف لهم في محافظتهم على الصلاة؛ لكونها أحب الأعمال إلى الله، ومداومتهم على العبادة يبتغون من ذلك الفضل من الله ورضاه عنهم ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ أي: ظهر أثر السجود في وجوههم، فجعل فيها نوراً يراه الناظر لهم؛ ذلك أن للحسنة أثراً في الوجه، وهو الضياء والبشر، وللمعصية أثرها كذلك، وهو القلق والاضطراب والخوف.

﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ أي: هذا هو الوصف الذي وصفهم الله به في التوراة ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ أما مثلهم في الإنجيل فهو ﴿كَزَّرِعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ أي: فراخه المتفرعة منه ﴿فَقَارَزَهُ﴾ أي: قوى ذلك الشطاء الزرع ﴿فَأَسْتَغْلَظَ﴾ أي: صار قوياً ﴿فَأَسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ أي: استقام على أصوله وجذوره، فكان يعجب الزارعين عندما ينظرون إليه، وهذا هو مثل أصحاب رسول الله -ﷺ- في موازرتهم وتأبيدهم ونصرتهم له، ولهذا قال-تعالى:- ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ حيث بارك الله فيهم، وكثرهم، وآلف بين قلوبهم، فأغاظ بهم الكفار؛ لكي يعلموا أن الله ينصر المؤمنين، ويخذل الكافرين، وأخرج الطبري بسنده الحسن عن ابن

عباس قوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾: «أصحابه مثلهم يعني: نعتهم مكتوبا في التوراة والإنجيل قبل أن يخلق السماوات والأرض».

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً﴾
أي: غفرانا لذنوبهم، وتكفيرا لسيئاتهم ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: الجنة ونعيمها.

أحكام وفوائد الآية:

- الحكم بنبوة ورسالة رسول الله محمد - ﷺ -، وأنها رسالة أبدية قائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.
- صفات صحابة رسول الله، ومنها: أنهم أقوياء على الكفار؛ لإظهار دين الله، وإبلاغ رسالته، كما أمر بها نبيهم، وأمروا بها تبعاً له؛ مما يقتضي منهم القوة في الدعوة، والقتال من أجلها، كما قال - تعالى -: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَتِلُوا الَّذِينَ يُلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، ومن صفات صحابة رسول الله: أنهم كانوا يتراحمون، ويتحابون في الله بوصفهم إخوة في دينه وأتباع نبيه، وأن هذه الأخوة هي الأساس في علاقتهم ببعضهم، ومنها: وصفهم بالصلاة وحب الأعمال التي توصلهم إلى

محبة الله ورضوانه.

- استدل الإمام مالك-رحمه الله- بهذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ على تكفير الذين يُبَغِضُونَ الصحابة-ﷺ-، قال: «لأنهم يَغِيظُونَهُمْ، وَمَنْ غَاظَ الصَّاحِبَةَ-ﷺ- فهو كافر؛ لهذه الآية»، قال ابن كثير: «ووافقه طائفة من العلماء على ذلك»^(١).

- تحريم سب صحابة رسول الله-ﷺ-، أو الاستهزاء بهم، أو التنقص منهم، أو النيل منهم بأي وصف يسيء إليهم، والأصل فيه قول رسول الله-ﷺ-: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه»^(٢)، ولما ذُكر لمالك رجل يتنقص أصحاب رسول الله-ﷺ- قرأ مالك هذه الآية: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ حتى بلغ: ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ فقال مالك: «من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله-ﷺ- فقد أصابته هذه الآية»^(٣).

(١) التفسير المنير في العقيدة و الشريعة والمنهج، (٢٦/٢٢٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب: قول النبي-ﷺ-: «لو كنت متخذاً خليلاً»، (رقم ٣٦٧٣)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: تحريم سب الصحابة، (رقم ٢٥٤٠).

(٣) أخرجه الخلال في السنة، (رقم ٧٦٠).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحجرات

مدنية، وآياتها ثمانية عشرة آية

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ فَلِلَّذِينَ هُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هذا أمر من الله للمؤمنين ألا يتقدموا على الله ورسوله بأي قول أو فعل، بل يجب عليهم الاتباع والانقياد لما أمروهم به، والانتهاز عما نهياهم عنه من الأقوال والأفعال، مما هو مبين في الكتاب والسنة، وأخرج البخاري بسنده عن عبد الله بن الزبير: «أنه قدم ركب من بني تميم على النبي - ﷺ -، فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد، وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت

خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ حتى انقضت الآية»، وفي رواية قال ابن الزبير: «فما كان عمر يُسمع رسول الله -ﷺ- بعد هذه الآية حتى يستفهمه»^(١).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: اخشوه، وائتمروا بما أمركم به ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: يسمع أقوالكم، ويعلم ما في صدوركم.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ هذا أدب من الله لعباده المؤمنين بأن يكونوا مع رسول الله -ﷺ- في غاية الأدب والاحترام والإجلال ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ هذا توكيد لما سبق من وجوب التأدب مع رسول الله -ﷺ-، بحيث لا تكون مخاطبته مثل ما يخاطب المرء صاحبه، بل يجب احترامه، وذلك بلين القول، والتلطف أثناء الحديث معه؛ لأن ذلك تأدب مع الله، ومع التوكيد على هذا الأدب بين الله أنه يُحْشَى عليهم إحباط عملهم إذا لم يوقروا رسوله، ويحترموه.

(١) الصحيح، (٤٥٧/٨)، كتاب التفسير، سورة الحجرات، باب (الآية)، حديث (٤٨٤٥)، و(٤٨٤٧).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: أن الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله، ويتأدبون معه في الحديث هم الذين أخلص الله قلوبهم، ونقأها؛ لتكون أوسع وأكثر قبولاً للتقوى، هؤلاء قد امتن الله عليهم، فغفر لهم، وأعطاهم الأجر العظيم، كما قال-تعالى-: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، وأخرج الحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة-رضي الله عنه- قال: «لما نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ قال أبو بكر الصديق-رضي الله عنه-: والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله! لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله-عز وجل-»^(١).

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بأنه يجب على المسلم وجوب عين أن يتبع ما في كتاب الله وسنة رسوله محمد-ﷺ-، فلا يقول قولاً يخالفهما، ولا يرى رأياً أو يجتهد اجتهاداً يعارضهما، بل يكونان مرجعه فيما يقول ويفعل في أمر دينه ودنياه، كما قال-تعالى-: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

(١) المستدرک، (٢/٤٦٢)، وقال: «هذا صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي على تصحيحه.

- وجوب التأدب مع رسول الله - ﷺ - في حياته وبعد مماته، فبعد مماته يجب التأدب مع سنته باتباعها، والتأدب معه عند ذكره بالصلاة عليه، كما قال - عليه الصلاة والسلام -: «البخيل الذي من ذكرت عنده، فلم يصل علي»^(١).

- أن من لا يتأدب مع رسول الله - ﷺ - حري أن يحبط عمله.

- أن تنكير (مغفرة) لتعظيمها وتفخيمها، وفي هذا إيماء إلى إثم مَنْ رفع صوته عند رسول الله - ﷺ -.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ
 ٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
 رَحِيمٌ﴾.

بيان الآيتين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ وهذا ذم للذين كانوا ينادون رسول الله من الحجرات، وهي بيوت نسائه، والمراد بهم أجلاف من الأعراب الذين كانوا ينادونه وقت الظهيرة بأصوات عالية: يا محمد! يا محمد! اخرج علينا، فإن مدحنا زين، وذمنا شين،

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب: قول رسول الله - ﷺ -: «رغم أنف رجل»، (رقم ٣٥٤٦)، وصححه، وصححه الألباني.

فأنزل الله فيهم هذه الآية^(١)، ووصف أكثرهم بعدم العقل؛ لعدم تأديبهم مع رسول الله بقوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي: لو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم بدون مناداتك بهذه الغلظة والجلافة لكان ذلك أفضل لهم؛ لما فيه من الأدب ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: أن عليهم ألا يعودوا لمثل قولهم وعدم أدبهم؛ لكي يتوب الله عليهم؛ لأنه غفور لمن يتوب من عباده، رحيم به من العقاب.

أحكام وفوائد الآيتين:

- تقرير أن الإسلام يحرص على الأدب، واجتناب الغلظة في القول، وبذاءة اللسان، كما قال-تعالى- على لسان لقمان وهو ينصح ابنه: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩]، كما أن الإسلام يأمر بحسن الخلق، ويحث عليه، وقد وصف الله رسوله-وهو القدوة والمثال لأئمة- بأنه على خلق عظيم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]،

(١) قاله قتادة، انظر: تفسير عبد الرزاق، (رقم ٢٩٢٨)، وأخرج الترمذي في كتاب التفسير، باب: ومن سورة الحجرات، (رقم ٣٢٦٧)، عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ فِي قَوْلِهِ-تَعَالَى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قَالَ: «قَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ حَمْدِي زَيْنٌ، وَإِنَّ ذَمِّي شَيْنٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ذَلِكَ اللَّهُ-ﻻَ-»، وحسنه، وصححه الألباني.

وفي الحديث قول رسول الله - ﷺ -: «والكلمة الطيبة صدقة»^(١).

- مراعاة الأوقات الملائمة للزيارة، وأدب الاستئذان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ نزلت هذه الآية في بني المصطلق ورئيسهم الحارث بن ضرار الخزاعي والد جويرية بنت الحارث أم المؤمنين-رضي الله عنها-، فلما قدم هذا على رسول الله - ﷺ -، وأسلم، وأقر بالزكاة قال لرسول الله - ﷺ -: سوف أجمع الزكاة ممن يستجيب لي من قومي، وترسل لي رسولا ليأتيك بما جمعت منها، فلما جمعها انتظر أن يأتيه الرسول، فلم يأت، فظن أنه

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب: من أخذ بالركاب ونحوه، (رقم ٢٩٨٩)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، (رقم ١٠٠٩).

قد حدث عليه سخط من الله أو من رسوله، فجمع سروات قومه، وذهب إلى رسول الله، وكان رسول الله قد بعث الوليد ابن عقبة بن أبي معيط إلى الحارث؛ ليقبض منه الزكاة، ولكنه خاف، فرجع من الطريق، فقال: يا رسول الله! إن الحارث قد منعني، ويريد قتلي، وقيل: إن رجوعه كان لعداوة بين أسرة الوليد وبني المصطلق منذ الجاهلية، فوسوس له الشيطان أنهم يريدون قتله، ولما علم رسول الله بما ذكره الوليد بعث إلى الحارث بعثاً، فتلاقيا في الطريق، فأقسم الحارث أن الوليد لم يأتته، ولما دخل على رسول الله، وسأله عن منعه الزكاة، وما أراده من قتل الرسول، قال الحارث: لا، والذي بعثك بالحق ما رأيته، ولا أتاني، وأقبلت حين احتبس عليّ رسولك، خشية أن يكون سخطاً من الله ورسوله، فنزلت الآية^(١).

وهي، وإن كانت خاصة في الحارث الخزاعي، فهي عامة، والمراد: إن جاءكم أيها المؤمنون ﴿فَاسِقٌ﴾ كالكذاب ومن في حكمه ﴿بِنَبَأٍ﴾ أي: خبر ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ أي: تثبتوا ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ﴾ أي: تصيبوهم بضرر؛ لعدم علمكم بحقيقة الخبر ﴿فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ أي: تندموا على فعلكم بهم

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، (٤٠٣/٣٠)، حديث (١٨٤٥٩)، وحسنه الشيخ شعيب لشواهده.

بسبب عدم تثبتكم عما نقل لكم عنهم.

قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي: يجب أن تعلموا أن رسول الله بين أظهركم، وعليكم أن تصدقوه القول؛ لأن الكذب عليه سيبينه الله له بالوحي، كما كان يبين له أحوال المنافقين، ومن ثم يضعكم فعلكم في عنت، أي: خطيئة وإثم.

وأخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي نضرة قال: «قرأ أبو سعيد الخدري: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ قال: هذا نبيكم -ﷺ- يُوحى إليه، وخيار أئمتكم لو أطاعهم في كثير من الأمر لعنتوا، فكيف بكم اليوم؟»^(١).

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ المراد: أنه لما كان رسول الله بين أظهركم، ووجب عليكم أن تصدقوه القول، فإن الله يحبب إليكم الإيمان، ويزينه في قلوبكم ما دتم تتبعون رسوله، ولا تخالفونه، وهو كما يحبب إليكم الإيمان يكره إليكم الكفر وسائر أنواع الفسق والمعاصي، وهذا رحمة منه لكم؛ لأن من نعم

(١) السنن، (٣٨٨/٥-٣٨٩)، كتاب التفسير، باب سورة الحجرات، حديث (٣٢٦٩)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، وصححه الألباني-أيضا- في صحيح سنن الترمذي.

الله على عبده أن يوفقه لطاعته، ويجنبه معاصيه.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الرُّشْدُونَ﴾ أي: أن أصحاب رسول الله هم الراشدون المهديون، الذين يصدقونه في أقوالهم وأفعالهم ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ وما كان رشدهم إلا فضلًا من الله، ونعمة أنعم بها عليهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بأحوال عباده، حكيم في تدبيره لهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بتحريم الكذب، ووجوب تثبت المسلم مما ينقل إليه؛ لأن في عدم التثبت منه أضراراً كثيرة، وكم أؤذي أناس بما نقل عنهم من أخبار كاذبة، وكم ظن أناس ظن السوء في أقوام بسبب ما نقل عنهم من أخبار كاذبة.
- أن من نعم الله على عبده أن يزين له الإيمان، ويحببه له، ويكره إليه الكفر والمعاصي والمفاسد.
- ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أما في حياته فظاهر، وأما بعد مماته فبهذه سيرته وسنته، وتلك نعمة من الله، وعصمة لعباده المؤمنين ألا يُتْرَكُوا بلا منهج ولا أسوة، فيبيتوا نهباً لأصحاب المذاهب الهدامة، والتصورات الباطلة.

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ط فَإِنْ
 بَعَثَ إِحْدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ
 اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
 الْمُقْسِطِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا
 اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ط﴾ لما
 بين الله لعباده المؤمنين أنه حبيب إليهم الإيمان، وكره إليهم الكفر،
 أرشدهم فيما قد يحدث بينهم من خلاف، فأمر بالصلح بين من
 يقتتل من طوائف المؤمنين بما يقتضي إزالة الخلاف بينهم.

وأخرج مسلم بسنده عن أنس بن مالك قال: «قيل للنبي -ﷺ-: لو
 أتيت عبد الله بن أبي، قال: فانطلق إليه، وركب حماراً، وانطلق
 المسلمون، وهي أرض سبخة، فلما أتاه رسول الله -ﷺ- قال: إليك
 عني، فوالله لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لنتن
 حمار رسول الله -ﷺ- أطيب ريحا منك، قال: فغضب لعبد الله بن أبي
 رجل من قومه، قال: فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان

بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه نزلت فيهم: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾^(١).

﴿فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ أي: رفضت حكم المصالحة المبني على أحكام الشرع ﴿فَقَتِّلُوا آلَئِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: قاتلوا هذه الطائفة حتى ترجع إلى حكم الشرع ﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾ أي: رجعت إلى الحق الذي تم الصلح عليه.

﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾ أي: يجب أن يكون صلحكم مبنيًا على العدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي: يحب الذين يعدلون في أحكامهم.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ هذا بيان من الله أن المؤمنين إخوة في الدين، وهذه الأخوة تقتضي عدم الشقاق بينهم؛ لأنه مدعاة إلى الفرقة والعداء، وتشتيت شمل الأمة ووحدتها، ومدعاة لتسلط الأعداء عليها، ولهذا قال -ﷺ-: ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ أي: الطائفتين منكم إذا حدث بينهما نزاع ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع

(١) صحيح مسلم، (٣/١٤٢٤)، كتاب الجهاد والسير، باب في دعاء النبي -ﷺ-، وصبره على أذى المنافقين، (ح ١٧٩٩)، وصحيح البخاري، (ح ٢٦٩١)، كتاب الصلح، باب ما جاء في الإصلاح، وأرض سبخة: هي الأرض التي تعلوها الملوحة، ولا تكاد تنبت إلا بعض الشجر. النهاية لابن الأثير، (٢/٣٣٣).

أحوالكم، وإياكم والتقاتل بينكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: يرحمكم إذا اجتمعتم وتوحدتم.

أحكام وفوائد الآيتين:

- أن وقوع الاقتتال بين طائفتين من المؤمنين لا يُخرجهما عن الإيمان، بدليل نسبة الطائفتين إلى المؤمنين.
- أن المؤمن إذا ارتكب كبيرة من الكبائر لا يخرج عن الملة.
- الأمر للأمة بإصلاح ما يحدث فيها من خلل، ومن ذلك: الصلح بين المتخاصمين والمتقاتلين منها.

قلت: ولو أن الأمة حققت هذا الأمر كما يجب أن تفعله في كل مراحل تاريخها لما حصل بين بعض طوائفها خصام، كان له أبلغ الأثر في تمكن أعدائها منها، وتسلبهم عليها، وهو الواقع الذي ما زالت الأمة تعيشه، فكان الأجدر بها إنشاء محكمة لها صلاحية البت في المسائل الخلافية، وما يقتضيه ذلك من نزع الشقاق، وتحكيم شرع الله في أيّ خلاف، وإحقاق الحق لصاحبه، ورد المبطل عن باطله.

- وجوب العدل بين المتخاصمين، كما قال-تعالى:- ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوْا أَعْدِلُوْا هُوَ أَقْرَبُ

لِلتَّقْوَىٰ ﴿٨﴾ [المائدة: ٨]. وقوله -عز ذكره-: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ

بِالْعَدْلِ ﴿٩٠﴾ [النحل: ٩٠]، وفي حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنه- أن

رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ يوم القيامة بين يدي الرحمن -عز وجل-، بما أقسطوا في الدنيا»^(١).

- أن الأخوة في الدين هي الأصل في العلاقة بين الأمة، فالقربى في النسب، وإن كانت إحدى الروابط بين الأمة، إلا أن رابطة الدين هي الأصل، فالمسلمون من أجناس وأصول شتى، فلا يجمعهم إلا رابطة الدين الذي كَوَّنَ منهم أمة واحدة، زالت فيها الفوارق والأعراق، كما قال -تعالى-: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾.

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، (١٥٩/٢)، وأخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل، (رقم ١٨٢٧)، بلفظ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَىٰ مَنَابِرَ مِّنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ -عز وجل-، وَكَلَّمَا يَدِيهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلَّوْا».

بيان الآية:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ﴾ لما نهى الله في الآية السابقة عن التقاتل والتخاصم، وأوجب العدل بين الطائفتين المتقاتلتين، نهى عن أحوال قد تكون سبباً للتقاتل، ومنها: سخرية المسلم من أخيه المسلم، أو تحقيره، أو الاستهزاء به، أو التنقص منه في دينه أو نسبه أو مظهره، فقد يكون المسخور منه أفضل ممن سَخَرَ منه، وذلك معنى قول الله-تعالى-: ﴿مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾، فالحكم عام للرجال والنساء، وقد خص الله النساء بالنص؛ لما يحدث بين النساء من التخاصم، خاصة منهن الضرائر.

قوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ المراد باللمز هنا العيب، أي: لا يعب بعضكم بعضاً؛ لما يؤدي إليه ذلك من التخاصم؛ لأن من يبحث عن عيب أخيه يبحث هذا عن عيب من عابه، وأخرج الطبري بسنده الحسن عن قتادة قوله-تعالى-: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ يقول: ولا يطعن بعضكم على بعض ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي: لا تتنادوا بالألقاب التي تكرهون أن تدعوا بها؛ لما في ذلك من دواعي الشقاق.

وأخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي جيرة بن الضحاك قال:

«نزلت هذه الآية في بني سلمة ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ
الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ قال: قدم علينا رسول الله -ﷺ-، وليس منا
رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فجعل النبي -ﷺ- يقول: «يا فلان»،
فيقولون: مه يا رسول الله!، إنه يغضب من هذا الاسم، فأنزلت هذه
الآية: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾^(١).

﴿بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي: بئس أن ينادي
المسلم أخاه باسم يفسقه به بعد أن أصبح مؤمناً: كتسميته كافراً أو
مجرماً.

﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: من لم يتب من
السخرية بالمؤمنين، وعدم لمزهم، فهو ظالم لنفسه، وسوف يحاسب
على ظلمه.

أحكام وفوائد الآية:

- تنوع الأساليب القرآنية في النهي عن المنكرات، والتنفير منها،
والترهيب من عاقبتها مع إيجاز في ذلك بليغ.
- قال ابن عاشور: «دلّ قوله: ﴿بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ

(١) السنن، (٤/ ٢٩٠، ٢٩١)، حديث (٤٩٦٢)، كتاب الأدب، باب في الألقاب، وأخرجه الترمذي،
السنن، (٥/ ٣٨٨)، حديث (٣٢٦٨)، وصححه الألباني، صحيح أبي داود، (ح ٤١٥١)،
وصحيح الترمذي، (ح ٢٦٠٦).

الْإِيمَانِ ﴿٤٠٩﴾ عَلَى أَنَّ مَا نُهُوا عَنْهُ مَذْمُومٌ؛ لِأَنَّهُ فَسُوقٌ يَعَاقِبُ عَلَيْهِ، وَلَا تَزِيلُهُ إِلَّا التَّوْبَةُ، فَوَقَعَ إِيجَازٌ بِحَذْفِ جُمْلَتَيْنِ فِي الْكَلَامِ اكْتِفَاءً بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ التَّذْيِيلُ، وَهَذَا دَالٌّ عَلَى أَنَّ اللَّمَزَ وَالتَّنَابُزَ مَعْصِيَتَانِ؛ لِأَنَّهُمَا فَسُوقٌ ﴿٤١٠﴾.

- الحكم بأنه يحرم على المسلم أن يسخر من أخيه، أو يستهزئ به، أو يتنقص منه، كما قال-تعالى- في الذين كانوا يستهزئون برسول الله -ﷺ- وصحابته: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزَؤُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٤ - ٦٦]، كما يحرم على المسلم أن يعيب أخاه المسلم، أو يلمزه، أو يناديه بلقب يكرهه؛ لما يؤدي إليه ذلك من التخاصم والشقاق، وقد توعده الله من يفعل ذلك بقوله: ﴿وَيُلْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ﴾ [الهمزة: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ

(١) التحرير والتنوير، (٢٦/ ٢٠٨).

يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ

﴿١٢﴾

بيان الآية:

﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ ما زال السياق

في تربية المؤمنين، وإرشادهم لما فيه خيرهم، فنهاهم عن الظن، وهو أن يوجه المسلم إلى أخيه تهمة دون أن يكون له دليل من علم، كالظن به في أمانته، أو أخلاقه، أو عبادته، أو نحو ذلك من الظنون المفضية إلى الطعن في المسلم دون حق.

﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ المراد به: الظن الذي بني على غير علم،

كما يشاهد اليوم في الظن بأهل الصلاح، حيث يتهمون من أصدادهم بشتى أنواع التهم التي تنفر الناس منهم، كاتهامهم بالتعصب والجهل ونحو ذلك ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي: لا تبحثوا عن عورات المسلمين، وتتبعوا أحوالهم ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: لا تذكروا إخوانكم في غيبتهم بما يكرهون.

﴿أُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي:

هل يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه الميت؟، والجواب بالنفي؛ لأنه ليس من المعقول أن يحب الإنسان أكل لحم أخيه الميت، فكما أنه

يكره ذلك أشد الكراهية، فيجب أن يكره الوقوع في عرض أخيه؛ لأن ذلك محرم، سواء كان حياً أم ميتاً ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: اجتنبوا غيبة بعضكم؛ لما ينشأ عن ذلك من الفساد والخلل بينكم ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يتوب على من يتوب من عباده، وهو رحيم بهم فيما يأمرهم به من أعمال الطاعات، وما ينهاهم عنه من الأفعال التي تؤدي إلى تخاصمهم، كالتجسس عليهم، واغتيالهم.

أحكام وفوائد الآية:

- تحريم الظن المجرد من العلم والدليل، وشاهده: حديث أبي هريرة أن رسول الله -ﷺ- قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»^(١).

- تحريم تجسس المسلم على أخيه؛ لقول رسول الله -ﷺ- في حديث أبي هريرة الأنف الذكر: «ولا تجسسوا، ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»^(٢).

- تحريم الغيبة، وهي أن يتحدث المسلم عن أخيه في غيبته بما يكره؛

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب: ما ينهى عن التحاسد والتدابير، (رقم ٦٠٦٤)، ومسلم في كتاب البر والصلة، باب: تحريم الظن والتجسس والتنافس، (رقم ٢٥٦٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب: ما ينهى عن التحاسد والتدابير، (رقم ٦٠٦٤)، ومسلم في كتاب البر، باب: تحريم الظن والتجسس والتنافس، (رقم ٢٥٦٣).

لما رواه أبو هريرة أن رسول الله -ﷺ- قال: «أتدرون ما الغيبة؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟، قال -ﷺ-: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»^(١)، وما رواه -أيضا- أن رسول الله -ﷺ- قال: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه»^(٢).

ويستثنى من الغيبة ما إذا كان المغتاب ظالماً، فيحق للمظلوم ذكر مظلّمته، كما قال -تعالى-: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٨]، كما يستثنى منها مرتكب المنكر، فيجوز ذكره لإزالة منكره، ويشمل ذلك -أيضاً- ذكر أصحاب الفسوق والمفسدين ونحوهم ممن لا خلاق لهم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب: تحريم الغيبة، (رقم ٢٥٨٩).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب: تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره، ودمه، وعرضه، وماله، (رقم ٢٥٦٤).

بيان الآية:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ لما أمر الله بالمحبة والتعاون بين المسلم وأخيه، وعدم احتقاره، أو التعرض له بما يكرهه، بَيْنَ-عَلَى- أنه خلق الناس من أصل واحد، هو آدم وحواء، وأن كل إنسان مخلوق من أبوين، هما الذكر والأنثى ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ أي: جعلكم متشعبين من تجمعات مختلفة في كبرها وصغرها.

وأخرج الطبري بسنده الحسن عن قتادة: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ قال: «الشعوب: النسب البعيد، والقبائل: هي كقوله: فلان من بني فلان، وفلان من بني فلان».

﴿لِتَعَارَفُوا﴾ أي: جعل هذا التشعب سبباً للتعارف بينكم، وما يترتب عليه من التعاون، وتحقيق المصالح الدنيوية والأخروية لكم، فمن المصالح الدنيوية: التعاون بين الأقارب، والتوارث بينهم، ومن المصالح الأخروية: تحقيق ما أمر الله به من البر بين الأقارب والأرحام التي أمر الله بوصلها، ولما بَيْنَ-عَلَى- حكمته في تشعب الإنسان في أصوله وفروعه أكد أن الأساس هو التقوى وحدها، كما قال-تعالى-: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾ فأكرم الخلق عنده أكثرهم طاعة

له، وأبعدهم عن معاصيه، وأشدّهم قوة في دينه والدفاع عنه، وأكرمهم كذلك أنفعهم لخلقه في قضاء حوائجهم.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي: عليم بأحوال خلقه، في سرهم وعلانيتهم، خبير بما يعملونه في حياتهم من خير أو شر.

أحكام وفوائد الآية:

- الحكم بأن الله خلق البشر متشعبين من قبائل كبيرة وصغيرة؛ لكي يتعارفوا في أنسابهم؛ لما يترتب على ذلك من المصالح في دنياهم وأخراهم، كالتعاون والتراحم، وما في ذلك من الأجر لهم.
- أن الأصل في الشريعة التساوي بين الرجال والنساء في الأحكام، إلا ما دلّ الدليل على اختصاصه، وإنما خَصَّ النساء بالنهي عن السخرية؛ لكثرة وقوعه منهنّ، ولتعظيم حرمة المرأة.
- التفاضل بين الناس عند الله-تعالى-بتقواهم.
- الحكم بأن أكرم الخلق عند الله هم الأتقياء، وهذا يقتضي تحريم فخر الإنسان بنسبه، أو حسبه، أو انتمائه لمذهب أو عقيدة، خلاف ما أمر الله به، وفي ذلك قال رسول الله -ﷺ- في خطبته أيام التشريق: «يا أيها الناس! ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت؟»، قالوا: بلغ رسول

الله - ﷻ -، قال: «ليبغ الشاهد الغائب»^(١)، وفيه -أيضاً- قوله -ﷻ- :
 «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولا إلى أموالكم،
 ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٢).

والخليفة الراشد عليّ -ﷺ- شعر مشهور في هذا المعنى:

الناس من جهة التمثيل أكفأ أبوهم آدم والأم حواء
 نفس كنفس وأرواح مشاكلة وأعظم خلقت فيهم وأعضاء
 فإن يكن لهم من أصلهم حسب يفاخرون به، فالطين والماء
 ما الفضل إلا لأهل العلم، إنهم على الهدى لمن استهدى أدلاء
 وقدر كل امرئ ما كان يحسنه وللرجال على الأفعال سيماء
 وضد كل امرئ ما كان يجهله والجاهلون لأهل العلم أعداء^(٣)

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَآمَنَّا قُلْ لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا
 يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ
 مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ
 ءَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، (٣٨/٤٧٤)، رقم (٢٣٤٨٩)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، (رقم ٢٧٠٠).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، (رقم ٢٥٦٤).

(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، (ص ٢١٨).

سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ
يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ .

بيان الآيات:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ المعنى: أنهم قالوا لرسول الله - ﷺ -:

لقد آمنا بما قلته من وجوب توحيد الله، وطاعته، وعدم الشرك به،
وآمنا بما جئت به من النبوة والرسالة، ولأنهم لم يزالوا في بداية
عهدهم أمر الله نبيه أن يريهم بقوله - ﷺ -: ﴿قُلْ لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ
قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أي: لم تكونوا بعد مؤمنين، فقولوا: أسلمنا، وأخرج
الطبري بسند صحيح عن ابن وهب: قال ابن زيد - وقرأ قول الله: ﴿قُلْ
لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾: «استسلمنا: دخلنا في السلم،
وتركنا المحاربة والقتال بقولهم: لا إله إلا الله».

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: لم يتمكن الإيمان

منكم، ولم تصلوا بعد إلى حقيقته ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا
يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ أي: إن أطعتم الله ورسوله بما

أوجبه عليكم فلن يلتكم، أي: لن ينقصكم من أجوركم شيئاً، كما أخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد، قوله-تعالى:- ﴿لَا يَلْتَكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ قال: «لا ينقصكم».

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: غفور للتائبين، رحيم بهم ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: الخالصون هم ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي: هم الذين آمنوا بالله ورسوله حقاً وصدقاً وإخلاصاً، ثم لم يشكوا في إيمانهم، بل ثبتوا عليه، فلم يبدلوا، ولم يغيروا ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: بذلوا أرواحهم من أجل إعلاء كلمة الله، والدفاع عن دينه، يبتغون مثوبته ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي: الصادقون في إيمانهم، وليسوا أولئك الذين لم يثبت الإيمان بعد في قلوبهم، كحال بعض الأعراب ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي: قل يا نبينا محمد لهؤلاء الأعراب: أتعلمون الله بما في قلوبكم؟، فليس لله حاجة في ذلك.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلا يخفى عليه ما في ضمائرهم، فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمُ﴾ أي: يمن عليكم هؤلاء الأعراب بأنهم أسلموا، فقل لهم: لا

تمنوا عليّ إسلامكم؛ لأنّ إسلامكم لمصلحتكم.

﴿بَلِ اللَّهِ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أي: أن الله هو الذي يمن عليكم بأنّ أعتقكم من الكفر، وهداكم للإيمان ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تقولون ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يعلم كل ما غاب في الكون في علوه وسفليه، لا يخفى عليه منه مثقال حبة من خردل ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: يعلم كل عمل تعملونه من الأعمال الحسنة أو الأعمال السيئة، لا يخفى عليه منها صغيرة ولا كبيرة.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير الفرق بين الإسلام والإيمان، فالإيمان أخص من الإسلام، وقيل: إن الإيمان والإسلام بمعنى واحد، وقيل: إنهما متغايران، وهو الأصح، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً، وقد بدأ جبريل بسؤال رسول الله - ﷺ - عن الإيمان، ثم عن الإسلام، ثم عن الإحسان^(١).
- أن هؤلاء الأعراب الذين ادعوا الإيمان لم يصلوا إلى مرحلته، ولكنهم كانوا مسلمين.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي - ﷺ - عن الإيمان والإسلام والإحسان، (رقم ٥٠)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: معرفة الإيمان والإسلام، (رقم ٩).

- قال النسفي: «أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أولاً، فقليل: قل: لم تؤمنوا مع أدب حسن، فلم يقل: كذبتُم، تصريحاً، ووضع (لم تؤمنوا) الذي هو نفي ما ادعوا إثباته موضعه، واستغنى بقوله: (لم تؤمنوا) عن أن يقال: (لا تقولوا: آمنا)؛ لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤداه النهي عن القول بالإيمان»^(١).
- الحكم بأن المؤمنين الحقيقيين هم الذين آمنوا بالله ورسوله حقاً وصدقاً لا تشوب إيمانهم شائبة، فهم عابدون لله، متبعون لرسوله، مجاهدون في سبيله، إعزازاً لدينه، ودفاعاً عنه.
- تحريم المن على الله بعبادته، والدخول في دينه؛ لأن نفع عبادة العبد تعود له وحده، وليس لله فيها حاجة، والواجب أن يقر المسلم بأن الله هو الذي منَّ عليه، ووفقه لدينه، وأنقذه به من الضلال.
- الحكم بأن الله يعلم كل ما في مغيبات الكون، وكل دقائقه وجلائله، وظواهره وبواطنه، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض، لا إله إلا هو، فله الحمد والمنة أولاً وآخرًا.
- أن السورة الكريمة استهلَّت بصفتي السمع والعلم، وخُتِمت بصفتي البصر والعلم، وهذا من التناسب بين المطلع والختام.

(١) مدارك التنزيل للنسفي، (٤/١٦٨).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة ق

مكية، وآياتها خمس وأربعون آية

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَوَدَا مِثْنًا وَكُنَّا ثُرَابًا ذَلِكِ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ .

بيان الآيات:

﴿ق﴾ هذا من الحروف المقطعة مثل: ﴿صَّ﴾ و ﴿نَّ﴾ ، والله أعلم بمراده منها ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ هذا قسم من الله بالقرآن، والمراد أن القرآن كتاب عظيم، كما قال-تعالى:- ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] قسم الله بالقرآن له جواب هو تقرير نبوة رسول الله بقوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: عجب الكفار أن الذي جاءهم بالرسالة بما فيها من النذارة رجل من البشر ﴿فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: عجبوا

مما جاء به من إنذارهم بالعذاب؛ ذلك أنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث أصلاً فيما حكاه الله عنهم بقوله - عز ذكره -: ﴿أَعِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي: إذا تحولنا إلى تراب وعظام بالية فإن إعادة رجعنا إلى الحياة أمر بعيد، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: علمنا ما يتحلل من أجسادهم في قبورهم.

﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أي: مدون فيه كل شيء عنهم ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: وعلاوة على تكذيبهم بالبعث فقد كذبوا، وأنكروا نزول القرآن ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيحٍ﴾ أي: مشوش ومضطرب، لا يعرفون ما يقولون، كما أخرج الطبري بسنده الحسن عن قتادة ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ «أي: كذبوا بالقرآن ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيحٍ﴾ يقول: فهم في أمر مختلط عليهم ملتبس، لا يعرفون حقه من باطله».

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بحقيقة القرآن وعظمته وهدايته للبشرية، كما قال - تعالى -: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ

يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ [الإسراء: ٩].

- الحكم بأن البعث حقيقة لا مرأى فيها، كما قال-تعالى:- ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧].

- أن الأرض لا تأكل كل أجساد الأموات، فمنهم من يبقى جسمه محرماً على الأرض أن تأكله كحال الأنبياء؛ لقول رسول الله -ﷺ:- «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»^(١)، ومنهم من تأكله الأرض، فيبقى منه عَجَبُ الذَّنْبِ، فهذا لا يفنى؛ لكي يبدأ منه الخلق يوم البعث»^(٢).

- أن كل أعمال الخلق مدونة ومحفوظة في اللوح المحفوظ.
- أن الكافرين الذين يكذبون بالقرآن هم دائماً في قلق واضطراب؛ لفراغ قلوبهم من الإيمان.

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا

(١) أخرجه أبو داود في كتاب أبواب الجمعة، باب: فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، (رقم ١٠٤٧)، والنسائي في كتاب الجمعة، باب: إكثار الصلاة على النبي -ﷺ- يوم الجمعة، (رقم ١٣٧٤)، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة، باب: في فضل الجمعة، (رقم ١٠٨٥)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، (رقم ٤٩٣٥)، ومسلم في كتاب الفتن، باب: ما بين النفختين، (رقم ٢٩٥٥).

مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا
 مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَرِّكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾
 وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً
 مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ .

بيان الآيات:

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ هذا
 استفهام إنكاري للمكذبين بالبعث، والمراد: أليس لهم أعين ينظرون
 بها إلى السماء التي تظللهم؟، وكيف صنعناها على غير وجود
 سابق؟، وكيف زينناها بالأفلاك العظيمة؟.

﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ أي: من شقوق، كما أخرج الطبري بسنده
 الصحيح عن مجاهد، قوله- تعالى-: ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ قال:
 «شق» ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: أليس لهم
 عقول يفكرون بها؟، كيف وسعنا الأرض، وجعلناها آمنة للسكن
 فيها، ووضعنا فيها الجبال الراسية لتثبيتها؟ ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ
 زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي: أنبتنا فيها من مختلف الأصناف الزوجية التي
 تسر الناظرين.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ أي: أن في هذا الصنع

تبصرة لكل عبد راجع إلى الله بقلبه، فيعلم أن الذي صنع هذا الكون بقدرته قادر على إحياء الموتى للحساب والجزاء يوم القيامة.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا﴾ أي: أنزلنا المطر، وباركنا فيه

﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ أي: أنبتنا به البساتين بكل ما

فيها من الثمرات، وأنبتنا به البرّ؛ لقوتهم ومدخر طعامهم

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أي: النخيل الطوال ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ أي:

متناسق ومتراكم في أوعيته، وهي عذوقه أو قنوانه.

﴿رَزَقًا لِلْعِبَادِ﴾ أي: جعلنا في نزول هذا المطر رزقاً للعباد في

طعامهم وشرابهم ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا﴾ المراد: الأرض التي

كانت خالية من النبات، فاهتزت، وربت بعد نزول المطر عليها.

﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ أي: هكذا يكون خروج الأموات يُنزل من

السماء مطراً، فتنبت أجسامهم، كما ينبت العشب، ويخرجون من

قبورهم قياماً لرب العالمين.

أحكام وفوائد الآيات:

- التنديد بالكافرين؛ لعدم إيمانهم بالبعث رغم ما يشاهدونه من

قدرة الله وعظمته في خلق السماوات والأرض، وفرش الأرض، وإرسائها بالجبال، وإنزال المطر من السماء، وهذا يقتضي من المسلم أن يتفكر في خلق الله وآياته، كما قال-تعالى-: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

- الأمر بالإنابة إلى الله، وذلك بالعمل في طاعته، والبعد عن معاصيه، كما قال-تعالى-: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤].
- يقول العلماء: تعمل النخلة كنوع من أنواع الروافع، حيث يوجد بها قوة متمثلة في جذع النخلة، ومقاومة في الوريقات (السعف)، وهي مطوية بصورة مائلة على محورها، وعلى محور الورقة (السعفة)، ومحور ارتكاز متمثل في مجموع جذري وتدي متميز، هذا النوع يمكن من تكوين الجذور العرضية بسرعة، وانتشارها خاصة في التربة الرملية، وهذا الشكل يعطي النخلة قوة تثبيت عالية في التربة^(١).

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيْسِ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ

(١) معجزة النخيل بين العلم والقرآن، مجلة الإعجاز العلمي، العدد (٢٥).

وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ
الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ
خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ .

بيان الآيات:

ما زالت الآيات تؤكد حقيقة البعث الذي ينكره المشركون، فقال-
عَلَيْهِمُ السَّلَامُ -: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي: كذب بالبعث قبل مشركي قريش
﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ وهم أول الأمم التي كذبت نبيها نوحًا-عليه السلام-،
حيث عاش فيهم تسعمئة وخمسين عامًا، يدعوهم إلى الله، فأصروا
على كفرهم، فيئس منهم، ودعا عليهم، فأهلكهم الله بالطوفان، كما
سبق ذكره ﴿وَأَصْحَابُ الرَّيْسِ﴾ المراد بهم: الذين أخذوا نبيهم،
ورسوه أي: دفنوه في بئر كانوا يعبدون حولها الأصنام، وقيل: إنها
من قرى ثمود قوم صالح، وقوله: ﴿وَتَمُودُ﴾ هم قوم صالح
﴿وَعَادٌ﴾ هم قوم هود ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ أي: قومه، وهم القبط الذين
أرسل الله إليهم موسى ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ أي: أصحاب قرية سدوم
أهل الفاحشة ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ هم قوم شعيب ﴿وَقَوْمُ
تُبَّعٍ﴾ أي: قوم تبّع الحميري ملك اليمن ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أي:

أن هذه الأمم كذبت أنبياءها ورسلاها، وعتت عن أمر ربها ﴿فَحَقَّ وَعِيدٌ﴾ أي: وجب عليها الهلاك والعذاب، فمنهم من هلك بالغرق، ومنهم من أخذته الرجفة، ومنهم من أخذته الصيحة، وفي هذا تهديد ووعد للمشركين الذين كذبوا رسول الله - ﷺ -، فأنذرهم الله بما سبق لغيرهم من الأمم التي بيننا لهم.

قوله: ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخُلُقِ الْأَوَّلِ﴾ أي: هل عجزنا عن الخلق الأول الذي خلقناه، حتى يكون لدى هؤلاء المنكرين للبعث ريب في عدم قدرتنا على إعادة الخلق؟، والجواب بالنفي؛ لأنهم يرون الخلق ظاهرًا في أنفسهم، وفي غيرهم، فلا يستطيعون إنكاره، وإنما اختلط الأمر عليهم بسبب عدم إيمانهم، وضعف عقولهم، فأنكروا إعادة الخلق، وهو معنى قوله-تعالى-: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وأخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد قوله-تعالى-: ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخُلُقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ﴾ يقول: «أفعي علينا حين أنشأناكم خلقًا جديدًا، فتمتروا بالبعث؟».

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير أن الذين كذبوا رسول الله - ﷺ - لم يكونوا أول المكذبين برسول يأتي من عند الله، وإنما كان هناك أمم قبلهم كذبوا

رسلهم، فأهلكهم الله، وفي ذكر ما حل بهذه الأمم تهديد ووعيد لكل من كذب رسول الله.

- تقرير حقيقة البعث بالدليل العقلي؛ لأن من له عقل يدرك به يقيناً أن الذي خلق الخلق ابتداء كان بقدرته، وأنه كما يميتهم بقدرته قادر على إعادة بعثهم بقدرته.
- أن الذين يفقدون الإيمان في نفوسهم تضطرب عقولهم، فيكونون دائماً في شك وريب.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

بيان الآيات:

ما زالت الآيات الكريمة تؤكد واقعة البعث، كما قال -ﷺ-:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أي: خلقنا الإنسان من العدم إلى الوجود، فصار خلقاً سوياً، وما خلقناه إلا ونحن نعلم علم اليقين حقيقته، وما فيه من الخواطر والهواجس، وهو معنى قوله -تعالى-: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوسْوُسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ أي: نحن بعلمنا وملائكتنا أقرب إليه من عِرْقِ عنقه، لو أردنا أن نأخذه أو نعذبه، وفي هذا دلالة على قدرته -عز وجل- في تدبيره، وتصرفه في خلقه.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي: أن أحد الملكين الموكلين به قاعد عن يمينه، والآخر عن شماله، يتلقيان عمله، ويكتبانه؛ ليراه في سجله بعد بعثه.

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ أي: ما يتكلم الإنسان بكلمة ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: ملك حاضر يكتب أقواله، وأخرج الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ قال: فقال ابن عباس: «إنما يكتب الخير والشر، لا يكتب: يا غلام! أسرج الفرس، ويا غلام! اسقني الماء، إنما يكتب الخير والشر»^(١).

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي:

(١) المستدرک، (٢/٤٦٥)، وصححه، ووافقه الذهبي.

جاءت غشاوة الموت وسكراته، وهو الحق الذي كتبه الله على الخلق، لا محالة لهم منه، فتقول الملائكة للمكذب بالبعث: هذا هو اليوم الذي كنت تفر منه، وتهرب.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ أي: نفخ إسرائيل في القرن نفخة الفناء، ثم البعث، وذلك هو اليوم الذي وعد الله فيه المؤمنين بالثواب على أعمالهم، ووعد فيه الكافرين بالعذاب جزاء كفرهم.

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي: يجيء مع كل نفس ملك يسوقها للحساب، وملك يشهد عليها بما عملت، وأخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد في قوله-تعالى-: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ سائق يسوقها إلى أمر الله، وشاهد يشهد عليها بما عملت.

فمن كان غافلاً عن أمر ربه ناسياً أو متعمداً يقال له: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ أي: أزلنا عنك حجاب غفلتك ونسيانك لأمر ربك ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: بصرك اليوم نافذ؛ لترى عاقبة عملك.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن في الآية (١٦) إخباراً مستقبلياً بعلم الله المطلق في الماضي

والحاضر والمستقبل، فهو خالق الإنسان، حتى إنه يعلم- سبحانه- ما تحدث به نفس الإنسان، فهو- سبحانه- أقرب إليه من العرق الذي في العنق المتصل بالقلب.

- قال الدكتور محمد جميل الحبال: «حبل الوريد هو: جذع الدماغ (Brain Stem)، فعبرة (حبل الوريد) لا تعني بالضبط وعاءً دموياً؛ لأن الحبل هو: ما يكون غير مجوف (غير أنبوبي)، ولا يمكن أن يسمى حبلًا إذا أصبح مجوفاً، ولقد ربط الله -ﷻ- في هذه الآية بين وسوسة النفس وبين قربه من حبل الوريد، والوسوسة تحصل في الدماغ، وإن الحبل الذي عن طريقه ترد المعلومات من الدماغ وإليه (ذهاباً وإياباً) هو تبيان لتوريد المعلومات».

- تقرير عظمة الله، وقدرته، وتصرفه في عبادته، وأنه أقرب إلى كل واحد منهم من حبل عنقه، وهذا القرب قرب علم، كما قال- تعالى:- ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] أي: بعلمه، وليس بذاته، كما يقوله الحلوليون الكفرة، كما أن الملائكة أقرب إلى العبد من حبل عنقه؛ لكونهم يعملون بأمر الله، ويكتبون أعمال العباد.

- وفيها: أن الله يعلم بعلمه المطلق ما توسوس به نفس العبد من

الحسن أو السيئ، وفي ذلك قال رسول الله -ﷺ-: «إن الله -تعالى- تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تتكلم»^(١).

- أن لكل عبد ملكين: أحدهما عن يمينه، والآخر عن شماله، يكتبان كل ما يتلفظ به من قول، أو يفعل من فعل، كما قال -تعالى-:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢].

وفي حديث بلال بن الحارث المزني أن رسول الله -ﷺ- قال: «إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله -تعالى-، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله -ﷻ- له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله -تعالى-، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله -تعالى- عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه»^(٢).

- تقرير أن للموت غشاوة وسكرات، وقد ثبت أن رسول الله -ﷺ- لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه، ويقول: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات»^(٣).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطلاق، باب: الطلاق في الإغلاق والكره والسكران، (رقم ٥٢٦٩)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر، (رقم ١٢٧).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد، باب: في قلة الكلام، (رقم ٢٣١٩)، وابن ماجه في كتاب الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة، (رقم ٣٩٦٩)، وصححه الترمذي، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: سكرات الموت، (رقم ٦٥١٠).

- أن كل نفس تأتي يوم القيامة ومعها ملك يسوقها للحساب، ومعها ملك يشهد عليها بما عملت، فينكشف للكافر غطاؤه، ويرى بعينه جهارًا ما كان يكذب به من الحساب والجزاء.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ حينما يجيء الملك الذي يسوق النفس للحساب، والملك الذي يشهد عليها، يقول هذا الشاهد: ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي: حاضر ما كتبت، لا زيادة فيه، ولا نقص، فعندئذ يحكم الله بالعدل، فيقول للملكين: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: ألقيا هذا الكافر الذي كان معاندًا للحق ﴿مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ هذا وصف له-أيضًا-، فبالإضافة إلى معاندته للحق فهو

يمنع الخير؛ لخبث نفسه وطويته، فلا يبر من يستحق البر، ولا يساعد من يستحق المساعدة، بل هو معتد في أقواله وأفعاله، لا يرتدع عن الظلم، ولا يتورع عن حقوق الناس ودمائهم وأموالهم وأعراضهم، وهو إلى جانب هذا كله يرتاب في كل أمر يدعو إلى الخير، وينهاه عن الشر ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ وهذا وصف آخر لهذا الكافر، وهو شر أوصافه، حيث يجعل مع الله إلهاً آخر، فينكر بذلك توحيده في ألوهيته ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ وهذا تأكيد لما أمر الله به الملكين من إلقائه في نار جهنم.

﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾

المراد به: الشيطان وقرينه حين يختصمان أمام الرحمن، فيتبرأ القرين من صاحبه، ويقول: يا رب! لم أطغه، ولم أضله، ولكنه هو الذي أضل نفسه حين اتبع هواه، فيرد الله على ذلك بقوله-عز ذكره-: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ أي: لا تتخاصموا لدي، فقد قدمت لكم بالوعيد، أي: أعذرتكم بما أرسلت لكم من الرسل، وأنزلت لكم من الكتب، وبينت لكم طريق الخير من الشر.

﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ﴾ أي: يقول المولى-ﷻ: لقد حكمت

بالعدل ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي: لست أظلم أحداً، فأعاقبه

بذنّب لم يرتكبه، وإنما أعاقب من ارتكب ذنبًا، ولم يتب منه، رغم ما جاءه من البينات.

أحكام وفوائد الآيات:

- بيان أن الله يأمر الملكين اللذين يأتیان بالكافر للعرض أن يلقياه في العذاب بعد أن ثبت أنه كافر عنيد، وأنه مناع للخير، وأنه معتد مريب، وأنه مشرك بالله، منكر لتوحيده في ألوهيته.

- أن هذا الكافر وقرينه من الشياطين يختصمان أمام الرحمن، فيتبرأ القرين من عمل صاحبه، ويتهمه بالضلّال، ثم ينهاهما الله عن التخاصم عنده، بعد أن بيّن لهم الآيات والحجج في الدنيا، وهذا هو حال الشياطين حين يغوون أتباعهم، ثم يتبرؤون منهم، كما قال- تعالى:- ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

- الحكم بعدل الله، ونفي الظلم عنه في أحكامه، كما قال-تعالى:-

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ
يَوَيْلَئَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا
أُحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾
[الكهف: ٤٩].

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ۝٣٠
وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ
حَفِيفٍ ۝٣٢ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ۝٣٣
ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ۝٣٤ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا
مَزِيدٌ ۝٣٥﴾.

بيان الآيات:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ لما كان
قد سبق في علم الله أنه سيملاً جهنم من الكفرة وشياطينهم، كما قال -
تعالى- لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾
[ص: ٨٥]، فإنه يسأل جهنم - وهو أعلم بما يسألها عنه - عما إذا كانت
قد امتلأت، فتجيب قائلة: هل من مزيد؟ أي: هل تزيدونني؟ وأخرج
البخاري بسنده عن أنس بن مالك عن النبي - ﷺ - قال: «يلقى في النار،

وتقول: هل من مزيد؟، حتى يضع قدمه، فتقول: قَطَّ قَطُّ...»^(١).

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: قربت في مكان غير

بعيد للمتقين الذين آمنوا بالله وآياته، وصدقوا رسوله، واتبعوا ما جاء به من عند ربهم ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: هذا ما وعدكم الله به من النعيم المقيم ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيزٌ﴾ أي: منيبٌ رجاع إلى طاعة الله في كل أمر من أموره، وحافظ لحدوده، غير مضيع لها.

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ هذا وصف للأَوَّابِ بأنه يخاف

الرحمن وهو غائب عنه، ولكنه يعرف أنه حفيظ عليه يعلم ما يعلنه وما يخفيه ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ أي: وفد إلى الله بقلب سليم من الآثام والخطايا ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أي: يقال لهؤلاء المتقين الذين يتصفون بالإنابة وخشية الرحمن: ادخلوا الجنة وأنتم سالمون من العذاب، والملائكة تسلم عليكم وتحييكم ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أي: هذا اليوم الذي تخلدون فيه في الجنة، فلا تخرجون منها.

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أي: لهم ما يختارون فيها مما تُلذ به

نفوسهم ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أي: وعند الله لهم زيادة، وهي لذة النظر

(١) الصحيح، (٨/٤٦٠)، كتاب التفسير، سورة ق، حديث (٤٨٤٨)، وصحيح مسلم، (٤/٢١٨٧)، كتاب الجنة، وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء.

إلى وجهه الكريم، التي لا يماثلها لذة، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وروى ابن بطة بإسناد صحيح عن أنس ابن مالك في قوله-تعالى:- ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قال: «يتجلى لهم كل جمعة».

أحكام وفوائد الآيات:

- أن النار تسأل عن المزيد إلى أن يضع رب العزة قدمه عليها، فتتوقف عن السؤال، وفي ذلك روى أبو هريرة-رضي الله عنه- أن رسول الله-ﷺ قال: «تحتاج الجنة والنار، فقالت النار: أوثرتُ بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟، قال الله-ﷻ- للجنة: أنت رحمتي، أرحم بك من أشياء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابٌ، أعذب بك من أشياء من عبادي، ولكل واحدة منهما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله، فتقول: قط قط قط، فهناك تمتلئ، ويزوي بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله-ﷻ- من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله-ﷻ- ينشئ لها خلقاً»^(١).

- كرامة المتقين الذين يرجعون دائماً إلى ربهم، ويحفظون حدوده، ويخشونه بالغيب.

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: قوله-تعالى:- ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾، (رقم ٤٨٥٠)، ومسلم في كتاب الجنة، باب: «النار يدخلها الجبارون»، (رقم ٢٨٤٦).

- أن أعظم حظ يناله أهل الجنة رضا الله عنهم، ونظرهم إلى وجهه الكريم.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾.

بيان الآيتين:

لما ذكر الله في أول السورة تعجب المشركين من إنذارهم بالبعث الذي يكذبون به، ثم ذكر بعد ذلك واقعة الموت وأهوال يوم القيامة، قال- ﷻ: إن عذاب هؤلاء المشركين من قريش هينٌ عليه، فقد أهلك أمماً قبلهم كانوا أقوى منهم وأشدُّ بأساً، كما قال- تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾، ثم بين أن العذاب لما حاق بهم صاروا يسألون عن ملجأ يلجؤون إليه، كما قال- تعالى:- ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: هل من مهرب يفرون إليه من الهلاك؟، وأننى لهم ذلك؟.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ﴾ أي: فيما حدث لتلك الأمم من الهلاك لعبرة وعظة ﴿لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي: قلب يتعظ ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: سمع ما يقال له من النذارة، وقلبه حاضر.

أحكام وفوائد الآيتين:

- أن الله أهلك أمماً كثيرة بسبب تكذيبها لرسولها، وهذا يقتضي تذكير الناس بهذه الحقائق؛ لكي يعتبروا، ويتعظوا، ويفيقوا من الغفلة التي يتعرضون لها، بسبب لهو الحياة وغرورها.

- أن العبد لا ينتفع بالموعظة إلا إذا كان قلبه حاضراً أثناء سماعها، وإلا لم ينتفع بما وُعد به، كحال المنافقين الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لَّغُوبٍ﴾ (٣٨) فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ (٤٠).

بيان الآيات:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: خلقنا السماوات في ستة أيام معدودات ابتداء من يوم الأحد، وانتهاء

بيوم الجمعة .

﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ أي: ما كان في خلقهما من نصب أو تعب، وفي هذا رد على اليهود الذين قالوا: إن الله بدأ خلق السماوات والأرض يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، فهم لهذا يجعلون يوم السبت راحة لهم.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: اصبر يا نبينا محمداً على المكذبين من المشركين واليهود والمنافقين ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: وكما تصبر على أذى هؤلاء المكذبين استعن على ذلك بالتسبيح .

﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ والمراد به هنا: صلاة الفجر التي تقام قبل طلوع الشمس ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ أي: صلاة الظهر والعصر. ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ والمراد هنا صلاة المغرب وصلاة العشاء؛ لكونهما تصليان في الليل

﴿وَأَذْبَرَ السُّجُودَ﴾ أي: سبح باسم ربك بعد أداء الصلوات، كما أخرج البخاري عن ابن عباس قال: «أمره أن يسبح في أدبار الصوات كلها»، يعني قوله: ﴿وَأَذْبَرَ السُّجُودَ﴾^(١).

(١) الصحيح، (٨/٤٦٢-٤٦٣)، كتاب التفسير، سورة ق، باب الآية، حديث (٤٨٥٢).

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير عظمة الله وإرادته في خلق السماوات والأرض، والرد على مزاعم اليهود بأنه استراح يوم السبت، كما قال -ﷺ-: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّجْ خَلْقَهُنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

- وجوب الاستعانة بالصبر والصلاة عند النوائب، كما قال -تعالى-: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وكان رسول الله -ﷺ- عليه الصلاة والسلام - إذا حزبه أمر صلى^(١).

- تقرير فضل التسبيح في دبر كل صلاة؛ لما رواه أبو هريرة -رضي الله عنه-: «جاء الفقراء إلى رسول الله -ﷺ-، فقالوا: يا رسول الله! ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلى والنعيم المقيم، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل من أموال، يحجون بها ويعتمرون، ويجاهدون، ويتصدقون، قال -ﷺ-: «ألا أحدثكم بأمر إن أخذتم به أدركتم من سبقكم، ولم يدرككم أحد بعدكم، وكنتم

(١) أخرجه أبو داود في كتاب أبواب قيام الليل، باب: وقت قيام النبي -ﷺ- من الليل، (رقم ١٣١٩)، والإمام أحمد في المسند، (٣٨ / ٣٣٠)، (رقم ٢٣٢٩٩)، وحسنه الألباني.

خير مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِ، إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ: تسبحون، وتحمدون، وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين»، فاختلفنا بيننا، فقال بعضنا: نسبح ثلاثاً وثلاثين، ونحمد ثلاثاً وثلاثين، ونكبر أربعاً وثلاثين، فرجعت إليه، فقال: «تقول: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، حتى يكون منهن كلهن ثلاث وثلاثون»^(١).

﴿وَأَسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَأَسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: استمع يا محمدُ يوم ينادي إسرافيل الخلق لفصل القضاء، وذلك من مكان قريب من الناس، قيل: إنه صخرة بيت المقدس ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ وهي نفخة إسرافيل الثانية للبعث ﴿ذَلِكَ يَوْمَ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب: الذكر بعد الصلاة، (رقم ٨٤٢)، ومسلم في كتاب المساجد، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة، وبيان صفته، (رقم ٥٩٥).

﴿الْخُرُوجُ﴾ أي: خروج الأموات من قبورهم .

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ أي: يقول المولى -ﷻ-: أنا الذي أبدأ الخلق أول مرة، ثم أميته، ثم أحياه ﴿وَالْيَنَّا الْمَصِيرُ﴾ أي: إلي مرجع جميع الخلائق؛ لحسابهم وجزائهم على أعمالهم التي عملوها في الدنيا، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

﴿يَوْمَ تَشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ أي: وفي ذلك اليوم ينزل الله مطرًا من السماء، فتنبت فيه الأجساد، ثم يأمر الله إسرافيل، فينفخ في الصور، فإذا نفخ خرجت الأرواح بين السماء والأرض، فيأمر الله كل روح أن ترجع إلى جسدها، فتدب فيه الحياة، ثم تنشق الأرض، فيقومون مسرعين للحساب .

﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي: أن بعث الخلائق سهل علينا، كما قال-تعالى-: ﴿مَا خَلَقْكُمْ وَلَا بَعَثْكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨].

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ هذا تهديد لكفار قريش، ووعيد لهم بالعذاب إذا لم يتوبوا، وفيه تسلية لرسول الله -ﷺ- بألا يحزن من قولهم.

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أي: لا تقدر على إجبارهم على الهدى، وإنما أنت مبلغ تذكّر بالقرآن المؤمنين الذين يخافون الله، ويخشون وعيده، كما قال-تعالى:- ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير واقعة البعث والنشور، ومناداة إسرافيل للأموات، وسماع الصيحة، وخروج الأموات من قبورهم مسرعين، كما قال-تعالى:-
﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾
[القمر: ٨]، وقال-عز ذكره:- ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].
- بيان الله لرسوله أنه يعلم ما يقوله المكذبون له، وأن عليه الصبر، كما قال-ﷺ:- ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾
[الحجر: ٩٧].

- بيان الله لرسوله أنه لا يقدر على هداية من كفر من قومه، وإنما عليه أن يبلغ بالقرآن، ويذكر به المؤمنين الصالحين الذين يخشون وعيد الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الذاريات

مكية، وآياتها ستون آية

﴿وَالذَّرِيَّتِ ذُرُوًا ۝١﴾ فَالْحَمِلَتِ وَقْرًا ۝٢﴾ فَالْجَرِيَّتِ يُسْرًا ۝٣﴾
 فَالْمُقَسِّمَتِ أَمْرًا ۝٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَقَّعُ
 ۝٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾ يُؤْفَكُ
 عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ .

بيان الآيات:

﴿وَالذَّرِيَّتِ ذُرُوًا﴾ هذا قسم من الله -عز وجل- بآية من آياته، وهي
 الرياح التي تذر التراب وغيره، وتقسمه أقسامًا ﴿فَالْحَمِلَتِ
 وَقْرًا﴾ أي: السحب التي تحمل في طياتها المطر حملاً ﴿فَالْجَرِيَّتِ
 يُسْرًا﴾ المراد بها: السفن حين تجري في البحر بسهولة.

﴿فَالْمُقَسِّمَتِ أَمْرًا﴾ أي: الملائكة تقسم الأرزاق، وذلك بأمر ربها،
 وجواب القسم قوله -تعالى-: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ أي: أن ما
 توعدون به أيها الخلق من البعث والحساب والجزاء هو وعد صادق،
 سيقع لا محالة ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَقَّعُ﴾ أي: إن الحساب يوم المعاد واقع

لا شك فيه.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ هذا قسم منه-وَعَلَى-بالسمااء ذات البهاء والحسن، وقيل: إنها طرائق السحاب.

﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ هذا جواب القسم، وهو أنكم أيها المكذبون لرسول الله في قول مضطرب، فتارة تتهمونه بالكذب، وتارة تتهمونه بالسحر، وتارة تقولون: إن القرآن شعر، فأنتم في شك وريب بسبب كفركم، كما أخرج الطبري وعبد الرزاق بسند صحيح عن قتادة قوله-تعالى:- ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ قال: «مصدق بهذا القرآن ومكذب».

﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي: يصرف عما جاء به الرسول من الحق من صرفه الله بقضائه بعد أن تبين عناده واستكباره عن الحق.

أحكام وفوائد الآيات:

- قسم الله-تعالى-على وقوع البعث في أجله المسمى عنده، وما يتبع ذلك من الحساب والجزاء.

- أثبت العلماء وجود نسيج محكم في السماء، فأطلقوا عليه مصطلح (النسيج الكوني)، وكتبوا عنه فقالوا: «كيف حُبِكتَ الخيوط في النسيج الكوني»، واستخدموا الكلمة Weave باللغة

الإنكليزية، وهي تماماً تعني حبك^(١).

- اختلاف المكذبين لرسول الله، فمنهم من يتهمه بالكذب، ومنهم من يتهمه السحر، ومنهم من يصف القرآن بالشعر، وما هذا الاختلاف إلا بسبب كفرهم.

- أن الله يصرف عن الحق الذين يستكبرون عنه.

﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ
أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فَتَنَتَكُمْ
هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ۝

بيان الآيات:

﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ أي: لعن الذين يقولون الكذب،
ويتخرصون بالظنون ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ أي: الذين
هم في جهالة غافلون عن الآخرة ﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾ أي:
يتساءلون في سخرية واستهزاء عن قيام الساعة ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ
يُفْتَنُونَ ﴾ أي: في ذلك اليوم الذي هم فيه يعذبون.

وأخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد قوله-تعالى:-

﴿ يُفْتَنُونَ ﴾ قال: «كما يفتن الذهب في النار»، ويقال لهم فيه:

(1) <http://quran-m.com/container2.php?fun=artview&id=969>

﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أي: عذابكم .

﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: هذا هو اليوم الذي تستعجلونه استهزاء، فأنتم ملاقوه اليوم حقيقة، كما أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قوله- تعالى:- ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ قال: «ذوقوا عذابكم» ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ .

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير لعنة الله للخراسين الذين يكذبون آيات الله، ورسالة رسوله، ويستهزئون بيوم القيامة.
- أن هؤلاء يعذبون يوم القيامة بسبب تكذيبهم واستهزائهم، ويقال لهم وهم في ذلة وصغار: لاقوا العذاب الذي كنتم تستهزئون به.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾

بيان الآيات:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ لما توعد الله بالعذاب المشركين

المكذبين لآياته ورسوله ذكر حال المتقين، وما أعد لهم في الجنة من النعيم.

﴿عَاذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: مستمتعين بما أعطاهم ربهم من الثواب، ثم وصفهم الله بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي: كانوا قبل أن يقدموا إلى ربهم مخلصين في أعمالهم، يبتغون رضا ربهم، ويرجون ثوابه ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ هذا وصف لقيامهم في الليل، فهم لا ينامون عن ذكر ربهم، ولا يغفلون عن عبادته، بل يقومون من الليل، فيصلون، ويسبحون له، ويستغفرونه، كما قال-تعالى:- ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ وأخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال: «يصلون».

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ أي: كما هم يصلون، فإنهم لا يبخلون بأموالهم، بل يزكون ما أوجب الله عليهم زكاته، ويتصدقون من فضول أموالهم، فيعطون من سألهم، ويعطون المحروم الذي يتعفف عن سؤالهم.

وأخرج الطبري وعبد الرزاق بسند صحيح عن الزهري ﴿لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ قال: «السائل: الذي يسألك، والمحروم: المتعفف الذي لا

يسألك».

أحكام وفوائد الآيات:

- جزاء المتقين، وذكر ما يتصفون به من الإحسان، وقيام الليل، والاستغفار في الأسحار، وبذل المال في سبيل الله، ومساعدة المحتاجين، وفي هذا قال رسول الله - ﷺ - لما قدم المدينة: «يا أيها الناس! أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»^(١).

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ قَوْرَبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ أي: فيها من الآيات العظيمة الدالة على قدرته وسلطانه ما جعلها صالحة لسكن الخلق ومقامهم، وما أرسى فيها من الجبال، وما بث فيها من الحيوان والدواب

(١) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة، (رقم ٢٤٨٥)، وابن ماجه في كتاب الأطعمة، باب: إطعام الطعام، (رقم ٣٢٥١)، والإمام أحمد في المسند، (٢٠١/٣٩)، (رقم ٢٣٧٨٤)، وصححه الترمذي، وصححه الألباني.

والطيور، وما وضعه فيها من البحار والأنهار والعيون، وما فيها من النباتات والأشجار، وكل ذلك لمنفعة خلقه في طعامهم وشرابهم ومقامهم.

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: وفي أنفسكم أيها الخلق الدلائل العظيمة المتمثلة في تدرج خلقكم من النطفة الصغيرة إلى استواء خلقكم، بما فيه من السمع والبصر والعقل والقوة والمشاعر والحواس، كل ذلك بصنع الله وقدرته، فالعقلاء هم الذين يتبصرون في أنفسهم، ويعلمون قدرة الله وعظمته، فيخلصون له العبادة.

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ المراد به المطر، وهو مصدر رزق الخلق في الأرض؛ لأن نزوله من السماء يحيي الأرض، وما يكون فيها من النبات والثمار ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ المراد به: ما عند الله في السماء من الجنات للمتقين، وما فيها من العذاب للمكذبين.

﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلٍ مَّا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ﴾ هذا قسم من الله بذاته العلية أن ما قاله عن المتقين والمكذبين، وجزاء كل منهم: أنه حق لا مرأ فيه، مثل ما أن الإنسان لا يماري في النطق الذي ينطق به.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن في الأرض آيات بينات للذين ينظرون في الكون، ويتفكرون فيه، فيعلمون أن خالقه ومبدعه هو المستحق للعبادة، كما أن في أنفس الخلق آيات بينات للذين يتدبرون فيها بعقولهم وبصائرهم، فيعرفون أن هذه الآيات تدل قطعاً على قدرة الله وعظمته.
- أثبتت دراسات الأرض أن الأرض مبنية من عدة نطقٍ محددة حول كرة مصمتة من الحديد والنيكل، تعرف باسم لب الأرض الصلب (الداخلي)، ولهذا اللب الصلب - كما لكل نطاق من نطق الأرض - دوره في جعل هذا الكوكب صالحاً للعمران بالحياة الأرضية في جميع صورها، وأن للأرض مجالاً مغناطيسياً ثنائياً القطبية، له صلة وثيقة بلب الأرض الصلب، وحركة إطاره السائل من حوله، ويتولد المجال المغناطيسي للأرض من حركة المكونات فيها وفيه^(١).
- أن المطر الذي ينزله الله من السماء هو مصدر رزق الخلق في الأرض، حيث يحيي الله به الأرض، فتنبت النبات لأرزاق الخلق.
- قسم الله-وقسمه حق-أن البعث، ووعد الله للمتقين بالثواب، ووعده للمكذبين بالعذاب، حق لا مرأى فيه.

(١) آيات الاعجاز العلمي، الأرض في القرآن الكريم، للدكتور زغلول النجار، (ص ٧٩-٩٨).

- قال الدكتور محمد جميل الحبال: «من أهم هذه الآيات الباهرات في الأنفس (الإنسان) التي تَوَصَّل إليها العلم مؤخراً، ولا يزال يعمل لإكمال الكشف عن حقائقها هي: البصمة الوراثية، أو الخارطة الجينية (Genetic Map)، وما يسمى -أيضاً- الجينوم البشري (Human Genome) التي هي أساس تكوينه، وتُشكِّل جميع صفاته وخواصه ظاهراً وباطناً، وتَمَيِّزه ليس فقط عن جميع المخلوقات، وإنما -أيضاً- عن كل فرد من أفراد البشر، حيث إنَّه لكل واحد منهم خارطته الجينية الخاصة به».

- قال العلماء: يُفْهَم رزق السماء في الأطر التالية:

أ- في إطار فهم السماء بنطاق التغيرات الجوية، فإنَّ رزق السماء هو المطر الذي نرتوي به، ونَرْوِي زروعنا منه.

ب- في إطار تفسير السماء بالسماء الدنيا، فإنَّ رزق السماء هو كل صور المادة والطاقة المتولَّدة في داخل النجوم، من مثل شمسنا التي تصل إلى الأرض بصور متعددة^(١).

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾

^(١) <http://www.islamicmedicine.org/zaghloul/20.htm>.

فَجَاءَ بِعِجْلِ سَمِينٍ ﴿٣٦﴾ فَقَرَّبَهُوَ إِلَيْهِمْ قَالْ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٣٧﴾
 فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٣٨﴾
 فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٣٩﴾
 قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٤٠﴾

بيان الآيات:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ هذه الآيات وما بعدها خلاصة لقصة إبراهيم-عليه السلام- مع الملائكة حين وفدوا عليه، وقد تقدم تفصيلها في سورتي (هود) و(الحجر)، والمراد: هل أتاك يا نبينا محمدًا ما حدث بين إبراهيم وضيوفه؟

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ أي: سلموا عليه، فرد عليهم السلام ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أي: أنكر هيئتهم؛ لأنهم كانوا شباناً يكسوهم الجمال والمهابة ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ أي: تسلل خفية منهم؛ ليقدم لهم ما يقدمه المضيف لضيوفه، ﴿فَجَاءَ بِعِجْلِ سَمِينٍ﴾ أي: من أفضل ما عنده ﴿فَقَرَّبَهُوَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: جعله قريباً منهم خدمة، وتلطفاً بهم، كما يتلطف المضيف بضيوفه، فلما رآهم لا يأكلون استفهم منهم: ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: أحب أن تأكلوا ما قدم

إليكم، ولما لم يأكلوا صعب عليه، وهو معنى قوله-تعالى-: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ ﴿١٠﴾ فلما رأوا ذلك على وجهه-عليه السلام- ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ ﴿١١﴾ أي: قالوا له كما في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُّوطٍ﴾ ﴿١٢﴾ [هود: ٧٠].

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿١٣﴾ أي: بشروه بما سيأتيه من الولد، ﴿فَأَقْبَلَتِ أُمْرَأَتُهُ فِي صَرَعةٍ﴾ ﴿١٤﴾ أي: صرخت من المفاجأة كعادة النساء في مثل هذه الحال ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ ﴿١٥﴾ أي: ضربت بيدها على وجهها كما يفعل من فوجئ بأمر ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ ﴿١٦﴾ أي: كيف ألد غلامًا وأنا عجوز أصابها العقم واليأس من الولادة؟ ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١٧﴾ أي: قال الملائكة لزوجة إبراهيم: هذا هو ما أراده ربك، إنه هو الحكيم بما يريد، العليم بما ينفع عباده.

أحكام وفوائد الآيات:

- فضل إبراهيم-عليه السلام- ومكانته عند الله، كما قال-ﷺ-: ﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ ﴿١٨﴾ [النجم: ٣٧].

- إرادة الله وقوته وتدبيره في خلقه، وحكمته فيهم، فتلد العجوز الولد

رغم يأسها منه، ويلد العقيم الولد رغم يأسه، وهكذا لا يعجز الله من الأمر شيء.

- أن من أدب المضيف أن يبادر بالضيافة.

- أن الخوف الفطري عند وجود أسبابه لا يقدح في العقيدة، ولا يُعدُّ شركاً.

- وجوب إكرام الضيف والتلطف به؛ لحديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -ﷺ- قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه.. الحديث»^(١).

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ٣١ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ ٣٢ ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ ٣٣ ﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ ٣٤ ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ٣٥ ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ٣٦ ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ٣٧ ﴿

بيان الآيات:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ لما عرف إبراهيم أن

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (رقم ٦٠١٨)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: الحث على إكرام الجار والضيف، (رقم ٤٧).

ضيوفه ملائكة الله سألهم في تطف عن خبرهم ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أي: أرسلنا الله إلى قوم كفروا بآيات الله، وتعدوا على حرماته بارتكابهم الفواحش، وذلك ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ أي: حجارة من طين مطبوخ ﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: معلّمة من عند الله، مكتوب عليها اسم كل واحد من هؤلاء الذين يفعلون الفواحش، وينتهكون حرمت الله .

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أخرجنا من قرية سدوم لوطاً ومن معه من المؤمنين ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وهو بيت لوط وابنتيه، ومن كان معه من المؤمنين ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾ أي: جعلنا هذه القرية بعد هلاك أهلها عبرة، وهي تحولها إلى بحيرة سيئة، لا تزال تعرف الآن بالبحر الميت، أو بحيرة لوط.

﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي: جعلناها عبرة للذين يخشون الله، ويخافون عقابه.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير أن سنة الله قد خلت بعقاب المجرمين الذين يعتدون على حدود الله، وينتهكون حرماته، كما قال-تعالى-: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ

الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ
الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ
اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ [الأعراف: ٩٧ - ٩٩].

- أن كل مؤمن مسلم، ولا يتحقق إيمان المسلم إلا إذا تعمقت في نفسه شروط الإيمان، وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر: خيره وشره.

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ
بِرُّكْنَيْهِ وَقَالَ سَحَرُ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي
الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا
تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ
لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذْتُهُمُ الصَّعِقَةَ
وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾
وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وفي سياق

ذكر آيات الله التي تكون عبرة للمؤمنين، ومنها: إهلاك قوم نوح وعاد وصالح ولوط، ذكر الله -ﷻ- أنه أرسل موسى إلى فرعون ملك القبط بحجج وبيّنات واضحة، هي العصا والجراد والقمل، وغير ذلك مما سبق ذكره ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾ أي: أعرض عن الحق معتمدًا على قوته وجنوده ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي: قال لموسى: إما أن تكون ساحرًا، أو مجنونًا فيما تقول، ولهذا لن نؤمن لك، ولن نصدقك، فكان عقابه ما ذكره الله بقوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي: ألقيناهم جميعًا في البحر، فغرقوا كلهم ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: ذهب وهو ملوم على عناده، وإصراره على الكفر، وجحود الرسالة.

﴿وَفِي عَادٍ﴾ المراد بهم قوم هود، فقد أرسله الله إليهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام، فكذبوا، وعصوا، واستكبروا، فأرسل الله عليهم ريحًا عاتية، فلم يبق لهم باقية، كما قال -تعالى-: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ أي: الريح المهلكة ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالْزَّمِيمِ﴾ أي: ما مرت عليه من بشر أو شجر أو حجر أو غير ذلك إلا حولته إلى ركام متفتت.

وأخرج الترمذي بسند حسن عن أبي واثل عن رجل من ربيعة قال: قدمت المدينة، فدخلت على رسول الله -ﷺ- فذكرتُ عنده وافد عاد،

فقلتُ: أعود بالله أن أكون مثل وafd عاد، قال رسول الله -ﷺ-: «وما وafd عادٍ؟»، قال: فقلتُ: على الخير سَقَطَتْ، إن عاداً لما أقحطت بعثت قَيْلاً، فنزل على بكر بن معاوية، فسقاه الخمر، وغنته الجرادتان، ثم خرج يريد جبال مهرة، فقال: اللهم إني لم آتكَ لمريض فأداويه، ولا لأسير فأفاديه، فاسق عبدك ما كنتَ مسقيه، واسق معه بكر بن معاوية، يشكر له الخمر التي سقاه، فَرُفِعَ له سحابات، فقليل له: اختر إحداهن، فاختر السوداء منهن، فقليل له: خُذْها رماداً رمداً، لا تذر من عاد أحداً، وذكر أنه لم يُرسل عليهم من الريح إلا قدرُ هذه الحَلَقَة يعنى حَلَقَة الخاتم، ثم قرأ: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ﴾^(١).

﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ المراد بهم قوم صالح، فقد أرسله الله إليهم، يدعوهم إلى توحيد الله وطاعته، والبراءة من الشرك، وذكَّره بما أسبغ الله عليهم من نعمه، ومنها: الناقة التي طلبوها، ومع ذلك استكبروا، وعقروا الناقة، فقليل لهم: ﴿تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: أبقوا على ما أنتم عليه حتى يحين الأجل الذي حدده الله لعذابكم بسبب كفركم، وهو ما أخبر الله عنه بقوله: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: استكبروا

(١) السنن، (٣٩١/٥-٣٩٢)، كتاب التفسير، باب سورة الذاريات، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

عنه، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: أخذتهم صاعقة العذاب، وهم ينظرونه يحيق بهم من كل جانب ﴿فَمَا اسْتَظَعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ أي: لم يستطيعوا الوقوف على أقدامهم، بل هلكوا وهم قعود ﴿وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾ أي: لم يقدروا أن ينتصروا لأنفسهم بشيء.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ أي: أهلكننا قبل هؤلاء الذين ذكرناهم قوم نوح بسبب فسوقهم، وتكذيبهم لنبيهم، رغم دعوته لهم دهرًا طويلًا، فأصروا على كفرهم، فأغرقهم الله بالطوفان، فلم يبق منهم إلا نوح وقلة من المؤمنين معه.

أحكام وفوائد الآيات:

- بيان من الله عن الأمم التي هلكت بسبب تكذيبها لرسالتها، وهم: فرعون وجنده، وعاد قوم هود، وثمرود قوم صالح، وقوم نوح، وما كان الله ليهلكهم إلا بعد أن جاءتهم رسلهم بالبراهين والبيانات، فأصروا على كفرهم، وفي هلاك هذه الأمم عبرة لغيرهم، ودليل على أن الكفر والمعاصي لا تعمر الأرض، بل تدمرها ومن فيها، حتى لو تمتعت إلى حين، ومن هنا سوف يدرك الذين يفسدون في الأرض، ويستعلون على الضعفاء، ويستعمرونهم، وينتهكون حرمتهم، أنهم لن يسلموا من عذاب الله، وفيما حدث للأمم السابقة عبرة لأولي الألباب.

- أن اتهام المبطلين لأهل الحق دَفْعاً للحق، ورَفْضاً له، يكاد يكون سُنَّةً بشرية في كل زمان ومكان.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمِهْدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ .

بيان الآيات:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ هذا بيان من الله أنه بنى السماء بما فيها من الأفلاك، وذلك بحكم قدرته العظيمة، وإرادته المطلقة، وقد وسع أرجاءها، ورفعها بغير عمد .

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمِهْدُونَ﴾ أي: جعلناها فراشاً سهلاً ويسيراً لسائر مخلوقات الله على الأرض، فنعم المسهلون الميسرون للقرار فيها .

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي: جعلنا جميع المخلوقات في عمومها من الإنس والجن والحيوانات والطيور وغيرها من الكائنات زوجين: ذكراً وأنثى ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تتفكرون وتعلمون أن الذي خلق هذا الكون في علوه وسفله هو الله الواحد الأحد، الذي لا رب غيره، ولا إله سواه.

أحكام وفوائد الآيات:

- عظمة الله وقدرته المطلقة في صنع السماء والأرض وإبداعهما، كما قال-تعالى:- ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

- أنه ثبت علمياً أنّ دورات تكوّن القارات، وتبادلها مع المحيطات، ودورات البناء والهدم على سطح القارات تتكون من السهول الخصبة، والتربة الغنية، والصخور الرسوبية المختلفة التي تحوي في أحشائها الكثير من الخيرات الأرضية، من مثل النفط، والغاز الطبيعي، والفحم، والمياه تحت السطحية، وركازات العديد من المعادن الاقتصادية التي يمكن أن تتكون أثناء عمليات الترسيب أو بواسطتها، ولولا ذلك كله ما أنبتت الأرض، ولا كانت صالحة للعمّان^(١).

- عظمة الله في جعل المخلوقات زوجية، كما قال-ﷻ:- ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]، وهذا هو الأمر الذي بينه الله منذ أنزل القرآن على رسوله قبل معرفة العلم الحديث ظاهرة الزوجية في

(١) آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم، للدكتور زغلول النجار، (ص ٣٠٣-٣١٨).

الكون في الذرة وغيرها، فما من شيء في هذا الوجود إلا وهو زوجي؛ لأن قوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يدل على صفة العموم والإطلاق.

- تأكيد قاعدة الزوجية المطلقة في خلق كل شيء من الأحياء والجمادات، ومن أمثلة ذلك:

- الزوجية في الكائنات الحية من الإنسان والحيوان والنبات.
- الزوجية في الخلايا التناسلية الذكرية والأنثوية.
- الزوجية في النطفة الذكرية التي قد تحمل صبغي التذكير، أو صبغي التأنيث.
- الزوجية في الصبغيات في نواة الخلية الحية.
- الزوجية في حاملات الوراثة (المورثات أو الجينات) على كل صبغي من الصبغيات.
- الزوجية في بناء الحمض النووي.
- الزوجية في الذرة بنواتها التي تحمل شحنة موجبة، وإلكتروناتها التي تحمل شحنة سالبة.
- الزوجية في الجسيمات الأولية، أي: في الوجود والعدم^(١).

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ

(١) مقالات الدكتور زغلول النجار في الأهرام، (ص ٦١٥).

اللَّهُ إِلَهًا ءَاخِرًا^ط إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ .

بيان الآيتين:

﴿فَفِرُّوْاْ إِلَى اللَّهِ^ط﴾ هذا أمر من رسول الله لأُمتِه أن يفروا إلى الله، وذلك بالعمل في طاعته، واجتناب معاصيه؛ لأنه لا مفر منه إلا إليه، ولا ملجأ منه إلا إليه .

﴿إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إني نذير لكم من عذاب الله، فقد جئكم بالبينات والبراهين القاطعة بأنه هو ربكم وإلهكم ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخِرًا^ط﴾ أي: لا تعبدوا معه غيره من ملك أو نبي أو ولي أو صنم، بل اعبدوه وحده ﴿إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ توكيد لنذارته-عليه الصلاة والسلام-لأُمتِه.

أحكام وفوائد الآيتين:

- وجوب اللجوء إلى الله في السراء والضراء، فلا مفر منه إلا إليه، ولا ملجأ إلا إليه، والفرار إلى الله يقتضي تحقيق طاعته، واجتناب معاصيه.
- تحريم الشرك بالله؛ لأنه تعهد ألا يغفر لمن أشرك به، كما قال- تعالى:- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ^ع﴾ [النساء: ٤٨].

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ
 مَجْنُونٌ ﴿٥٦﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِءَ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٧﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا
 أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٨﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الدِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٩﴾﴾

بيان الآيات:

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾
 في هذا تسلية لرسول الله - ﷺ - مما أصابه من تكذيب قومه له، والمراد:
 أنه كما كذبك هؤلاء فإنه ما أتى الأمم قبلهم من رسول إلا اتهموه
 بالسحر أو الجنون ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِءَ﴾ أي: أأوصى بعضهم بعضاً بهذا
 الكذب؟.

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: هم قوم طغاة كذبوا بالحق لما جاءهم
 ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ أي: لما كان قومك بهذه الصفة من
 الطغيان فأعرض عنهم، فلا تلتفت إلى ما يقولون من الكذب والبهتان،
 فلن نلومك بشيء؛ لأنك قد بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت لهم،
 فلم يستجيبوا، ومع ذلك فإن توليك عنهم لا يعني الإعراض عنهم
 نهائياً، بل نكّرهم وعظهم.

﴿وَذَكَرْ فَإِنَّ الدِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تنفع الذين كتب

لهم الإيمان، فهم في حاجة إلى تذكيرك لهم بالقرآن.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير التماثل بين الأمم السابقة في تكذيبها لرسولها، واتهامهم لهم بالسحر أو الجنون.
- أن طغيان الإنسان وهواه مصدر شقاوته وتعاسته، كما كان حال فرعون وقارون وهامان وغيرهم من الطغاة على مر التاريخ، وما سببه هؤلاء الطغاة لأممهم من الكوارث والهلاك، كما هو الحال كذلك للطغاة في كل زمان ومكان.
- وجوب تذكير الناس بأوامر الله ونواهيه، فكما أن هذا واجب الأنبياء والرسل نحو أُممهم فإن هذا الواجب يترتب على العلماء والدعاة ومن في حكمهم؛ ذلك أن النفس البشرية في غمرة لهوها تحتاج إلى تذكيرها بما أوجب الله عليها من طاعته، واجتناب معاصيه.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾

بيان الآيات:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ في هذه الآية العظيمة يبيّن الله أنه ما خلق الخلق من الجن والإنس للعبث واللّهو، فحاشاه ذلك، بل خلقهم لعبادته وطاعته وحده، لا شريك له، وهذه العبادة هي لمنافعهم؛ لأن الله غني عنهم، وليس بحاجة إليهم؛ لأنه الذي خلقهم ورزقهم، كما قال-تعالى:- ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «عن مجاهد بالإسناد الثابت في قوله-تعالى:- ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قال: لأمرهم وأنهاهم»^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ أي: هو الرزاق خلقه بقوته المطلقة التي لا يصفها وصف، ولا يحدها حدود.

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بأن الله خلق الخلق من الجن والإنس لعبادته وحده، فإذا أنكر الخلق هذه العبادة فقد نفوا حكمة الله في خلقهم، وعند ذلك يكونون قد استحقوا عقابه؛ لأن العقل يقتضي أن المأمور إذا عصى الأمر بنفي أمره فقد استحق غضبه الموجب لعقابه، وإلا لم يكن

(١) مجموع الفتاوى، (٨/٥٢).

- للأمر معنى، وحاشا أن يكون أمر الله غير ذي معنى؛ فما من أمر منه أو من رسوله إلا له معنى يقتضي طاعته.
- أن فائدة العبادة هي للخلق أنفسهم؛ لأن الله غني عنهم، فلا تنفعه طاعتهم، ولا تضره معصيتهم.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾.

بيان الآيتين:

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ أي: إن للذين ظلموا من قومك نصيباً من العذاب مثل نصيب من سبقهم من الأمم المكذبة لرسولها ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: لا يستعجلوا العذاب، فإنه آتٍ لا محالة ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ويل - وهو واد في جهنم - للذين كفروا بالبعث، وبما جاءهم من البينات ﴿مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي: ويل لهم من العذاب الذي وعدهم الله به يوم القيامة.

أحكام وفوائد الآيتين:

- التهديد والوعيد للمكذبين لرسول الله، وأنه سوف يصيبهم من العذاب مثل ما أصاب من الأمم إذا لم يتوبوا إلى الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الطور

مكية، وآياتها تسع وأربعون آية

﴿وَالْطُّورِ ١﴾ وَكِتَبَ مَسْطُورٍ ٢ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ٣ وَالْبَيْتِ
الْمَعْمُورِ ٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦ إِنَّ عَذَابَ
رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨ .

بيان الآيات:

لقد جرت حكمة الله أن يقسم بأحد مخلوقاته أو آياته؛ لتوكيد الأمر المقسم عليه في أذهانهم ومعارفهم، كالقَسَمِ بالسماء، أو بالليل، أو بالبحر؛ لأنها إما مخلوقات أو آيات مشاهدة ومحسوسة، ولهذا أقسم بالجبل والكتاب والبحر وغيرها.

قوله: ﴿وَالْطُّورِ﴾ المراد به الجبل الذي فيه شجر، ومنه: الجبل الذي كلم الله عليه موسى.

﴿وَكِتَبٍ مَّسْطُورٍ﴾ المراد به اللوح المحفوظ، أو الكتب السماوية، ومنها: القرآن، وأخرج الطبري بسنده الحسن عن قتادة، في قوله: ﴿وَكِتَبٍ مَّسْطُورٍ﴾: «والمسطور: المكتوب» ﴿فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ﴾

أي: في جلد أو ورق ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ وهو البيت الواقع في السماء، الذي تصلي فيه الملائكة، ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ المراد به السماء.

وأخرج إسحاق بن راهويه بسند ثابت عن خالد بن عرعة عن علي بن أبي طالب أن رجلاً سألته، فقال: «أخبرني عما أسألك عنه، فقال: سل عما ينفع، ولا يضر، فقال: ما السقف المرفوع؟، قال: السماء، قال: فما البيت المعمور؟، فقال علي لأصحابه: ما تقولون؟، قالوا: هذا البيت، فقال: لا، ولكنه بيت في السماء بحيال البيت، يقال له: الضُّراح، حرمة في السماء كحرمة هذا في الأرض يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون فيه»^(١).

وأخرج مسلم بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله -ﷺ- قال: «أتيتُ بالبُرّاق، وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار، ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه»، قال: «فركبته حتى أتيت بيت المقدس»، قال: «فربطته بالحَلَقَة التي يربط به الأنبياء»، قال: «ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل -عليه

(١) إتحاف الخيرة، كتاب التفسير، سورة الطور، حديث (٢٩٥)، وأخرج الحاكم نحوه في المستدرک، (٤٨٦/٢)، وصححه، ووافقه عليه الذهبي.

السلام- بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة، ثم عرج بنا إلى السماء»، ثم ساق حديث المعراج بطوله وفيه: «فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه...»^(١).

وأخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد قوله-تعالى:-
﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ قال: «والسما» ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾
البحر المعروف، أما كونه مسجوراً فهو لأنه يوحد يوم القيامة ناراً.

وجواب القسم ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ أي: إن عذاب ربك يا نبينا محمداً واقع بالكافرين لا محالة، وليس لهم ملجأ أو مفر منه ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دَافِعٍ﴾ أي: لا أحد يستطيع دفعه عنهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بأن الله أن يقسم بمن يشاء من خلقه أو آياته، ليقرب المقسم عليه في أذهانهم، أما الخلق فيحرم عليهم أن يقسموا بغير الله، كما يقسم بعض العامة بالنبى أو جاهه، أو بولي، أو نحوه؛ لأن القسم بالنسبة للمخلوق عبادة، والعبادة لا تجوز إلا لله.

(١) صحيح مسلم، (١/١٤٥-١٤٧)، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله -ﷺ-.

- أنه ثبت علمياً أنَّ كل محيطات الأرض-بما في ذلك المحيطان المتجمدان: الشمالي والجنوبي-وأعداداً من بحارها مثل: البحر الأحمر قيعانها مسجرة بالصهارة الصخرية المنْدِفِعة بملايين الأطنان من داخل الأرض عبر شبكة الصدوع العملاقة التي تُمَرِّق الغلاف الصخري للأرض بالكامل، وتصل إلى نطاق الضعف الأرضي، وتتركز هذه الشبكة من الصدوع العملاقة أساساً في قيعان البحار والمحيطات^(١).

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ أَصَلَوْهَا فَأَصْبُرُوا أَوْ لَا تَصْبُرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾.

بيان الآيات:

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ أي: تتحرك، ويموج بعضها في بعض، وأخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد قوله-تعالى:- ﴿يَوْمَ

(١) آيات الإعجاز العلمي، الأرض في القرآن الكريم، للدكتور زغلول النجار، (ص ١٨٣-١٩٩).

تَمُورُ السَّمَاءِ مَوْرًا ﴿١٠﴾ قال: «تدور دورًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿٨﴾ أي: تزول فتصير هباءً».

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: عذاب شديد لهم في ذلك اليوم يوم القيامة، ثم وصفهم الله بأنهم كانوا في الدنيا يخوضون في الباطل، ويدفعون الحق، ويكذبون رسولهم، ويستهزئون بما جاءهم به من البينات، كما قال-تعالى:- ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾.

وقوله: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ أي: تدفعهم الزبانية إلى النار بعنف وغلظة، ويقال لهم في توبيخ وإهانة وذل: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

قوله: ﴿أَفَسِحْرُ هَٰذَا﴾ أي: يقال لهم-أيضًا- في توبيخ: أهذا الذي

ترونه سحر كما كنتم تقولون في الدنيا؟

﴿أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: لا ترونه، أو المراد: بل أنتم لم تبصروا في الدنيا بعقولكم، بل اتبعتم أهواءكم ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ أي: ادخلوا نار جهنم، وذوقوا حرها، وسواء عليكم أصبرتم على عذابها أم لم تصبروا، فأنتم فيها ولا مخرج لكم منها؟. ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يقال لهم إن

ما تلاقونه اليوم من العذاب هو جزاء كفركم بالله وآياته ورسوله.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير أحوال البعث وأحوال يوم القيامة، وما يلاقيه الكافرون من التوبيخ والإهانة والعذاب بسبب كفرهم، وتكذيبهم بالبعث، كما قال-تعالى:- ﴿رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

- الحكم بأن الجزاء من جنس العمل، كما قال-تعالى:- ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ [يونس: ٢٧].

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكِهِينَ بِمَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾

بيان الآيات:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ بعد أن بيّن الله حال المكذبين، وأن مآلهم إلى العذاب، بيّن حال المتقين، وأن مآلهم الجنات بكل نعيمها

المقيم ﴿فَلَكِيهِنَّ بِمَا آتَيْنَهُمْ رَبُّهُنَّ﴾ أي: يتفكهون بما أنعم الله عليهم في الجنة فيما لم تره عين، ولم تسمع به أذن، ولم يخطر على قلب بشر ﴿وَوَقَّيْنَهُمْ رَبُّهُمَّ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: نجاهم وحفظهم من عذاب جهنم، ثم يقال لهم في سلام: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: تمتعوا بما أنتم فيه جزاء أعمالكم الصالحة في الدنيا .

﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ أي: يجلسون على سرر منسق بعضها مع بعض، بحيث تكون متقابلة وجوههم، ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: قرَّناهم بنساء بيض حسان العيون.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير ما للمتقين عند الله من النعيم المقيم، وما يلقونه من السرور والهناء ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (٢١)
 وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ

مَكْنُونٌ ﴿٤٥﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا
 قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٤٧﴾ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السَّمُومِ
 ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ .

بيان الآيات:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ المراد بهم الذين بلغوا مرحلة الكمال في الإيمان
 ﴿وَاتَّبَعْتَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ بِإِيمَانٍ﴾ إلا أنهم لم يكونوا في درجة إيمان
 آبائهم، فيلحق الله الذرية بالآباء، كما قال-تعالى-: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ
 ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وقيل: قد يكون الأبناء أرفع درجة من الآباء، فيلحق الله
 الآباء بهم؛ لأنهم يدخلون في معنى الذرية، كما قال-تعالى-: ﴿وَعَايَةُ
 لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١]، والمراد: أن
 الله-ﷻ- يقر عيون الآباء بذريتهم؛ لكي تكتمل فرحتهم في الجنة.

﴿وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ما نقصنا عمل أيٍّ
 منهم، فلم ينقص عمل الآباء لما ألحق بهم أبناؤهم الصغار، ولم ينقص
 عمل الأبناء لما ألحق بهم الآباء.

﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي: أن كل امرئ مرتهن بعمله،
 فيجازى عليه يوم القيامة جزاءً من جنسه، إلا أن الله يمن برحمته

وفضله على الآباء، فيُلحق أبناءهم بهم، كما يتفضل على الأبناء فيُلحق آباءهم بهم.

﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ﴾ المراد بهم الآباء والأبناء ﴿بِفَلَكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ هذا بالنسبة لطعامهم، أما بالنسبة لشرابهم فهو قوله- تعالى:- ﴿يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيَةٌ﴾ أي: يشربون في الجنة خمراً ليست كخمر الدنيا، فليس فيها كلام فاحش، ولا عمل إثم.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ﴾ أي: يطوف عليهم خدمهم ﴿كَأَنَّهُمْ لَوْلُؤُ مَكْنُونٌ﴾ أي: كأنهم في حسنهم وجمالهم مثل اللؤلؤ المستور ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: يتحدث بعضهم إلى بعض عن أحوالهم التي كانوا عليها في الدنيا.

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي: إنهم في حديثهم عن أحوالهم في الدنيا يقولون: إنا كنا خائفين من عذاب الله، ولكن الله قد مَنَّ علينا برحمته وفضله، ووقانا من عذاب النار؛ لقوله-تعالى- إخباراً عنهم: ﴿فَمَنْ أَلَّهَ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ أي: يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أي: كنا في الدنيا ندعوه،

ونستجير به من عذاب النار ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ أي: المتلطف بعباده المؤمنين، الرحيم بهم من عذابه.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير فضل الله وامتنانه على المؤمنين بأنه يلحق ذرياتهم بهم كرامة لهم، وجزاء لهم على إيمانهم، وفي الأثر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس-رضي الله عنهما-: «إن الله-ﷻ- ليرفع ذرية المؤمن في درجته، وإن كانوا دونه في العمل؛ لتقر بهم عينه، ثم قرأ قول الله- تعالى:- ﴿وَاتَّبَعْتُهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾»^(١).

- الحكم بأن كل إنسان مرتهن بعمله يوم القيامة، ولكن الله يتفضل على عباده المؤمنين، فيلحق ذريتهم بهم، ولو لم يكونوا على درجاتهم في أعمالهم.

- بيان أن خمر الآخرة مختلفة عن خمر الدنيا، وإن تشابهت الأسماء.

- أن على المرء أن يخشى الله، ويشفق في الدنيا خوفاً من عذاب الله ونقمته.

- وجوب دعاء المسلم ربه، كما أمره بذلك في قوله-ﷻ-: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره، (رقم ٣٠٠٩).

عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ [غافر: ٦٠].

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ ﴿٦١﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ﴿٦٢﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَرِبِينَ ﴿٦٣﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلُمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٦٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٥﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٦٦﴾ .

بيان الآيات:

لما بين الله -ﷻ- أحوال المكذبين لما جاء به رسوله، وما لهم من العذاب، وأحوال المصدقين به، وما لهم من الثواب، أمر رسوله أن يبلغ الرسالة التي أمره بتبليغها إلى خلقه، مكذباً ما اتهمه به قومه من الكهانة والجنون، فقال: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أي: لست بكاهن كما يقول كفرة قريش، ولست بمجنون كما يقولون كذباً وبهتاناً .

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ أي: يقول كفار قريش: إن محمداً شاعر ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾ .

وثبت عن ابن عباس أنهم لما اجتمعوا في دار الندوة للتشاور في أمر

رسول الله - ﷺ - قال قائل من بني عبد الدار الذين يصفونه بأنه شاعر: احتبسوه في وثاق، وتربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من سبقه من الشعراء، مثل: النابغة وزهير، وإن أباه مات شاباً، فربما يموت كما مات أبوه، فأنزل الله هذه الآية.

﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ أي: قل لهم يا نبينا محمداً: انتظروا، فإنني معكم من المتربصين أي: من المنتظرين أن يأتيكم العذاب، وقد صدق الله وعده، فأحاط بهم العذاب يوم بدر ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلُمُهُمْ ﴾ أي: عقولهم ﴿ بِهِذًا ﴾ الكذب ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أي: بل هم قوم كفروا بالله، وطفغوا، وعتوا.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴾ أي: يقولون: اختلقه من نفسه ﴿ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: هم قوم ضالون، معاندون لله ورسوله ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ أي: ليأتوا بكتاب مثل ما جاء به محمد ﴿ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ في أنه افتراه.

أحكام وفوائد الآيات:

- وجوب تذكير عباد الله، ووعظهم بكتاب الله، وسنة رسوله محمد - ﷺ -، وهذا واجب العلماء والدعاة؛ لكونهم ورثوا مهمة رسول الله ﷺ في التذكير والدعوة والوعظ.

- تحريم الكهانة التي تتم عن طريق الرّئي من الجن حين يأتي أصحابه بالكذب عن خبر السماء.

- تحريم الطغيان؛ لأنه من أوامر الشيطان وضلاله، وفي هذا قال- تعالى:- ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال- تعالى:- ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

- تحريم الكذب على الله أو على رسوله، وفي هذا قال- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ ١١٦ ﴿مَتَّعْ قَلِيلًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ١١٧ [النحل: ١١٦ - ١١٧].

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ ٣٥ ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ ٣٦ ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ﴾ ٣٧ ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ٣٨ ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ ٣٩ ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ ٤٠ ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ ٤١ ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ ٤٢ ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ

اللَّهُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾

بيان الآيات:

بعد أن بيّن الله كذب المشركين فيما قالوه عن رسول الله - ﷺ - بدأ في توبيخهم، فقال - ﷻ -: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي: هل خلقوا من غير أن يخلقهم خالق؟ .

﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أم هم الذين خلقوا أنفسهم؟، والجواب: أنه لا هذا ولا هذا، بل إن خالقهم هو الله الذي لا خالق غيره ﴿أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ﴾ أي: هل هم الذين خلقوا السماوات والأرض؟، والجواب بالنفي؛ لأنه لا خالق إلا الله ﴿بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ لأنهم جهلة وضلال، أغواهم الشيطان عن اليقين.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ أي: هل عند هؤلاء المشركين خزائن الله؟ ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيِّطُونَ﴾ الغالبون على الكون، فهؤلاء أبعد ما يكونون عن ذلك؛ لأن الله هو المالك والمتصرف وحده، وعنده خزائن السماوات والأرض ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي: هل لهم مرقى إلى السماء يصعدون فيه؟ ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: إن كان ذلك لهم فليأت من استمع منهم بحجة تبين

صدقه ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ أي: هل لله-تعالى-البَنَاتُ، ولهم البنون؟، وهذا رد على كذبهم وفجورهم حين جعلوا الملائكة بنات الله.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ أي: أتسألهم أجرًا عن تبليغك لهم الرسالة؟ ﴿فَهُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ مَُّتَقَلُّونَ﴾ أي: ستراهم متبرمين ومثقلين من أضعف شيء يطلب منهم، مع أنك يا نبينا محمدًا لم تطلب ولن تطلبَ منهم أجرًا ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ أي: ليس لهم ذلك، فهم أضعف وأقل وأصغر من أن يعلموا الغيب؛ لأنه لا يعلمه إلا الله

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي: أيريدون كيدًا لك ولرسالتك؟ ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ أي: بل هم المكيدون، وسيرجع كيدهم إليهم ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ أي: ألهم إله غير الله، حاشا وكلا، فلا إله إلا هو، وفي هذا تهديد ووعد لهم في عبادتهم للأصنام ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزه وتقدس عما يشرك به المشركون من الأصنام والأوثان.

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بأن الله-ﷻ-هو الخالق، لا خالق غيره، ولا رب سواه، وفي

حديث جبير بن مطعم -رضي الله عنه- قال: «سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقرأ في صلاة المغرب بالطور، فلما بلغ قوله -تعالى-: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ وما بعدها كاد قلبي أن يطير»^(١)، وكان جبير مشركاً، وقدم على النبي -صلى الله عليه وسلم- في وفد من أسارى بدر^(٢)، فكان سماعه لهذه الآية سبباً في دخوله الإسلام.

- بيان عجز المشركين وضعفهم، فلا هم ولا غيرهم يستطيعون مضاهاة خلق الله وقدرته، كما قال -صلى الله عليه وسلم-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الظَّالِمُ وَالْمُظْلُومُ﴾ [الحج: ٧٣].

- تقرير سفاهة المشركين وجهلهم في وصف الملائكة بأنهم بنات الله -عز وجل-.

أن كيد الكافرين يرتد إليهم، وهذا ما حصل للمشركين يوم بدر

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ ، (رقم ٤٨٥٤)، ومسلم في كتاب الصلاة، باب: القراءة في الصباح، (رقم ٤٦٣)، واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب: فداء المشركين، (رقم ٣٠٥٠).

حين قتلوا شر قتلة، وهو حكم عام لكل زمان ومكان.
 - التنقل بكلمة ﴿أَمْ﴾ في خمس عشرة آية من المعجزات
 القرآنية^(١).

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾^{٤٤}
 فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي
 عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا
 دُونَ ذَلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾.

بيان الآيات:

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾
 هذا تعريض بالمشركون، واستهجان لعنادهم وكفرهم وجهلهم،
 والمراد: أن هؤلاء لو رأوا قطعة تنزل من السماء لعذابهم فسيقولون:
 هذا سحب مركوم، سوف ينزل علينا منه المطر، وأخرج الطبري
 بسنده الحسن عن قتادة، قوله-تعالى-: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا﴾ يقول:
 «وإن يروا قطعاً» ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا﴾

(١) روح المعاني، (٢٧-٢٨/٣٩).

سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٨٨﴾ يقول-جل ثناؤه-: يقولوا لذلك الكسف من السماء

الساقط: هذا سحب مركوم، يعني بقوله (مركوم): بعضه على بعض.

﴿فَذَرَّهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ أي: دعهم يا

نبينا محمدًا في غيهم وعنادهم إلى أن يلاقوا موتهم، ثم يحاسبون على كفرهم، ويجزون عليه .

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي: في ذلك اليوم الذي

يصعقون فيه، لن يغني عنهم مكرهم ولا كيدهم ولا عنادهم من شيء.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: في ذلك اليوم لن يجدوا أحدًا ينصرهم

أو يواليهم ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: إن

للمشركين الظالمين عذابًا غير عذاب الآخرة، هو عذاب الدنيا، وذلك أن الله ابتلاهم بالسنين العجاف، ثم بالقتل في المعارك التي حدثت معهم، وفي مقدمتها معركة بدر .

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لم يكونوا يعلمون ما كان

سيحدث لهم من القتل والهلاك.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير سفاهة المشركين، وجهلهم، وعنادهم عن اتباع الحق الذي جاء به رسول الله إليهم.

- الحكم بأن الظلمة في أي زمان ومكان إذا لم يتوبوا يلاقون عذاباً في الدنيا بما يصيبهم من الكوارث والأوبئة والأمراض ونقص الثمرات، كما قال -ﷺ-: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٥٥].

﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۖ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُومِ ۖ﴾.

بيان الآيتين:

﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: اصبر يا نبينا محمداً على أذى المشركين وعنادهم، واستمر في دعوتهم إلى الله ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: في رعايتنا وحفظنا، نسمع ما تقول، ونسمع ما يقولون .

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قيل في هذا آثار كثيرة، ولعل أولها أن يقول العبد عند القيام للصلاة: سبحانك اللهم وبحمدك،

وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك^(١).

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُومِ﴾ أي: سبحه في صلاة الليل،

وعند إدبار النجوم، أي: بعد طلوع الفجر.

أحكام وفوائد الآيتين:

- وجوب الصبر على أوامر الله بالقيام بها، والصبر على تجنب نواهيه، وأمر الله لعباده بالصبر على أذى المشركين فيه فائدتان: أولاهما: احتمال توبتهم، ورجوعهم إلى الله؛ لأنه -ﷺ- يفرح بتوبة عباده حتى لا يعذبهم، الثانية: زيادة أجر رسول الله -ﷺ- وكل داعية إلى الله على ما يصيبهم من الأذى في سبيل الدعوة إلى الله.

- فضل التسبيح عند قيام المرء من نومه؛ لما رواه عبادة ابن الصامت -رضي الله عنه- أن رسول الله -ﷺ- قال: «من تَعَارَّ من الليل، فقال: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دعا استجيب، فإن تَوْضُأً قبلت صلاته»^(٢).

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: حجة من قال: لا يجهر بالبسملة، (رقم ٣٩٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التهجد، باب: فضل من دعا من الليل، (رقم ١١٥٤).

- مشروعية التسبيح عند القيام من النوم بنحو: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يُحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير، والحمد لله الذي أحيانني بعدما أماتني، وإليه النشور.

- أيضًا فضل التسبيح عند قيام المرء من مجلسه؛ لحديث أبي هريرة أن رسول الله -ﷺ- قال: «من جلس في مجلس، فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك، وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك»^(١).

- فضل التسبيح في الصلاة عند طلوع الفجر، والمراد بها: الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر؛ لحديث عائشة-رضي الله عنها- قالت: «لم يكن رسول الله -ﷺ- على شيء من النوافل أشد تعاهدًا منه على ركعتي الفجر»^(٢).

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب: ما يقول إذا قام من المجلس، (رقم ٣٤٣٣)، والإمام أحمد في مسنده، (٢٦١/١٦)، (رقم ١٠٤١٥)، وصححه الترمذي، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التهجد، باب: تعاهد ركعتي الفجر، (رقم ١١٦٣)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب: استحباب ركعتي سنة الفجر، (رقم ٧٢٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النجم

مكية، وآياتها ثنتان وستون آية

﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠﴾

بيان الآيات:

﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ﴾ هذا قسم من الله-تعالى-بالنجم إذا غاب بعد طلوعه، وقيل: المراد: الثُّرَيَّا إذا سقطت مع الفجر.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ هذا جواب القسم، وهو أن نبينا محمداً -يا قريش- ما ضل في حياته، وما غوى، فأنتم تعرفونه منذ صغره، وهو يتمتع بالصدق والنزاهة والأمانة، كما تعرفون أنه لم يرتكب غواية، ولا فسقا، ولا جهلاً في حياته.

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أي: لم يكن نطقه بالقرآن ولا بما

يعظكم ويذكركم به صادراً عن هوى، أو غرض في نفسه، أو لمصلحته.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ أي: أن ما ينطق به ما هو إلا وحي

أوحاه الله إليه به، علّمه إياه ملك ذو قوة شديد، والمراد به جبريل-

عليه السلام- الذي أمره الله أن ينزل بالوحي على رسوله محمد -صلى الله عليه وسلم-، وهو ذو

مرة، أي: سليم وقوي وذو خلق، كما قال- تعالى-: ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ

شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴿٧﴾ أي:

استقر في الأفق الأعلى ﴿٨﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٩﴾ أي: تدلى جبريل في نزوله من

الأفق، فكان: ﴿١٠﴾ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿١١﴾ أي: قدر قوسين من نبينا

محمد أو أدنى منهما، والقوس: آلة للرمى معروفة ﴿١٢﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ

عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿١٣﴾ أي: أوحى الله إلى رسوله محمد بواسطة جبريل ما

أوحاه إليه من النبوة والرسالة.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير قسم الله -عز وجل- بالنجم إذا هوى.
- تقرير أمانة رسول الله محمد -صلى الله عليه وسلم- وبعده عن الهوى.
- إثبات رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام على حقيقته مرتين. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ ﴿١٠﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ

عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿١٠﴾ قال: إِنَّهُ رَأَى جَبْرِيلَ لَهُ سِتْمَةٌ جَنَاحٍ^(١).

- أن ما يقوله-عليه الصلاة والسلام-وحي يوحيه الله إليه.

- إثبات رؤيته لجبريل-عليه السلام-.

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ﴿١١﴾ أَفْتُمَرُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ

رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى

﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴿١٧﴾ لَقَدْ

رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾

بيان الآيات:

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ أي: ما كذب فؤاد محمد-ﷺ- ما رآه

ببصره، وهو جبريل-عليه السلام- حين نزل عليه بالوحي من عند الله.

وقيل: المراد ما رآه رسول الله-عليه الصلاة والسلام- ليلة أُسري به

من الآيات الكونية العظيمة، ولعلَّ الأصح هو القول الأول: أنه رآه

مرتين في هيئته الأصلية: الأولى: لما كان في الأفق الأعلى، والثانية: في

(١) صحيح البخاري، (٤٧٦/٨)، كتاب التفسير، سورة النجم ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾، (رقم

٤٨٥٦)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب: في ذكر سدره المنتهى، (١/١٥٨)، (رقم ١٧٤).

السماء السابعة^(١)، بدليل ما سيأتي من قوله-تعالى-: ﴿أَفْتُمِرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ أي: تكذبونه وتجادلونه فيما رآه؟ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: رآه-كما ذكر- في السماء السابعة حين عرج به إلى السماء.

﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ وهذه شجرة عظيمة في السماء السابعة، ينتهي إليها ما يعرج به من الأرض، فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها، فيقبض منها.

وقيل: المراد: ينتهي علم الأنبياء أو علم الخلائق إليها، ويعزب علمهم عما وراءها^(٢).

﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ أي: عند هذه السدرة جنة المأوى التي يتطلع لها المتقون والشهداء والصالحون ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ أي: يغشاها نور الله وضياؤه، فتكون نورًا على نور، وعن عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قال:

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾، (رقم ٤٨٥٥) ومسلم في كتاب الإيمان، باب: معنى قول الله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، (رقم ١٧٣).

(٢) تفسير الطبري، (٣٣/٢٢).

«فَرَأَىٰ مِنْ زَاهِبٍ، قَالَ: فَأَعْطَىٰ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَاةَ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا الْمُقَحَّمَاتِ»^(١).

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ أي: ما مال بصر رسول الله يميناً ولا شمالاً حين عرج به إلى السماء، ولم يتجاوز الحد، بل رأى ما أمر أن يراه، وهذا من حسن أدبه-عليه الصلاة والسلام-.

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ أي: رأى جبريل على صورته الطبيعية التي له فيها ستمئة جناح، ورأى في ذلك المقام العظيم عجائب قدرة ربه، وعظيم آياته في ملكوت لا يوصف بوصف، أو يحدد بعلم؛ إذ لا يعلمه إلا الله-المتعالى- في ملكه وسلطانه، وعن عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ قال: «رأى رفرفاً أخضر قد سدَّ الأفق»^(٢).

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير رؤية رسول الله -ﷺ- لجبريل في هيئته الطبيعية، وهي

(١) صحيح مسلم، (١/١٥٧)، كتاب الإيمان، باب في ذكر سدره المنتهى، (رقم ١٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، (٨/٤٧٧)، سورة النجم، باب الآية، (رقم ٤٨٥٨).

ستمئة جناح مرتين: الأولى: حين نزل عليه بالوحي كما ذكر،
والثانية: حين رآه في السماء السابعة.

- أن سدرة المنتهى شجرة عظيمة ينتهي عندها علوم الخلائق.
- الحكم بوقوع حادثة الإسراء حين عرج برسول الله - ﷺ - إلى السماء، فرأى فيها آيات الله العظيمة، وفيها وجوب التصديق بهذه الحادثة، فمن كذبها، وشكك فيها، فقد كفر؛ لأن الله أخبر عنها بقوله - ﷻ -: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ عَائِتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، كما أخبر عنها رسول الله مما هو معلوم من سنته - عليه الصلاة والسلام -.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنُوءَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ
الدَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ
سَمِيتُمُوهَا أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ
إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِّن رَّبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾ أَمْ
لِلْإِنْسَنِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي
السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِّنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن

يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴿٣٦﴾ .

بيان الآيات:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿٣٦﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ﴾ لما نزه الله

رسوله محمداً - ﷺ - عن كذب المشركين، وبَيَّنَّ أن ما كان يقوله إنما هو وحي يوحيه إليه، خاطب المشركين موبخاً لهم على صنيعهم، وعبادتهم للأصنام، والمراد: هل أوحى لكم هذه الآلهة التي تعبدونها شيئاً كما يوحى إلى محمد؟، وأخرج الطبري بسند حسن عن قتادة ﴿وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ﴾ قال: «أما مناة فكانت بقديد، آلهة كانوا يعبدونها، يعني: اللات والعزى ومناة».

﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ أي: أترضون لأنفسكم الذكور؛

لأنكم تحبونهم، وتجعلون الإناث لله؛ لأنكم تكرهونهن، تعالى الله عما يقول ويفعل الظالمون علواً كبيراً.

﴿تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ أي: قسمة جائرة وظالمة لو كانت بين

مخلوق وآخر، فكيف إذا كانت مع ربكم الذي خلقكم من العدم، وورزقكم، وأنعم عليكم بنعمه الظاهرة والباطنة؟.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا

مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴿٤٩٩﴾ أي: إنكم سميتم أنتم وآباؤكم هذه الأصنام بأسماء من عندكم، فعبدتموها، ولم يكن لكم في ذلك حجة ولا برهان من كتاب ولا من رسول، وإنما أنتم بعبادتكم لهذه الأصنام إنما تتبعون الظن الذي لا حقيقة له، كما تتبعون هوى أنفسكم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ أي: جاء كتاب الله ورسوله مبيناً لهم طريق الهدى من الضلال، والحق من الباطل، فاتبعوا الباطل، فعبدوا الأصنام.

﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ هذا استفهام إنكاري، والمعنى: ليس كل ما يتمناه الإنسان يدركه.

﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ أي: أن الأمر كله لله، فهو الذي يتصرف في خلقه بحكمته.

﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ أي: كم من الملائكة المقربين من الله لا تغني شفاعتهم لأحد إلا من بعد أن يأذن الله لهم في الشفاعة، فلما كان هذا حال الملائكة، فكيف تعتقدون أن هذه الأصنام الصماء

من الأخشاب والحجارة تشفع لكم عند الله، فما يفعل ذلك إلا الحمقى والجهلة مثلكم.

أحكام وفوائد الآيات:

- التنديد بالمشركين الذين يعبدون الأصنام؛ مما يدل على حماقتهم وجهلهم؛ لأنهم يعرفون أن هذه الأصنام أحجار وأخشاب صماء.
- عن ابن عباس-رضي الله عنهما- في قوله: ﴿الَّتِ وَالْعُزَّى﴾: «كان اللات رجلاً يُلْتُ سَوِيقَ الْحَاجِّ»^(١).
- عن خالد بن الوليد-رضي الله عنه- أنه أتى العُزَّى لتدميرها، فإذا هي امرأة ناشرةٌ شَعْرَهَا، تحتفن التراب على رأسها، فعممها بالسيف حتى قتلها، ثم رَجَعَ إلى النبي -ﷺ-، فأخبره، فقال: «تلك العُزَّى»^(٢).
- أن المشركين عبدوا هذه الأصنام تقليدًا لأبائهم دون أن يكون لهم دليل نقلي أو عقلي، بل كانت عبادتهم لها مجرد هوى، وظن بأنها سوف تشفع لهم عند الله، مع أن الله قد بيّن لهم في كتابه وعلى لسان رسوله أنه لا معبود بحق إلا هو، وأن عبادة غيره محرمة،

(١) صحيح البخاري، (٤٧٨/٨)، كتاب التفسير، سورة النجم، باب (الآية)، (رقم ٤٨٥٩).

(٢) التفسير، (٣٥٧-٣٥٩)، (رقم ٥٦٧)، وأخرجه-أيضاً-أبو يعلى في مسنده (١٩٦/٢)، (رقم ٩٠٢)، وقال محقق النسائي: «إسناده حسن»، وقال محقق مسند أبي يعلى: «إسناده صحيح».

وتؤول بصاحبها إلى العذاب السرمدي.

- أن الإنسان لا يحصل على كل ما يتمناه، كما قال-تعالى:- ﴿لَيْسَ

بَأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا

يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

- أن الدنيا والآخرة ملك لله-تعالى-، فمن طلبهما من دون مالهما

فقد خسر خسراناً مبيناً.

- أنه لا أحد من ملك مقرب، أو نبي مرسل يستطيع أن يشفع لأحد

إلا بعد رضا الله، كما قال-ﷺ:- ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا

بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ

وَهُمْ مِّنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

- أن كل شفاعة تُرجى لا تحقق شيئاً إلا بتوافر شرطين: الأول: أن

يأذن الله للشافع في الشفاعه، الثاني: أن يكون الله قد رضي

للمشفوع له بالشفاعة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً

الأنثى ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا

يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴿٢٨﴾ فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ

إِلَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴿٤٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ
بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن أَهْتَدَى ﴿٥٠﴾ .

بيان الآيات:

ما زال السياق في ذكر طغيان المشركين وضلالهم، فقال -عزَّ ذكره-:
﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يعني: المنكرين للبعث، المكذبين
به.

﴿لَيَسْمُنَ الْمَلَائِكَةُ تَسْمِيَةً الْأُنثَى﴾ أي: جعلوا الملائكة بنات
الله -تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً-، وما كان صنيعهم هذا إلا
لأنهم أنكروا البعث، فلو آمنوا به لعلموا أنهم سوف يحاسبون على
أفعالهم، ويجزون عليها، وقد توعدهم الله بقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ
الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَدَتُهُمْ
وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: ليس لهم حجة ولا برهان، بل هو
كفر وطغيان ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ
شَيْئًا﴾ أي: ليس لهم في زعمهم وضلالهم وقولهم الباطل من حجة إلا
الظن، وهو أكذب الحديث ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أي:

أعرض عن الذي جاءه الحق، وكفر به متبعاً لهواه.

﴿وَلَمْ يَرِدْ إِلَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: لم يكن همه إلا الدنيا، والسعي فيها، وحبها بعد أن ضل في تفكيره، فأنكر الآخرة. ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ﴾ أي: إن رغبتهم ومسعاهم وغاية حبهم هو طلب الدنيا، والتمتع فيها.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن أَهْتَدَى﴾ أي: إن ربك يا نبينا محمداً هو العليم بأحوال خلقه، ومن يضل منهم عن الحق، ومن يهتدي منهم إليه، فكل ذلك في علمه، وسوف يحاسب كلًّا بما عمل من خير أو شر.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن من لا يؤمن باليوم الآخر، وما أعده الله فيه للمتقين الأبرار سوف يرتكب كل أنواع الضلال والفساد، كما كان المشركون يسمون الملائكة بنات الله -تعالى الله عن قولهم-.
- أن من الجهل وفساد العقول القول بالظن، والبعد عن الأدلة والبراهين الشرعية.
- التنديد والوعيد لمن يعرض عن كتاب الله، ويجعل الدنيا هدفه ومبتغاه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (٣٢).

بيان الآيتين:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا بيان من الله -ﷻ- أنه مالك السماوات والأرض المتصرف فيهما بحكمته وعدله ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: يجزيهم من جنس عملهم؛ لأنهم أساءوا إلى أنفسهم، وظلموها ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ وهذا غاية العدل، فمن عمل خيراً فجزاؤه مثل عمله.

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ هذا بيان للمحسنين بأنهم اجتنبوا الكبائر المحرمة، وزكوا أنفسهم، وطهروها بالإيمان والخشية من الله، فلم يشركوا، ولم يقتلوا، ولم يزنوا، ولم يقطعوا رحماً، ولم يفسدوا في الأرض ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ المراد بها: صغائر الذنوب؛ ذلك أن الله واسع المغفرة، يتجاوز عن ذنوب عباده إذا عرف

توبتهم وصلاحهم، كما قال -ﷺ-: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾.

وأخرج الطبري بسند صحيح عن ابن عباس-رضي الله عنهما-: ﴿إِلَّا أَلَلَّمَّ﴾ قال: «هو الرجل يُلَمُّ بالفاحشة، ثم يتوب».

قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: هو عليم بكم وبأفعالكم منذ أن خلق أباكم آدم من الطين.

﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ هو أعلم بكم من أنفسكم منذ أن كنتم نطفًا ومضغًا في أرحام أمهاتكم، لا تعرفون ولا تعلمون شيئًا ﴿فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لا تمتدحوها، وتطهروها ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَتَقَى﴾ أي: هو أعلم بمن كان تقياً مخلصاً في عبادته، مؤتمراً بما أمره الله به، ومنتهياً عما نهاه عنه.

أحكام وفوائد الآيتين:

- الحكم بأن الله ما في السماوات والأرض وما بينهما، وأنه المتصرف والمدبر فيهما بإرادته وحكمته وعدله، كما قال-تعالى-: ﴿لَا يُشْرُ

عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُشْرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

- تقرير قاعدة أن الجزاء يكون من جنس العمل، كما قال-تعالى-: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، وقال-جلّ وعلا-في

الحديث القدسي: «إنما هي أعمالكم، أحصيتها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه»^(١).

- أن في قوله-تعالى:- ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ الآية (٣١) وقفاً نبوياً، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

- أنه استُدلَّ بالآية: ﴿الَّذِينَ يَحْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ على تكفير الصغائر باجتنب الكبائر، كما قال-تعالى:-
﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].

- أن الله يتجاوز عن اللمم، وهو صغائر ذنوب عباده إذا اجتنبوا كبائرهما، وفي حديث أبي هريرة-رضي الله عنه- عن رسول الله-ﷺ قال: «كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا، مدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطأ، والقلب يهوى ويتمنى،

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب: تحريم الظلم، (رقم ٢٥٧٧).

ويصدق ذلك الفرج ويكذبه»^(١)، وقيل: إن المراد باللمم هو التوبة بعد ارتكاب الفاحشة، بدليل قول الله-تعالى:- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥ - ١٣٦].

- تحريم تزكية النفس؛ لأن الله هو العالم بالنفس وخفاياها، فلا يزكيها إلا هو، كما قال-تعالى:- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩]، وفي حديث عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال: إن رجلاً ذكر عند النبي، فأثنى عليه رجل خيراً، فقال-ﷺ:- «ويحك! قطعت عنق صاحبك -يقوله مراراً-، إن كان أحدكم مادحاً-لا محالة-فليقل: أحسب كذا وكذا، إن كان يرى أنه كذلك، والله حسيبه، ولا يزكى على الله أحداً»^(٢).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاستئذان، باب: زنا الجوارح دون الفرج، (رقم ٦٢٤٣)، ومسلم في

كتاب القدر، باب: قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره، (رقم ٢٦٥٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب: ما يكره من التمداح، (رقم ٦٠٦١)، ومسلم في كتاب

الزهد والرقائق، باب: النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط، (رقم ٣٠٠٠).

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُد
 عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾
 وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَّيْسَ
 لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ
 الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان قد اتبع
 رسول الله - ﷺ -، فسخر منه بعض المشركين، وقالوا: لم تركت دين
 آبائك وضللتهم، وزعمت أنهم في النار؟، فقال: إني خشيت عذاب الله،
 فضمن له أحد شياطين المشركين أن يتحمل عنه العذاب إذا أعطاه
 شيئاً من ماله، ورجع إلى شركه، فأعطاه ما طلبه، ثم منعه إياه، فأنزل
 الله فيه هذه الآية^(١).

والمراد: أنه تولى، وأعرض عن الحق بعد أن كاد يسلم.

﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ أي: أعطى قليلاً من المال للذي
 عرض عليه تحمل العذاب عنه، وأكدى أي: قطع عطيته بخلاً

(١) أسباب نزول القرآن للواحي، (ص ٦٣٠)، وتفسير البغوي، (ص ١٢٤٨).

وشحًا، كما أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال:
﴿وَأَكْذَى﴾ أي: «بخل، وانقطع عطاؤه».

﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ أي: أكان يعلم علم الغيب
بأن أحدًا سوف يتحمل عذاب غيره يوم القيامة؟، وهذا سؤال
إنكاري؛ لأنه لا أحد يتحمل إلا وزره، وما كان قبول الوليد بن
المغيرة بما عرضه عليه المشرك إلا دليلًا على عمق الجهل المترسب في
عقول المشركين.

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ أي: ألم يعرف هذا
الجاهلي المشرك ما ورد في صحف موسى، وهي التوراة ﴿وَأِبْرَاهِيمَ
الَّذِي وَفَّى﴾ أخرج الطبري بسند صحيح عن قتادة قال: «وفى طاعة
الله، وبلغ رسالات ربه إلى خلقه».

والمراد: ألم يعلم كذلك هذا الجاهلي المشرك ما قام به إبراهيم
تجاه ربه من طاعته، واستسلامه لأمره، وأن ما ورد في صحفه
وصحف موسى هو .

﴿أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي: لا تتحمل نفس ذنب نفس
أخرى، وإنما توفي كل نفس ما كسبت.

﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَنِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ أي: ليس لأي إنسان إلا

عمله الصالح الذي سعى إليه، وبذل فيه جهده، سواءً أكان علمًا علمه، أم صدقة تصدق بها، أم ولدًا صالحًا خلفه، فدعا له، وأخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قوله: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَنِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ قال: «فأنزل الله بعد هذا: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] فأدخل الأبناء بصلاح الآباء الجنة».

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ أي: أن سعيه الذي سعاه في الدنيا سوف يرى يوم القيامة ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾ أي: سوف يجزى على عمله حسبما هو، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن كل نفس تجزى بما كسبت، وهذا يقتضي أن أحدًا لا يتحمل ذنب أحد، كما قال-تعالى-: ﴿وَأَنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يُمْحَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

- أنه ليس للإنسان إلا سعيه أي: عمله، فكما أنه لا يتحمل ذنب غيره، فلا يحصل له من الثواب إلا ما كسبه، ولا تعارض بين

هذا وبين قول رسول الله - ﷺ -: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(١)؛ وذلك لأن كل هذا من كسبه، فعلمه من كسبه، وصدقته من كسبه، وولده كذلك، وفي هذا قال رسول الله - ﷺ -: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولد الرجل من كسبه»^(٢).

- أن عمل الإنسان وسعيه في الدنيا سوف يكشف يوم القيامة، وفي هذا قال-تعالى-: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ ٤٢ ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ ٤٣
﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا﴾ ٤٤ ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ ٤٥

(١) أخرجه مسلم في كتاب الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، (رقم ١٦٣١).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الإمارة، باب: في الرجل يأكل من مال ولده، (رقم ٣٥٢٨)، والنسائي في

كتاب البيوع، باب: الحث على الكسب، (رقم ٤٤٦١)، وابن ماجه في كتاب التجارات، باب: الحث

على المكاسب، (رقم ٢١٣٧)، وصححه الألباني كما في صحيح سنن أبي داود.

مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ
 أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ السَّعَرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ رَٰهْلَكْ عَادًا
 الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَتَمُودًا فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ
 أَظْلَمَ وَأَطْعَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ
 ءَالَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ .

بيان الآيات:

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ أي: إليه معاد الخلائق كلها، لا
 محالة ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ أي: جعل في عباده
 الضحك والبكاء ومسبباتهما، فالعبد يضحك لسرور نزل به
 من مال، أو ولد، أو راحة في نفسه، ويبكي لما قد ينزل به من
 النوائب والهموم، كفراق الأحبة، وقد يبكي من المرض،
 والخشية من العذاب.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أي: هو الذي خلق الحياة، وخلق
 الموت، وقدرهما بآجال معلومة ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ
 وَالْأُنثَىٰ﴾ أي: خلق الذكر والأنثى؛ ليحصل التناسل بينهما

﴿مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ أي: من قطرة المني التي تتلاقح من الزوجين.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى﴾ أي: هو الذي بقدرته وإرادته يحيي الخلائق بعد موتهم؛ ليقوموا بين يديه يوم القيامة للحساب والجزاء .

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أي: أغنى عباده بما يسره لهم من أسباب الكسب والرزق، وأقناهم أي: أنعم عليهم من أنواع الرزق بما يكونون به مقتنين للمال، وأخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ يقول: «أعطاه، وأرضاه»^(١).

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ﴾ وهو الكوكب المضيء الذي يطلع بعد الجوزاء، وكان هذا الكوكب معظمًا عند العرب في الجاهلية يعبدونه، فبَيَّنَّ-تعالى-أن الشعرى مخلوق، وأنه هو الذي خلقه وغيره من الكواكب.

(١) رواه البخاري تعليقاً بصيغة الجزم، ينظر: الفتح، (٦٠٤/٨).

﴿وَأَنَّهُ زَٰهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ أي: أهلك عادًا قوم هود، فهي

الأولى في الهلاك قبل ثمود، وقد أهلكها الله بالريح الصرصر

﴿وَتَمُودًا فَمَا أَبْقَى﴾ وهم قوم صالح، وقد أهلكهم الله

بالصيحة الشديدة ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: أهلك قوم نوح

قبل هلاك عاد وثمود.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمُ وَأَطْعَى﴾ أي: كانوا أشد كفرًا وتمردًا

من الذين أتوا بعدهم من الأمم، حيث طالت مدة نوح فيهم،

فلم يزددهم ذلك إلا تكبرًا وطغيانًا، حتى قيل: إن الرجل منهم

كان ينطلق بابنه إلى نوح، فيقول له: احذر هذا الرجل، فإنه

كذاب.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ المراد بهم: قوم لوط اتتفكت بهم مدنهم،

أي: انقلبت عليهم حين رفعها جبريل إلى السماء، ثم هوت، فصار

عاليها سافلها، كما أخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد قال:

«أهواها جبريل، قال: رفعها إلى السماء ثم أهواها».

﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾ أي: أرسل لها من الحجارة ما أرسل، كما

أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال: «غشاها صخرًا منضودًا».

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ أي: فبأي نعم ربك تتمري أيها الإنسان؟.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن المصير والمنتهى إلى الله يوم القيامة.
- بيان مظاهر قدرة الله وعظمته في خلق أسباب الضحك والبكاء، والموت والحياة، وخلق الزوجين من نطفة صغيرة، وإحياء الخلائق بعد موتهم، وأنه رب كل شيء ومليكه، وأن الأفلاك كلها مربوبة.
- بيان قدرة الله وعدله في خلقه، حين أهلك الطغاة من الأمم الذين كذبوا رسلهم.

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى﴾ ﴿٥٦﴾ أَرِيتِ الْأَرْزَقَ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾ .

بيان الآيات:

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى﴾ أي: هذا النبي والرسول محمد هو نذير مثله مثل الرسل المنذرين قومهم من الضلال،

كما في قوله -تعالى-: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

﴿أَزِفَتِ الْأَرْفَةُ﴾ أي: قربت القيامة، كما أخرج الفريابي بسند

صحيح عن مجاهد قال: «اقتربت الساعة»^(١).

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: لن يدفعها أحد إذا

حلَّ أجلها، وستبقى في علم الله وحده، لا يعلمها إلا هو.

﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ في هذا إنكار ووعيد

للمشركين، والمراد: أنكم من القرآن تعجبون، أي: تكذبون به

﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاء وسخرية منه ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾

خوفاً مما ورد فيه من الوعيد بالعذاب الذي سيحقيق بكم إذا لم

تتوبوا من ضلالكم وشرككم.

﴿وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ﴾ أي: غافلون ومعرضون عما جاءكم من الحق

والهدى، كما أخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله

عنهما-قال: ﴿سَمِيدُونَ﴾: «لا هون».

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ أي: اخضعوا له جزاء فضله،

(١) تغليق التعليق، (٤/٣٢٢).

وانقادوا لطاعته، ووجدوه في عبادته، واشكروه على نعمه.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن رسول الله - ﷺ - أحد الرسل المنذرين لأممهم وأقوامهم، كما قال - عليه الصلاة والسلام - : «وإني أنا النذير العريان»^(١).

- قرب قيام الساعة، كما قال - تعالى - : ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، وقال: ﴿أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

- ذم كثرة الضحك الذي يغفل به القلب عن الذكر، وقد روي أن رسول الله - ﷺ - لم يضحك بعد نزول هذه الآية، وإنما كان يتبسم، وفي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - : أنه لما نزل قول الله: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۖ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ قال أهل الصفة: إنا لله، وإنا إليه راجعون، ثم بكوا حتى جرت دموعهم على خدودهم، فلما سمع رسول الله - ﷺ -

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: الانتهاء عن المعاصي، (رقم ٦٤٨٢)، ومسلم في كتاب

الفضائل، باب: شفقتة - ﷺ - على أمته، (رقم ٢٢٨٣).

بكاءهم بكى معهم، فبكينا لبكائه، فقال-عليه الصلاة والسلام-: «لا يلج النار من بكى من خشية الله، ولا يدخل الجنة مصرً على معصية الله، ولو لم تذنبا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم، ويرحمهم، إنه هو الغفور الرحيم»^(١).

- أنه يشرع السجود عند تلاوة آية السجدة، وفي حديث ابن عباس-رضي الله عنهما-: «أن رسول الله ﷺ-سجد بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس»^(٢).
- مشروعية السجود عند تلاوة هذه الآية لِمَنْ يتلوها، وَلِمَنْ يستمع لها، وهي من عزائم السجرات في القرآن الكريم، ومن خصائص هذه السجدة: أَنَّ المشركين سجدوها مع رسول الله ﷺ-حول الكعبة.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (رقم ٧٧٧) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب سجود القرآن، باب: سجود المسلمين مع المشركين، (رقم ١٠٧١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القمر

مكية، وآياتها خمس وخمسون آية

﴿أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِنْ يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ۝ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌ بَلِیْغَةٌ ۝ فَمَا تُغْنِ الْتُذُرُ ۝﴾.

بيان الآيات:

﴿أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ هذا بيان من الله أن الساعة قد اقتربت، وأن الدنيا سوف تنتهي قريباً، ومن دلائل ذلك: بعثة رسول الله - ﷺ -، وانشقاق القمر معجزة له؛ ذلك أن أهل مكة سألوا رسول الله - ﷺ - أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما^(١)، فلم يؤمنوا، بل قالوا: سحرنا محمد^(٢).

(١) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، (رقم ٣٨٦٨)، ومسلم في كتاب صفة القيامة، باب: انشقاق القمر، (رقم ٢٨٠٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير، باب: ومن سورة القمر، (رقم ٣٢٨٩)، وصححه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي.

وفي هذا قال-تعالى:- ﴿وَإِنْ يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: هذا سحر باطل، سحرنا به محمد، وليس حقيقة.

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: كذبوا ما جاءهم من الحق، واتبعوا في تكذيبهم ما أمرتهم به نفوسهم.

﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي: كل أمر واقع بأهله، إن كان خيراً فهو خير لهم، وإن كان شراً فهو شر لهم؛ كما أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال: «بأهل الخير الخير، وبأهل الشر الشر».

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأُنْبَاءِ﴾ أي: جاءهم من أخبار الأمم السابقة وقصصها، وما حل بها من العذاب حين كذبت رسلها .

﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي: موعظة وعبرة لهؤلاء المشركين، تزجرهم عن الكفر، لو كانوا يتدبرون القرآن ويعقلون .

﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ﴾ أي: إن هذا القرآن حكمة بالغة لمن أراد أن يهتدي بما فيه، ويسلم من الضلال .

﴿فَمَا تُغْنِ الْأُنذُرُ﴾ أي: ما تغني النذر لقوم يكذبون آيات الله، وما جاء به رسوله، ويصرون على هذا التكذيب.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الساعة قد اقتربت، وأنها قائمة لا محالة، كما قال-تعالى:-

﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

- تَوَصَّل العلماء إلى حقيقة علمية، وهي: أن القمر كان قد انشق في

يوم من الأيام، ثم التحم، بدليل وجود تمرُّقات طويلة جدًا،

وغائرة في جسم القمر، تتراوح أعماقها بين عدة مئات من الأمتار

وأكثر من الكيلو متر، وأعراضها بين نصف الكيلو متر وخمسة

كيلو مترات، وتمتد إلى مئات من الكيلو مترات في خطوط

مستقيمة أو متعرجة، ويزيد قطرها على الألف كيلو متر، ومن

أمثلتها: الحفرة العميقة المعروفة باسم بحر الشرق (Mare

Orientalis)، ومن هنا فقد فُسِّرَت على أَنَّها من آثار انشقاق

القمر، وإعادة التحامه^(١).

- بيان بعض علامات الساعة، ومنها: البعثة النبوية؛ لقول رسول

الله -ﷺ-: «بعثت الساعة كهاتين»^(٢)، ومن علامات الساعة:

(١) آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم، للدكتور زغلول النجار، (٥٣٧-٥٤٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب: قول النبي -ﷺ-: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، (رقم

٦٥٠٤)، ومسلم في كتاب الفتن، باب: قرب الساعة، (رقم ٢٩٥١).

انشقاق القمر، حيث انشق على عهد رسول الله ﷺ - فلقتين، فرآه أهل مكة كما رغبوا أن يروه، ومع ذلك لم يصدقوا، بل قالوا: هذا سحر.

- تحريم اتباع الهوى إذ إن من أخطر ما يصاب به المرء اتباعه لهواه، كما قال-تعالى:- ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

- أن النذر لا تنفع الذين يتبعون أهواءهم، ويصرون على كفرهم؛ لأن قلوبهم قد انطبعت بسبب هذا الكفر على دفع الحق، واتباع الباطل.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾ ٦ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ٧ مَّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ٨﴾.

بيان الآيات:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض يا نبينا محمداً عن هؤلاء الذين كذبوا بالآية، واتركهم لحكم الله فيهم ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾ أي: إلى ذلك اليوم الذي تجتمع فيه الخلائق للحساب والجزاء،

ويرون ما فيه من الأهوال.

﴿خُشَّعًا أَبْصَرُهُمْ﴾ أي: ذليلة منكسرة في نظراتها ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي: من قبورهم .

﴿كَانَهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ أي: مثلهم في انتشارهم وذهابهم للحساب مثل الجراد الذي ينتشر في السماء .

﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ أي: مسرعين إلى داعي الله، لا يتخلفون عنه، ولا يتأخرون، وأخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما- قوله: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ يقول: «ناظرين» .

﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي: يتحدث الكافرون إلى نفوسهم وإلى أصحابهم أن هذا اليوم يوم عسير عليهم؛ لما يعرفونه من سوء أعمالهم، وكفرهم، وتكذيبهم بآيات الله.

أحكام وفوائد الآيات:

- وصف حال الخلائق يوم تقوم الساعة، فيخرجون من قبورهم أدلة أبصارهم من هول ما يرون، فينتشرون في الآفاق، متجهين إلى الله، مثلهم في ذلك مثل الجراد حين ينتشر في الأفق.
- يقول العلماء: إِنَّ سَرَبَ الجراد المهاجر يغطي مساحات من الأرض

تقدر بأكثر من ألف كيلو متر مربع، ويتراص الجراد المهاجر على ارتفاعات قريبة من سطح الأرض بكثافات تتراوح بين المليون وعشرات الملايين جرادة في الكيلو متر المربع الواحد، وتعرف باسم الأسراب الطباقية، إنه تشبيه عجيب عندما يتزاحم الناس وهم يُساقون إلى أرض المحشر، وتتحرك أسراب الجراد بانضباط شديد تحت قيادة صارمة في مقدمة السَّرب^(١).

- أن الكفرة يرون عسر ذلك اليوم عليهم، كما قال-تعالى:- ﴿فَذَلِكَ

يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٩ -

[١٠].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ
وَأَزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ
السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى
أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجِّ وَدُسِرِ ﴿١٣﴾ تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا
جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ

(١) آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم، زغلول النجار، (ص ١٨٢-١٩٦).

مُدْكِر ﴿١٧﴾.

بيان الآيات:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ هذا بيان من الله لرسوله يسليه فيه عما وجده من قومه، ويبيِّن له أن قوم نوح كذبوه من قبل حين دعاهم إلى توحيد الله، وعدم الشرك به، فاتهموه بالجنون، وزجروه، وحاربوا دعوته، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿١﴾ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرُ ﴿١٠﴾﴾ أي: دعا نوح ربه أني ضعيف، وقد تعبت من دعوتهم، فلم يستجيبوا لي، فانتصر لدينك، وقد استجاب الله دعوته بقوله: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ أي: أنزلنا المطر بغزارة.

﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي: نبعت عيونًا ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: التقى ماء المطر وماء العيون لما قدره الله أن يهلكهم بالطوفان جزاء كفرهم وتكذيبهم لنبيهم.

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ أي: حملناه ومن معه من المؤمنين في السفينة، وأخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال: «حدثنا أن دسرهما: مساميرها التي شدت بها».

﴿تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: تحت قدرتنا وحفظنا ﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: جعلنا هذا الطوفان جزاء للذين كفروا بآياتنا، وانتصاراً لنبينا نوح ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَهَا ءَايَةً﴾ أي: تركنا سفينة نوح، وقيل: الطوفان؛ ليكون في ذلك عبرة لمن يكذبون رسلهم .

﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ أي: هل من متعظ ومعتبر بما حدث لقوم نوح؟، وأخرج عبد بن حميد بسند صحيح عن قتادة: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَهَا ءَايَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ قال: أبقى الله سفينة نوح على الجودي حتى أدركها أوائل هذه الأمة»^(١).

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ هذا استفهام للتعجب، والمراد: تهديد للمشركين أن يصيبهم العذاب بسبب تكذيبهم لرسولهم .
﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي: سهلنا لفظه ومعانيه، وبيناه لمن يتذكر به ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ أي: هل من معتبر ومتعظ بما فيه من البراهين؟.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن إضافة نون العظمة في قوله-تعالى-: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾

(١) تغليق التعليق، (٤/٣٢٨).

- تفخيم لنوح-عليه السلام-، ورفع لمحله، وتشنيع لمكذبيه.
- تقرير واقعة الطوفان، وما حدث فيها من نجاة المؤمنين، وهلاك المكذبين لرسولهم نوح.
 - أن الله يستجيب دعاء المغلوبين على أمرهم؛ لضعفهم، وقلة حيلتهم، واستبداد القوي عليهم.
 - أن الله إذا أهلك قومًا ترك آية لغيرهم؛ لكي يتعظ ويعتبر بها.
 - أن الله-تعالى-يسرّ فهم القرآن، والاتعاظ به؛ لكثرة ما ضرب فيه من الأمثال البليغة.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ أي: كذبت عاد نبيها هودًا، كما كذب قوم نوح نبيهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ هذا استفهام للتعجب كما ذكر، والمراد: انظر يا نبينا محمدًا كيف أصابهم العذاب؟، وهو ما بيّنه-

تعالى-بقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: ريحًا شديدة، وأخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال: «الصرصر: الباردة».

﴿فِي يَوْمٍ نُحَسِّسُ مُسْتَمِرًّا﴾ أي: جاءتهم هذه الريح في يوم شؤم عليهم بسبب تكذيبهم لرسولهم، ثم وصف الله هذه الريح بأنها ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ أي: أنها كانت ترفع الواحد منهم، ثم تنكسه على رأسه، فيخر صريعًا على الأرض، ثم تنزع رأسه، فيبقى جثة بلا رأس، فيكون مثل قعر النخلة التي قلعت من جذرها.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ أي: انظر كيف كان العذاب الذي حلَّ بهم، وهذا تهديد للمشركين كما ذكر آنفًا ﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ أي: هل من يتدبر ويتعظ؟.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير ما حدث من العذاب لقوم عاد الذين كذبوا رسولهم هودًا، ووصف هذا العذاب بأنه استمر عليهم سبع ليال متتابعات، فكانت هذه الريح تنزع رؤوسهم، وتدخل الحصون التي تحصنوا

فيها، فتخرجهم منها، ثم تصرعهم.

- أن قوة الله غالبية على كل قوة في الوجود.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّمَّنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُوَ إِنَّا إِذَا
لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٣٤﴾ أَلُنُقِي الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ
أَشِرٌّ ﴿٣٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ﴿٣٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ
فِتْنَةً لَهُمْ فَأَرْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٣٧﴾ وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ
شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٣٨﴾ فَتَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٣٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ
الْمُحْتَضِرِ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّدْكِرٍ ﴿٤٢﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ أي: كما كذب قوم نوح، وكذبت عاد قوم هود،
كذبت ثمود - وهم أهل الحجر - نبيهم صالحًا ﴿بِالنُّذُرِ﴾ أي: كذبوا
بما أنذرهم به نبيهم صالح.

﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّمَّنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُوَ﴾ أي: كيف نتبع واحدًا مثلنا
﴿إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ أي: لو اتبعناه فإننا غير رشيدين، وغير

عقلاء ﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: أيعقل أن يوحى إليه من دوننا ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ أي: متجاوز الحد في الكذب.

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ﴾ أي: سيعلمون حين يرون العذاب الذي يحل بهم من الكذاب الأشر؟، وهذا تهديد ووعيد شديد لهم.

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي: اختباراً لهم، حيث قالوا لنبيهم صالح: إن كنت رسولاً حقاً فاسأل الله أن يخرج من هذه الصخرة في هذا الجبل ناقة، فسأل الله -كما ذكر من قبل- أن يعطيه ما سألوه، فخرجت من الصخرة ناقة عُشْرَاء، حسبما سألوا؛ لتكون حجة عليهم، ثم أمر الله رسوله صالحاً أن يراقبهم؛ ليرى ما يفعلون، وهل يؤمنون ويصدقون؟، كما قال-تعالى-: ﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ۝٢٧ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي: أخبرهم أن الماء يوم لهم ويوم للناقة ﴿كُلُّ شَرِبٍ مُّحتَضَرٌّ﴾ أي: يحضره من هو له من ثمود أو الناقة، فتحضر الناقة يوم قَسَمَها، وتغيب عنهم يوم قسمهم.

وأخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد قال: «يحضرون بهم الماء إذا غابت، وإذا جاءت حضروا اللبن».

﴿فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ أي: دعوا صاحبهم، واسمه

قدار بن سالف، وطلبوا منه أن يعقرها، ففعل.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ أي: انظر يا نبينا محمداً كيف كان

العذاب الذي حلَّ بهم بعد عقر الناقة؟، وهو ما أخبر عنه بقوله-

تعالى:- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ

الْمُحْتَظِرِ﴾ أي: صاح بهم جبريل صيحة تقطعت منها قلوبهم،

فأصبحوا مثل الهشيم المتحطم في حظيرة الماشية.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ أي: هل من متعظ

ومعتبر؟

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير أن سنة الله اقتضت أن يتعرض المكذبون لآيات الله ورسله في

كل زمان ومكان لغضب الله، ونقمته، وإهلاكهم بالعذاب.

- التعبير بلفظ (ألقي) دون (أنزل) لأنه يتضمن العجلة في الفعل.

- أن قوة الإنسان وحضارته وشدة بأسه وقوة صناعته لا تنفعه

بشيء أمام قدرة الله.

- أن الله حين يعطي الكافرين مبتغاهم في الدنيا إنما يفتنهم فيما

يعطيهم؛ ليرى ما إذا كانوا سيشكرونه أم يكفرون به؟، وعندئذ يعاملهم حسبما هم عليه من الشكر أو الكفر.

- أن من شقاوة الإنسان أن ينتهك حرمة الله، ويتعدى حدوده، كما فعل قدار بن سالف أشأم ثمود.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذُرِّ ۝٣٣ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا عَالُ لُوطٍ ۖ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ۝٣٤ نِعْمَةٌ مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ۝٣٥ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالَّذُرِّ ۝٣٦ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ۝٣٧ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ ۝٣٨ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ۝٣٩ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ ۝٤٠﴾.

بيان الآيات:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذُرِّ﴾ أي: كما كذبت الأمم من قبل كذبت قوم لوط نبيهم لوطاً، وعصوه عما نهاهم عنه من ارتكاب الفواحش المقيتة، وهي إتيان الذكور، فأرسل الله إليهم جبريل، فحمل مدائنهم، وهي (سدوم) وما حولها إلى أفق السماء، ثم قلبها عليهم، وأرسلها إلى

الأرض، وأتبعها بحجارة صغيرة، أصابت كل واحد منهم بحجر، كما قال-تعالى:- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ وقد نجى الله نبيه لوطاً ومن كان معه من المؤمنين من أهله ومن غيرهم، كما قال-تعالى:- ﴿إِلَّا عَالُ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحْرِ﴾ أي: آخر الليل ﴿نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: أنعمنا عليهم بإنجائنا إياهم مما أصاب قومهم.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ أي: كذلك نجازي الذين يشكرون ربهم، ويأتَمرون بما أمرهم به، وينتَهون عما نهاهم عنه .

﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا﴾ أي: أنذرهم لوط قبل نزول العذاب بهم بأن من يعرض عن أمرنا سوف نأخذه بالعذاب الشديد ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذْرِ﴾ أي: لم يصدقوا ما جاءهم به، بل شكوا فيه.

﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾ وذلك حين علموا بمجيء الملائكة إلى لوط، فأضافهم، فراودوه عن ضيوفه بعد أن أعلمتهم زوجته عن وجودهم لديه ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ فأعميت عيونهم، فرجعوا على أدبارهم ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ أي: ذوقوا ما حل بكم جزاء عملكم القبيح .

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي: فاجأهم في الصباح عذاب دائم لهم لاقوه في الدنيا، وسيلاقون عذاب يوم القيامة ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ أي: ذوقوا جزاء كفركم وعملكم القبيح.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي: سهلنا لفظه ومعانيه، وبيناه لمن يريد أن يتذكر به ﴿فَهَلْ مِنْ مُّدْكِرٍ﴾ أي: هل من متعظ؟.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير أن الله يجزي الشاكرين لنعمه، ويزيدهم منها، كما قال - تعالى -: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

- أن على المضيف أن يدافع عن ضيفه بوصفه في حمايته، وقد فعل لوط - عليه السلام - ذلك حين دافع قومه عن ضيوفه.

- أن فائدة التكرير في قوله - تعالى -: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ (٣٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّدْكِرٍ أن يجددوا عند استماع كل نبا من أنباء الأولين اذكاراً واتعاضاً، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً.

- أن فعل قوم لوط لم يسبقهم إليه أحد من الأمم، وأنه من أخس

الأعمال وأقبحها وأقذرها.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذْرُ﴾ ٤١ ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا
فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ﴾ ٤٢ ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ
أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ ٤٣ ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ ٤٤
﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ ٤٥ ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ
أَذَى وَأَمْرٌ﴾ ٤٦ ﴿.

بيان الآيات:

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذْرُ﴾ آل فرعون هم القبط، جاءهم
النُّذْرُ من الله على لسان موسى بن عمران وأخيه هارون، ومعهما الآيات
والبينات المؤيدة لدعوتهما لفرعون وقومه، فما آمنوا، بل تكبروا،
وطغوا، وكذبوا، فأخذهم الله بقوته وبأسه الشديد، فأغرقهم في البحر،
كما قال-تعالى:- ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ
مُّّقْتَدِرٌ﴾ وأخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال: «عزیز في نقمته
إذا انتقم».

قوله تعالى: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ﴾ هذا الاستفهام

المتضمن التهديد يراد به كفار قريش، أي: هل كفاركم خير من كفار الأمم السابقة كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم فرعون، الذين أهلكهم الله؛ بسبب تكذيبهم لرسولهم؟.

﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أي: هل لكم براءة وحصن من العذاب قرأتموه في الكتب؟.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾ أم أنهم يقولون: إن جمعهم سوف ينصرهم، وينجيهم من العذاب؟، والجواب: ليس لهم ذلك كله؛ لأنهم أضعف ما يكونون أمام قدرة الله وعظمته، وهو ما أخبر عنه- ﷺ -بقوله: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ أي: سينهزمون لا محالة؛ فمنهم من قتل يوم بدر، ومنهم من فر مدبراً هائماً على وجهه خوفاً من الموت.

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ أي: أن الساعة التي ينكرونها ستكون موعدهم، وحينذاك سيكون عذابهم أشد من عذابهم في الدنيا، وهو معنى قوله- تعالى -: ﴿وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ﴾ .

عن عائشة أم المؤمنين- رضي الله عنها- قالت: «لقد أنزل على محمد-

ﷺ- بمكة، وإني لجاريةُ الْعَبْ: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمَرٌ﴾^(١).

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير أنه لا فرق بين الكفار، مهما اختلفت أزمنتهم وأمكناتهم ومللهم، فكل من كفر بآيات الله، وكذب رسله، واتبع هواه، سيحقيق به العذاب أينما كان في أي زمان أو مكان.
- أن قوة الكفرة وبأسهم لا تغني عنهم شيئاً أمام قدرة الله وبأسه.
- أن قوله: ﴿سَيَهْزُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبْرَ﴾ من دلائل النبوة؛ لأنها آية مكية، وقد نزلت ولم يُفرض الجهادُ بعدُ، ففيها إخبار عن الغيب، وهذا من معجزات القرآن.
- أن عذاب الآخرة لا يقاس بعذاب الدنيا، كما قال-تعالى:-
﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٧].

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا

(١) صحيح البخاري، (٨/٤٨٦)، كتاب التفسير، سورة القمر، (الآية)، (رقم ٤٨٧٦).

أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ
 مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ
 مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ
 مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴿٥٦﴾

بيان الآيات:

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ هذا بيان من الله بأن الذين
 أجرموا في الدنيا، فأشركوا به، وعصوه، وانتهكوا حرماته، هم في
 حياتهم الدنيا في ضلال وشكوك وبعد عن الحق .

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ أي: يجرون على وجوههم
 حين يساقون إليها، ويقال لهم على سبيل التقرير: ﴿ذُوقُوا مَسَّ
 سَقَرَ﴾ أي: ذوقوا عذاب جهنم الذي كنتم به تستهزئون، وتكذبون.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ هذا بيان من الله أنه هو الذي خلق
 كل شيء في هذا الكون في علوه وسفليته، وأنه قضاء قضاءه، وقدر قدره،
 فما من شيء يحدث في هذا الكون من حادث كبير أو صغير إلا وقد
 قدره وكتبه في اللوح المحفوظ، وكل هذا بقوته وسلطانه، حيث يقول

للشيء: كن، فيكون، كما قال -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ
بِالْبَصَرِ﴾.

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: «جاء مشركو قريش يخاصمون رسول
الله -صلى الله عليه وسلم- في القدر، فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ
ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ ٤٨ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿١﴾».

وأخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في
قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ قال: «خلق الله الخلق كلهم
بقدر، وخلق لهم الخير والشر بقدر، فخير الخير السعادة، وشر الشر
الشقاء، ببس الشر الشقاء».

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ الخطاب هنا لمشركي مكة،
والمراد: لقد أهلكنا من كان قبلكم من الكفار الذين كذبوا رسلهم
﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ أي: هل من متعظ ومعتبر منكم بما حدث لهم؟.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ أي: كل ما فعله المشركون من الكفر
والتكذيب والعصيان قد كتبه الحفظة من الملائكة، وسيجدونه في
صحائف أعمالهم كاملاً غير منقوص.

(١) صحيح مسلم، (٤/٢٠٤٦)، كتاب القدر، باب: كل شيء بقدر، (رقم ٢٦٥٦).

﴿وَكُلٌّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ﴾ أي: كل صغيرة أو كبيرة من

أعمالهم مسطورة في صحائف أعمالهم، سوف يرونها بأنفسهم، فلن يستطيعوا إنكارها؛ لأن أعضاءهم تشهد عليهم إذا أنكروها، كما أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة في قوله: ﴿مُّسْتَطَرٌّ﴾ قال: «محفوظ مكتوب».

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ لما بين الله حال المجرمين، وما

سيلاقونه من العذاب لقاء ضلالهم في الدنيا، بين -عَلَى- نقيضهم، وهم المتقون الذين عبدوا الله حق عبادته، فلم يشركوا معه غيره، ولم ينتهكوا حرماته، بل صدقوا آياته ورسوله، واتبعوا ما أمروا به، فهم في جنات تجري من تحتها الأنهار .

﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ﴾ هو الجنة دار الكرامة والرضوان ﴿عِنْدَ

مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: عند الملك العظيم رب الكون ومليكه، الذي خلق كل شيء، وقدره بعدله وحكمته، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، فله الحمد والثناء على ما أنعم به، وأفضل على عباده.

أحكام وفوائد الآيات:

- بيان مآل المجرمين يوم القيامة، وعدل الله فيهم.

- أن كل شيء في الكون علوه وسفليه هو مخلوق بقدر الله وإرادته وسابق علمه، كما قال-تعالى:- ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ وَتَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقال: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٣]، وفي الحديث: «استعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»^(١)، وهذا يقتضي الإيمان المطلق بالقدر، وهذا الإيمان ركن من أركان الإيمان، ولا يشك في القدر إلا من نزع الله منه ربة الإيمان.

- أن أقوال العباد وأفعالهم مدونة في صحائف أعمالهم، كما قال-تعالى:- ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب: في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض

المقادير إليه، (رقم ٢٦٦٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الرحمن

مدنية، وآياتها ثمان وسبعون آية

﴿الرَّحْمَنُ ١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ٣ عَلَّمَهُ
الْبَيَانَ ٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ٥ وَالتَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ
٦ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ٧ أَلا تَطَعُوا فِي الْمِيزَانِ ٨
وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ٩ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا
لِلْأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَكَيْهَةٌ وَالتَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ١١ وَالْحَبُّ ذُو
الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ١٢ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾.

بيان الآيات :

﴿الرَّحْمَنُ﴾ اسم من أسماء الله -عز وجل- ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ هذا
بيان من الله -عز وجل- أنه الذي علَّم نبيه ورسوله محمداً -صلى الله عليه وآله وسلم- القرآن، ثم
تعلمته منه أمته، كما أنزله الله إليه.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ٣﴾ أي: أن الرحمن هو الذي

خلق الإنسان من العدم، وعلمه النطق، وفصاحة اللسان.

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي: والرحمن هو الذي جعل

الشمس والقمر يتعاقبان في نظام محكم، لا يتبدل، ولا يتغير، ولا يضطرب .

﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ النجم: ما ليس له ساق من

النبات، والشجر هو الذي له ساق، وقيل: إن المراد بالنجم هنا: نجوم السماء، وعلى هذا فعلى أيّ تفسير حملت فهما يسجدان خضوعاً لله.

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أي: رفع السماء عن الأرض،

كما اقتضت بذلك إرادته وحكمته ووضع الميزان، والمراد به: آله؛ لكي ينتصف الناس من بعضهم حين يتعاملون، كما أخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ قال: «العدل».

﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ أي: لا تبخسوا، ولا تخونوا من وزنتم

له ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل وعدم الجور ﴿وَلَا

تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي: لا تنقصوا إذا وزنتم لغيركم، بل يجب أن

توفوا في وزنكم.

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ أي: مهد الأرض، وبسطها، وسهلها

لخلقه، كما أخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-: ﴿لِلْأَنَامِ﴾ قال: «للخلق» ﴿فِيهَا فَكِيهَةٌ﴾ أي: وضع فيها فاكهة متعددة الألوان والمذاق .

﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ أي: وضع في الأرض النخل بأكمامه، والمراد بها: وعاء الطلع.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ الحب: الحنطة والشعير، والعصف: التبن، وسمي عصفاً لأن الريح تعصف به، أي: تنتثره، والريحان: كل بقلة لها رائحة زكية، كما أخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قوله: ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ يقول: «خضرة الزرع».

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فبأي نعم الله الظاهرة والباطنة تكذبون؟، ونجيب على ذلك بجواب الجن المؤمنين، لما تلا عليهم رسول الله -ﷺ- هذه السورة، فكلما مر بقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: «لا بشيء من نعمتك ربنا نكذب، فلك الحمد»^(١).

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير، باب: من سورة الرحمن، (رقم ٣٢٩١)، وحسنه الألباني.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الله هو الذي علم نبيه ورسوله محمداً - ﷺ - القرآن، وفي هذا دحض لافتراء المشركين ومن كان على ملتهم بأن القرآن لم يكن من عند الله، وإنما هو مفترى من محمد، وفي ذلك قال - ﷺ -: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود: ١٣].
- أن الله بدأ بتعليم القرآن لأنه أعظم النعم شأناً، وأرفعها مكاناً، فهو مدار السعادة الدينية والدنيوية.
- أن الله هو الذي قرر العدل بين خلقه، ودلهم على صنع آله، وهي الميزان.
- وجوب إقامة العدل، وعدم بخس الناس حقوقهم، كما قال - تعالى - : ﴿ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [هود: ٨٥]، وقال: ﴿ وَيَلْلُمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ ﴾ [المطففين: ١ - ٣].
- ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ

مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ
وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرْجَ
الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ
كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ .

بيان الآيات:

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ أي: أن الرحمن هو الذي خلق الإنسان ﴿ مِنْ صَلْصَلٍ ﴾ أي: من طين يابس له صلصلة أي: صوت ﴿ كَالْفَخَّارِ ﴾ وهو الطين الذي يُحَرَّقُ حتى يصير مثل الحجارة، وتصنع منه الأواني ونحوها، كما أخرج آدم بسند صحيح عن مجاهد: ﴿ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ قال: «كما يصنع الفخار».

﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ أي: خلق الجن من لهب النار ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي: فبأي نعم ربكم الدينية والدنيوية الظاهرة والباطنة تكذبون؟.

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ أي: هو رب المشرق والمغرب، ورب كل شيء ومليكه، كما أخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد قال: «مشرق الشتاء ومغربه، ومشرق الصيف ومغربه».

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ أي: البحر المالح والبحر العذب يلتقيان، ولا يمتزجان؛ لأن الله جعل بينهما حاجزًا من الأرض هو البرزخ، لكي ينتفع العباد بكل واحد منهما حسب طبيعته، وأخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد قوله: ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ قال: «لا يختلطان».

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ المراد بهما: خرز للزينة، خلقهما الله لنفع الإنسان وفائدته.

كما أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «إذا أمطرت السماء فتحت الأصداف في البحر أفواهاها، فما وقع من قطر فهو اللؤلؤ».

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لا بشيء من آلائك ربنا نكذب،

فلك الحمد.

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ﴾ أي: السفن الجارية المرفوعة ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ في علوها وظهورها للعيان ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فهذه هي نعم الله لكم أيها العباد، فكيف تكذبون، وتكفرون بهذه النعم، مع أن الواجب عليكم شكر الله عليها؟.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الإنسان خُلِقَ من طين، كما قال -عَلَيْهِ السَّلَام-: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [غافر: ٦٧]، أما الجن فقد خلقوا من لهب جهنم، وفي حديث عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله -ﷺ- قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»^(١).

- بيان الله لنعمه على عباده، ومنها: إيجاد البرزخ بين البحرين: المالح والعذب؛ لينتفعوا بكل واحد منهما حسب طبيعته، ومن هذه النعم: خلق اللؤلؤ والمرجان؛ لما فيهما من منافع الإنسان وزينته، وهذه المنافع لا تزال مشهودة.

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد، باب: في أحاديث متفرقة، (رقم ٢٩٩٦).

- أنه نتيجةً لدوران الأرض حول محورها انبجعت قليلاً عند خط الاستواء، وتفلطحت قليلاً عند القطبين، ونتيجة لذلك أصبح لكل من المشارق والمغارب العديدة نهايتان تمثلان أقصى زمانين ومكانين لكل من شروق الشمس وغروبها على أقصى بقعتين من بقاع الأرض، تمثل كلُّ منهما مرةً أقصى الشروق، ومرةً أقصى الغروب، ومن هنا كان للأرض مشرقان ومغربان^(١).

- إلهام الله للإنسان صناعة السفن، حيث تطور هذا الإلهام إلى جعل السفن أحد المعالم الكبرى في العصر الحديث.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٣٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾

بيان الآيات:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٣٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٣٧﴾﴾ أي: كل من في الأرض من إنس وجن وغيرهم من المخلوقات

(١) آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم، للدكتور زغلول النجار، الصفحات (٤٨٧-٥٠٢).

صائر إلى الزوال، فلا يبقى إلا الله الحي القيوم، ذو العظمة والكبرياء، الذي خلق الخلق ويميتهم، ثم يحييهم، فلا رب إلا هو، ولا إله إلا هو، ولا حي باقياً إلا هو، فتقدست ذاته وأسماءه وصفاته ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو الغني عن خلقه، وهم المفتقرون إليه في دنياهم وأخراهم، فإذا دعوه استجاب دعاءهم، وإذا سألوه كشف ضرهم ورحمهم، فأزال عنهم بأساءهم وضرّاءهم، وإذا شكروه على نعمه زادهم منها، فهو دائماً قريب منهم، كما قال - ﷺ -: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ أي: يغفر الذنوب، ويفرج الكرب، ويجيب الدعوات، ويرحم العبرات، ويغفر الخطايا والزلات، لا يشغله شاغل، ولا يثقل عليه سؤال السائلين، وإلحاح الملحين، يتوب على التائبين، ويغفر ذنوب المستغفرين، عمّت فضائله ونعمه أهل الأرض والسموات، فما من مخلوق في الكون في علوه وسفله حتى العصاة إلا وقد تقلب في نعمه، فله الحمد والشكر على عطائه وهباته.

وأخرج ابن ماجه عن أبي الدرداء قال: «من شأنه: أن يغفر ذنباً، ويفرّج كرباً، ويرفع قوماً، ويخفض آخرين»^(١)، كما أخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد قال: «كل يوم هو يجيب داعياً، ويكشف كرباً، ويجيب مضطراً، ويغفر ذنباً».

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لا بشيء من آلائك ربنا نكذب،

فلك الحمد.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن في الآية (٢٦) إخباراً مستقبلياً بأن كل مَنْ على وجه الأرض من الخلق هالك.

- أن كل من في الكون يفنى، فلا يبقى إلا الله ذو العظمة والكبرياء، كما قال -عجل-: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]،

وفناء الجن والإنس موقوت إلى قيام الساعة، ثم يبعثون للحساب والجزاء، فيذهب أهل التقى إلى الجنة فيخلدون فيها، ويذهب المشركون والطغاة إلى النار، ويخلدون فيها، إلا من رحم الله منهم.

- أن في الآية (٢٩) إخباراً مستقبلياً أن الله -عجل- يسأله مَنْ في

(١) السنن، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، (٢٠٢)، وحسنه البوصيري، مصباح الزجاجة، (٨٨/١)، وحسنه الألباني كما في صحيح سنن ابن ماجه، (٤٠/١).

السماوات والأرض حاجاتهم، فلا غنى لأحدٍ- في الماضي أو الحاضر أو المستقبل-عنه- سبحانه-، فهو كلُّ يوم في الماضي والحاضر والمستقبل في شأن، يُعزُّ ويُدلُّ، ويعطي ويمنع.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّةَ الثَّقَلَانِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يَمْعُشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَأَنْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَنِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾.

بيان الآيات:

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّةَ الثَّقَلَانِ﴾ أي: لحسابكم ومجازاتكم يوم القيامة حسب ما في صحائف أعمالكم، والمراد: بالثقلين الجن والإنس، وسميّا ثقلين لأنهما أثقلا بالتكاليف ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قوله: ﴿يَمْعُشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا﴾ أي: تهربوا ﴿مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَأَنْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَنِ﴾ أي: إن استطعتم أن تهربوا من الحساب والجزاء فاهربوا،

ولكنكم لن تقدروا؛ لأن قضاء الله وقدره محيط بكم من كل جانب، فلا مفر ولا مهرب منه، وإنما هي أعمالكم توفى لكم بالعدل من الرحمن، وأخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿بِسُلْطَنِ﴾ قال: «بحجة» .

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: هل تكذبون بما تكونون فيه يوم القيامة أمام ربكم، وهو الذي خلقكم أولاً، ثم أماتكم ثانياً، ثم أعادكم إليه مرة أخرى، والجواب: لا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي: لهب النار ﴿وَنُحَاسٌ﴾ أي: دخانها ﴿فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ أي: لا تقدران إن اردتم الفرار من القضاء والفصل يوم القيامة، وأخرج هناد بسند صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ قال: «يذاب الصفر، فيصب على رؤوسهم»^(١).

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: هل تكذبون بقدره الله؟، والجواب: لا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد، هذا ما يجب أن

(١) الزهد، (رقم ٢٧٠).

يقوله العبد عند قراءة هذه الآية كما ذكره السلف.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الله يفصل يوم القيامة بين الجن والإنس، فلا يستطيع أحد منهم الفرار في ذلك اليوم؛ لأنهم محكومون بأمره، الذي يحيط بهم من كل جانب.
- تؤكد المعارف الحديثة عَجَزَ كل من الجن والإنس عن النفاذ من أقطار كل من الأرض على حدة، والسموات على حدة؛ لأنَّ الأرض ليست تامة الاستدارة؛ لانبعاجها قليلاً عند خط الاستواء، وتفلطحها قليلاً عند القطْبَيْن، ويستحيل على الإنسان اختراق الأرض من أقطارها؛ لارتفاع كل من الضغط والحرارة باستمرار في اتجاه المركز مما لا تطيقه القدرة البشرية؛ لأنَّه من الثابت علمياً أن درجة الحرارة تزداد باستمرار من سطح الأرض في اتجاه مركزها^(١).
- أنه من الثابت علمياً أن عنصر النحاس يَتَخَلَّقُ في صفحة السماء الدنيا باندماج نوى ذرات الحديد مع بعض اللُّبَنَاتِ الأولية للمادة، وهذا يجعل صفحة السماء الدنيا زاخرة بذَرَّاتِ العناصر

(١) آيات الإعجاز العلمي الأرض في القرآن الكريم، للدكتور زغلول النجار، (ص ٣٣٧-٣٥٠).

الثقيلة، ومنها: النحاس، والنحاس منصهر، وتغلي قطراته في صفحة السماء، ويُعدُّ عقاباً رادعاً لكل محاولة من الإنس أو من الجن لاختراق أقطار السماوات والأرض^(١).

- أن من تصور أنه يستطيع الفرار سوف يصاب بلهب نار جهنم ودخانها.

﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأُقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾

بيان الآيات:

﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ هذا تتمة لما ذكره الله -عز وجل- عن أحوال يوم القيامة، وفي تلك الأحوال تنشق السماء، فتكون ﴿وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ أي: تكون حمراء كحمرة الورد، وتصير مثل الدهن في

(١) آيات الإعجاز العلمي الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص (٣٣٧-٣٥٠).

رقتها ﴿فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ أي: في ذلك اليوم الذي تقوم فيه الساعة، وتنشق السماء، ويعود الناس إلى ربهم، لا يسأل الله العباد عن ذنوبهم؛ لأنه أعلم بها منهم، وإنما يسألون: لماذا عملتم ما عملتم؟ وأخرج الطبري بسند حسن عن قتادة في قوله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ قال: «حفظ الله- ﷻ عليهم أعمالهم» ﴿فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

﴿يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي: بعلاماتهم في وجوههم، وهو اسودادها، كما أخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد قال: «لا يسأل الملائكة عن المجرم يعرفون بسيماهم».

﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ أي: تأخذ الملائكة المجرم من ناصيته وقدميه، فترميه في النار ﴿فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: تقول

الملائكة الموكلون بالعذاب تقرعاً لهم: أيها المجرمون! هذه جهنم التي كنتم تكذبون بها، وتستنهضون بمن يحذرکم منها، فاصلوها اليوم بما كنتم تكفرون.

﴿يُطَوَّفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ أي: يترددون بينها وبين الحميم الذي اشتدت حرارته، فهم في تطوافهم يلاقون أشد العذاب، لا يفتر عنهم، وهم فيه مبلسون، وأخرج الطبري بسند صحيح عن ابن زيد قال: ﴿ءَانٍ﴾ حاضر ﴿فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الساعة حين تقوم يتغير الكون من أساسه، فتنطمس النجوم، وتنسف الجبال، وتنشق السماء، كما قال -عَلَيْهِ السَّلَام-: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالْغَمِّ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقال: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ ۖ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١ - ٢].

- وصف السماء حين تتشقق، فتصبح حمراء اللون، وتسيل كما يسيل الدهن.

- أن الناس سيكون لهم علامات يوم القيامة، فمنهم من يبيض

وجهه، ومنهم من يسود، كما قال-تعالى:- ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ
وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ ﴿٤٦﴾ فِيْهَا أَلَاءٌ مِنْ رَبِّكَ مَا
تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ۖ ﴿٤٨﴾ فِيْهَا أَلَاءٌ مِنْ رَبِّكَ مَا تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٤٩﴾
فِيْهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۖ ﴿٥٠﴾ فِيْهَا أَلَاءٌ مِنْ رَبِّكَ مَا تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٥١﴾
فِيْهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ۖ ﴿٥٢﴾ فِيْهَا أَلَاءٌ مِنْ رَبِّكَ مَا تُكَذِّبَانِ
ۖ ﴿٥٣﴾﴾

بيان الآيات:

﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ لما بين الله -ﷻ- ما لأهل النار
من العذاب في الحميم، بين أن لمن اتقى ربه، وخشيه، وأطاعه،
واجتنب معاصيه جنتين، وقد ورد في معناهما أقوال كثيرة، منها: ما
أخرجه البخاري مرفوعاً قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما،
وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا
إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن»^(١)، والأخرى عن ترك
معاصيه ﴿فِيْهَا أَلَاءٌ مِنْ رَبِّكَ مَا تُكَذِّبَانِ﴾ لا بشيء من آلائك

(١) الصحيح، (٨/٤٩١)، كتاب التفسير، باب الآية، (رقم ٤٨٧٨)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب
إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم، (رقم ١٨٠).

ربنا نكذب، فلك الحمد.

﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ أي: أغصان، هذا وصف للجنيتين، أي: فيهما ألوان وأصناف من الفاكهة ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أي: في كل واحدة من الجنيتين عين تجري بالماء الزلال، لا تتبدل، ولا تتغير ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أي: في كل من الجنيتين أنواع من الفواكه التي يتنعمون ويتلذذون بها ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

أحكام وفوائد الآيات:

- فضل الخوف من عذاب الله - ﷻ، واستشعار عظمته وقوته وانتقامه من الطغاة والمكذبين، والخوف ينبغي أن يكون من الله، وليس من أحد من خلقه، كما قال - ﷻ -: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

- أن الخوف من الله يوصل إلى تقواه، وقد وعد الله - ووعد الحق -

أن للمتقي لربه جنتين: إحداهما عن طاعته لله، والأخرى عن ترك معاصيه، وفي هاتين الجنتين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿مُتَكِينٍ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٦﴾ فِيهِنَّ قَلَصِرَاتُ الْظَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٨﴾ كَانَهُنَّ أَلْيَافُوتٌ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٠﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٢﴾﴾

بيان الآيات:

﴿مُتَكِينٍ﴾ أي: أهل الجنة ﴿عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ أي: الغليظ من الديباج، كما ثبت عن عكرمة في رواية الطبري ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أي: ثمار أشجار الجنتين قريبة منهم، متى ما أرادوا تناولوها ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: هل تكذبون بهذه النعم التي وعد الله بها المتقين؟

﴿فِيهِنَّ قَلَصِرَاتُ الْظَّرْفِ﴾ أي: وفي الجنتين اللتين أعدهما الله

لمن خاف مقامه زوجات غضيضات الأبصار، طاهرات، لا ينظرن إلا إلى أزواجهن ﴿لَمْ يَطْمِئُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ أي: هنّ أبكار لم يطأهنّ أحد قبلهم من الإنس أو الجن، فلم يطأ الإنسي الإنسية، ولم يطأ الجني الجنية قبل زوجها.

﴿فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٥٧ ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ أي: هنّ في صفاء الياقوت وبياض المرجان ﴿فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بهذه النعم .

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ أي: هل جزاء من آمن بالله في الدنيا، وعمل صالحًا، وخاف مقام ربه إلا الإحسان إليه، ومجازاته في الآخرة بالأجر والثواب على عمله، ولا شك أن هذا من عدل الله ورحمته بعباده.

﴿فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير طهر نساء الجنة وفضلهنّ، فلا ينظرن إلا إلى أزواجهنّ، ولا يحبنّ إلا إياهم، وفي هذا دليل على أن الزوجة الصادقة في

- الدنيا هي التي لا تنظر إلا إلى زوجها، ولا تحب إلا إياه.
- حُبُّ نساء أهل الجنة لأزواجهنَّ، بحيث لا ينظرنَ إلا إليهم.
 - الدليل على أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة، ويتزوجون من الجنَّيات فيها.
 - أن من عدل الله في عباده: أنه يجازي الذي أحسن في الدنيا، وعمل صالحًا بالإحسان إليه في الآخرة، وزيادته على ذلك، كما قال-تعالى:- ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال-عزَّ ذكره:- ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].
 - ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَمَمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ

قَبْلَهُمْ وَلَا جِأْنُ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِئِينَ
عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرٍ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَرَّكَ أَصْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ .

بيان الآيات:

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أي: من دون الجنتين الأوليين جنتان
أخريان، دونهما في الفضل، فالأوليان للمقربين، والأخريان لأصحاب
اليمين ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لا بشيء بآلاء ربنا
نكذب، فله الحمد ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ أي: مسودتان من شدة الاخضرار.
﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿١٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ﴿١٦﴾
أي: في الجنة عينان فياضتان أو فوارتان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٢٧﴾ فِيهِمَا فَلَكَهٗ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٢٨﴾ وقد خصَّ الله النخل
والرمان بالذكر من بين الفاكهة لشرفهما.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: كيف تكذبون بهذه النعم
العظيمة المعدة لأهل الجنتين؟ ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ أي: في
الجنتين نساء صالحات حسان الوجوه، كما أخرج الطبري بسند
حسن عن قتادة قال: «في هذه الجنان خيرات الأخلاق، حسان

الوجوه» ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لا بشيء من آلاء ربنا نكذب، فله الحمد.

﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ أي: إن تلك النساء الصالحات حور مخدرات في البيوت، والهوراء: من غلب بياض عينيها سوادهما، وأخرج البخاري مرفوعاً: «إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخريين، يطوف عليهم المؤمنون»^(١).

وأخرج الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً عن مجاهد قوله: ﴿مَّقْصُورَاتٌ﴾ قال: «مقصورات على أزواجهنَّ، فلا يردنَّ غيرهم» ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لا بشيء بآلاء ربنا نكذب، فله الحمد.

﴿لَمْ يَطْمِئْهُمْ اِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ أي: لم يطأهنَّ إنس ولا جان قبل أزواجهنَّ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ونقول: لا بشيء من آلاء ربنا نكذب، فله الحمد.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِيِّ حِسَانٍ﴾ أي: أن

(١) صحيح البخاري، (٨/٤٩١)، كتاب التفسير، سورة الرحمن، (رقم ٤٨٧٩)، وأخرجه مسلم في صحيحه، الجنة وصفة نعيمها، (٤/٢١٨٢)، (رقم ٢٨٣٨).

أصحاب الجنتين متكئون على الفرش الخضر العالية الحسان، التي لها رفرقة تزيد في جمالها، وأخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قوله: ﴿وَعَبْقَرِيَّ حِسَانٍ﴾ قال: «الزرابي» ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: كيف تكذبون بما أعد الله للمتقين من الجنتين؟، ونحن نقول: لا بشيء من آلاء ربنا نكذب، فله الحمد.

﴿تَبَارَكَ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: تقدّس الله ذو العظمة والكبرياء، فله الحمد على آلائه وعلى فضائله، وما أعده لأوليائه.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير الفرق بين الجنتين اللتين أعدتا للمقربين، واللتين أعدتا لأصحاب اليمين، وقد أشار الله إلى هذا الفرق بينهما بالنص، فقال في الجنتين الأوليين: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ وهي كثيرة الأغصان، وقال في الثانية: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ أي: مسودتان من شدة الاخضرار، فوصف الأوليين بكثرة الأغصان، ووصف الآخرين بالخضرة وحدها، وقال في الأوليين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ﴾ وفي الآخرين: ﴿نَضَّاحَتَانِ﴾ أي: فوّارتان، ولكنهما

ليستا كالجاريتين، والنسخ دون الجري، وقال في الأوليين:
﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ وهذا عموم، وليس بخصوص،
وفي الآخرين قال: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ﴾، ولم يقل: من
كل فاكهة، وقال في الأوليين: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ
إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ وهو الديباج، وقال في الآخرين:
﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ وفي ذلك فرق
بينهما، وقال في الأوليين في وصف الحور: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ
وَالْمَرْجَانُ﴾، وقال في الآخرين: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ وليس
كل حسن كحسن الياقوت والمرجان^(١).

- أن الله خص نوعين من الفاكهة، وهما التمر والرمان، فلا بد أن
فيهما من المنافع الغذائية والصحية أكثر مما في غيرهما.
- أن الله مدح المرأة التي تقر في بيتها، وهذا يقتضي ذم من تخرج
من بيتها من نساء الدنيا لغير حاجة، كما قال -عَلَيْهِ السَّلَام-: ﴿وَقَرْنَ
فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣].



(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، (١٧/١٨٣ - ١٨٤).